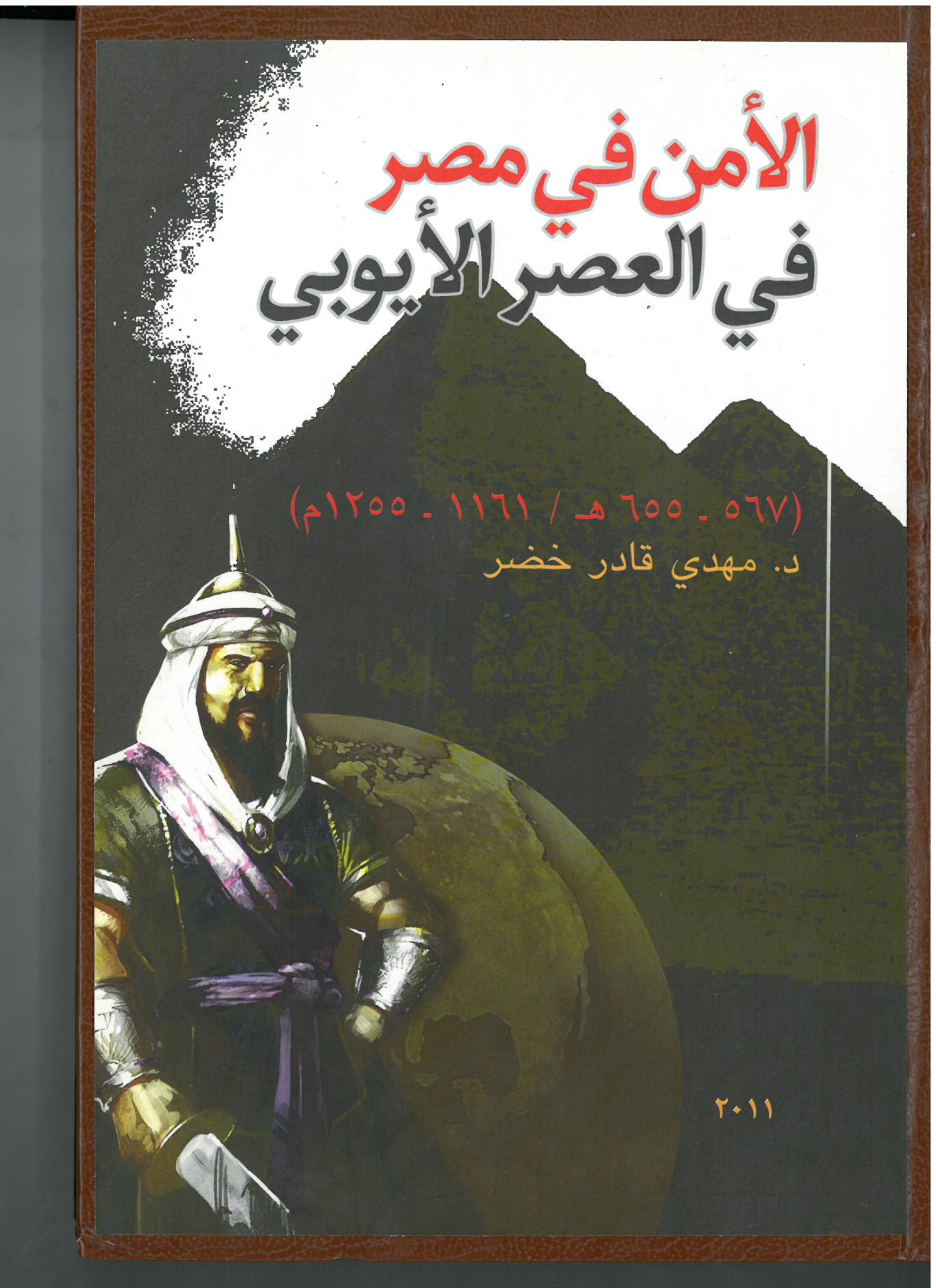

الأمن في مصر
في العصر الأيوبي
(٥٦٧ - ٦٥٥ هـ / ١١٦١ - ١٢٥٥م)
د. مهدي قادر خضر
٢٠١١

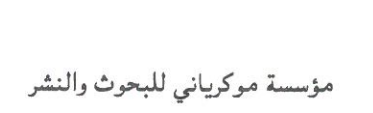
الأمن في مصر في العصر الأيوبي

(٥٦٧-٦٥٥هـ/١١٧١-١٢٥٥م)

د. مهدي قادر خضر



اربيل- ٢٠١١

- **الأمن في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٥٥هـ/١١٧١-١٢٥٥م)**
- تأليف: د. مهدى قادر جضر
- التصميم الداخلي: رەوان
- تصميم الغلاف: مراد بهراميان
- رقم الايداع: (٤٥٧) سنة ٢٠١١
- عدد النسخ: (٥٠٠)
- الطبعة الاولى ٢٠١١
- السعر: (٣٠٠٠) دينار
- المطبعة: مطبعة روژهەلات (اربيل)

تسلسل المكتاب (٥٦٦)

www.mukiryani.com
info@mukiryani.com

فهرست

الإهـداء

إلى كل المخلصين الذين يعملون بجد وأمانة
من أجل ترسيخ الأمن والاستقرار ونشر السلام
في ربوع كوردستاننا الحبيبة

أهـدي ثمـرة جهدي هذا

المقدمة

الحمد لله الآمر بالعدل والإحسان والناهي عن الظلم والعدوان، وأصلي واسلم على رسوله محمد الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد

فان فكرة انبثاق موضوع الاطروحة تعود إلى أستاذي الفاضل الدكتور أرسن موسى رشيد، الذي أصبح فيما بعد مشرفاً عليها، إذ له الفضل في اقتراحه وتبنيه وقد وقع هذا الموضوع في نفسي موقعاً حسناً، حينما ثبت لي -بعد استشارات متعددة لأساتذتي ولغير واحد من الباحثين المختصين-، ان هذا الموضوع جديد لم يتناوله قلم باحثٍ، استقصاءً ودراسةً وتحليلاً، وإنما توجد مادته وما يتعلق به مبثوثة في بطون الكتب مما يحتاج إلى دراسة مستفيضة، تقوم على جمع هذه المعلومات وعرضها والموازنة بينها وترجيح كثير منها.

إن حقبة البحث التي وقع اختيارنا عليها قد شهدت نزاعاً مريراً بين قوتى الشرق والغرب، تمخضت عنها سلسلة من الحروب والمعارك الدامية، التي وقعت أحداثها بين المسلمين والصليبيين، كما حدثت في الوقت نفسه فتن وصراعات بين المسلمين أنفسهم توازي معاركهم مع الصليبين خطورةً وشراسةً ان لم تتفوق عليها، وظهر خلال هذا الصراع الطويل أسماء لأُسر وشخصيات عديدة، لعلنا لا نغالي إذا قلنا ان الأيوبيين كانوا من أبرز تلك الأُسر، وان صلاح الدين كان واحداً من أبرز الشخصيات لتلك الحقبة، وأشهرها على الإطلاق.

احتلت ديار مصر أهمية خاصة في هذه الحقبة نظراً لما كانت تتمتع به مميزات استراتيجية و اقتصادية مما له أكبر الأثر في تطلع الصليبيين إليها دوماً طمعاً فيها، لاسيما بعد ان تدهورت أحوالها بعد صراع الوزراء الفاطميين فيها بينهم، غير ان الأيوبيين لم يفتهم ذلك بل انتبهوا إلى الخطر الصليبي المحدق، فرصدوا تحركاتهم، واتخذوا التدابير الكفيلة لإحباط محاولاتهم، لئلا تقع البلاد فريسة بأيديهم، وهكذا تمكنت الأُسرة الأيوبية التي قامت على أنقاض الدولة الفاطمية واتخذت القاهرة — وكما كانت - عاصمة لها من إجهاض الكثير من المخططات الصليبية ومنعهم من الوصول إلى الديار .

واجهت الأيوبيين في البداية صعوبات جمة لترسيخ كيانهم، اذ لم يكن من السهل على رجال الدولة الفاطمية وأنصارها القبول بالواقع الجديد، لذا رفضوه رفضاً شديدا وقاوموه بكل قوة، فضلا عن المخاطر التي شكلها الصليبيون أصحاب الأطماع الدائمة في بلادهم، وقد تطلبت مصلحة الجانبين أن يتعاونوا معاً لأجل القضاء على هذه الدولة الفتية الجديدة، التي كانت تشكل في نظرهم تهديداً خطيراً على أمنهم ومصالحهم، وقد أظهر الأعداء ذلك الرفض بسلسلة خطيرة من المؤامرات والدسائس التي استهدفت القضاء على النظام الجديد الذي قادته وشجعت عليه الأُسرة الأيوبية.

حاولت القوى المعادية الداخلية منها والخارجية على السواء زعزعة أمن الديار واستقرارها، مما دفع هذا العمل الأيوبيين إلى مواجهة هذه الأخطار، ومنع الأعداء من أي انجاز، فأنتهجوا لذلك سياسة حكيمة تجلت في إقامة العديد من الاستحكامات الأمنية في ديار مصر ولا سيما القاهرة منها، باعتبارها عاصمة دولتهم ومركز حكمهم، وتعد قلعة الجبل (صلاح الدين) وسور القاهرة وقلعة الروضة من الأمثلة الشاهدة على قدرة الأيوبيين في المحافظة على أمن بلادهم ورعاياهم، فضلاً عن إقامتهم العديد من المؤسسات الأمنية التي اختصت كل منها بجانب معين من جوانب الحياة والحفاظ عليها، وبفضل هذا الاهتمام عجزت معظم المحاولات عن اختراق الجدار الأمني الصلب، خصوصاً في عهد صلاح الدين الذي كان سلطانا شجاعاً وعلى مقدرة عالية من الكفاءة.

أما المنهج الذي سارت عليه الرسالة فلا ندعي لأنفسنا إننا أتينا فيه بمنهج جديد، بل أفدناه واستعنا فيه بدراسات سبقتنا ومنها: ثلاثة أعمال أكاديمية مفيدة، أقدمها أطروحة الدكتور محسن محمد حسين الموسومة بـ(الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين) التي نشرت سنة ١٩٨٦م، و الثاني رسالة الدكتوراه الموسومة، بـ(الاستخبارات الأيوبية في عصر صلاح الدين) التي قدمها الدكتور نه به ز مجيد أمين إلى كلية الآداب بجامعة صلاح الدين سنة ١٩٩٦م، و الأخيرة أطروحة الدكتوراه التي قدمها الدكتور أحمد عبد عزيز السورجي الموسومة بـ(الأمن خلال بغداد في العصر العباسي) التي قدمت إلى كلية الآداب بجامعة صلاح الدين سنة ١٩٩٨م:

وتطلبت خطة البحث التي اخترناها تقسيم الرسالة إلى فصول خمسة جاءت كالآتي:

الفصل الأول تضمن تعريف الأمن لغة واصطلاحاً، والحديث عن الأوضاع الأمنية في الدولة الفاطمية قبل قيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م.

الفصل الثاني فأشتمل على بيان الاستحكامات الأمنية من حيث نوعها ومكان إقامتها.

وتناول **الفصل الثالث** الأمن الخاص (أمن الدولة)، تطرقنا فيه إلى تعداد المؤسسات الأمنية في ذلك العصر، التي كان هدفها يتركز بالدرجة الأساس على حماية أمن الدولة و مؤسساتها.

الفصل الرابع فجاء تحت عنوان الأمن العام الذي ينضوي تحته مجموعة من المؤسسات الأمنية التي تولت حماية الأهالي بشكل خاص.

في حين جاء الفصل الخامس وهو آخر الفصول متناولاً تدهور الأوضاع الأمنية وأسبابها ونتائجها، بسبب الصراعات الدامية على السلطة بين أبناء الأُسرة الأيوبية نفسها، إضافة إلى الكوارث الطبيعية والبشرية، وما أدت إليه من نتائج سلبية.

وأنهيت الرسالة بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستنا المستفيضة لمفردات هذا الموضوع.

أهم الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذه الرسالة فهي صعوبة الموضوع، إذ على الرغم من كون مادة الرسالة مبثوثة، إلا أنها مع ذلك لم تكن متسلسلة مما احتاجت إلى قراءات متأنية ومتواصلة بغية الحصول على تصور واضح وكامل للمسألة التي نحن بصددها، ولعل الصعوبة الأخرى تكمن في عدم استطاعتي من الاطلاع على المسرح الذي وقعت عليه الأحداث في عصر الأيوبيين، وكيف واجهوا هذه الأخطار بالاعتماد على المؤسسات الأمنية التي لم يبق منها إلا الأثر. كما إني لم أستطع الإفادة من الوثائق الموجودة في مكتبات القاهرة التي تتعلق بالموضوع.

وأخيراً لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم امتناني إلى حكومة الإقليم وإلى ورئاسة جامعتي دهوك وصلاح الدين/ أربيل، لما أبدتا لي من الدعم والمساعدة لأجل إنجاز هذا العمل، وكذلك أقدم شكري وتقديري الى جميع منتسبي المكتب الوطنية، والمجمع العلمي العراقي ودار صدام للمخطوطات، كما أقدم خالص شكري عرفاني إلى أستاذي المشرف الدكتور أرسن موسى رشيد الذي أغنى الرسالة بتوجيهاته وآرائه وملاحظاته القيمة، كما أتقدم بخالص شكري وتقديري إلى أخوي الفاضلين الأستاذ صباح حسين محمد الشنكالى والأستاذ نزار خورشيد مامه العقراوي اللذين قاما مشكورين بمراجعة سطور هذه الرسالة وتصحيحها لغوياً. ولا أنسى أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى كل من أعانني في إتمام هذه الرسالة، لا سيما العاملين في مكتبة كلية الآداب بجامعتي دهوك وصلاح الدين.

وفي ختام هذا العمل لا يسعني إلا أن أقول إني قد بذلت فيه جهدي، أسأل الله تعالى أن يتقبله مني، ويجعله في ميزان حسناتي عنده يوم القيامة، والله يعلم أني قد تحريت فيه الصدق والأمانة

العلمية ما وسعني الوقت والجهد ومكنتني منه الوسيلة، فإن أصبت فذاك خير هداني الله إليه، وإن أخطأت وتعثر قلمي هنا وهناك فحسبي أني أخلصت النية وأعملت الفكر وتحريت الصدق.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير والحمد لله كل الحمد الأولى والآخرة.

تحليل المصادر والمراجع

يطول الكلام في تناول المصادر والمراجع كلها التي ارتكز عليها البحث، لذا سنقتصر الحديث على المصادر الأساسية فقط والتي تضم كتباً في علوم متنوعة، في التاريخ والتراجم والرحلات، لاسيما تلك التي عاصر مؤلفوها الحقبة الأيوبية، وقد استلزمت طبيعة البحث قراءة تلك المصادر والمراجع بتأن ودقة بالغة لدرجة اقتضت الضرورة معها غربلة المادة واستقصاءها للحصول على المعلومات المفيدة للبحث، وقد تم الحصول على معلومات قيمة كانت بمثابة العمود الفقري للبحث، وسوف نتطرق إليها حسب أهمية المصدر ومدى مساهمته في إعداد مادة البحث، وسنذكرها حسب التسلسل ابتداءً باسم المؤلف ومنها:

١- بهاء الدين يوسف بن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)

ولد في الموصل ونشأ بها، واكتسب العلم والمعرفة مما جعله مؤهلاً لتولي مناصب إدارية وتعليمية مهمة، ثم ما لبث أن سافر إلى بغداد وعين في المدرسة النظامية بصفة معيد، وظل يمارس التدريس فيها طيلة أربع سنوات، لكنه ما لبث أن عاد إلى بلدته سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، وأصبح مدرساً في المدرسة الشهرزورية، نبغ ابن شداد وذاع صيته، وأراد أتابك الموصل أن يستفيد من مواهبه فأرسله في سفارة إلى بغداد وكذلك إلى السلطان صلاح الدين، ولما التقى بالأخير سنة ٥٨٣هـ/١١٨٨م أعجب بالسلطان أيما إعجاب، لاسيما بعد أن رأى صدقه وإخلاصه في جهاد الصليبيين، وظل في كنفه وصار واحداً من رجاله المقربين بدءاً من سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

أثمرت هذه المحبة بينهما في إخراج مصنف قيم ترجم فيه ابن شداد حياة السلطان صلاح الدين، سماه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وكان من أبرز ما تميز به ابن شداد موضوعيته في وصف السلطان وتناول الأحداث بعيداً عن العواطف على الرغم من محبته له، وقد حضر المؤلف وفاة السلطان، وأظهر حزنه ومشاعره الفياضة لتلك الفاجعة في كتابه المار الذكر، ومهما يكن من الأمر فإنه تطرق إلى حقبة زمنية حساسة لاسيما تلك التي أعقبت تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م عندما ذاق الصليبيون مرارة الهزيمة، وكان ذلك دافعاً قوياً لهم للدعوة إلى قيام حملة صليبية أخرى لاستعادة بيت المقدس.

ينقسم الكتاب إلى حقبتين زمنيتين تبدأ الأولى منهما سنة ٥٦٥ وتنتهي سنة ٥٨٤هـ/١١٦٩-١١٨٨م فالمعلومات المدونة فيه قد استقاها الرواة، وعلى الرغم من طول المدة الزمنية التي تناولها غير أنها

لا تحتل إلا حيزاً ضيقاً من كتابه، وقد وقع فيه عدد من الهفوات، أما الأحداث التي دونها اعتباراً من ٥٨٤هـ/١١٨٨م وحتى وفاة السلطان في ٥٨٩هـ/١١٩٣م فإنها معلومات لها اهميتها وقيمتها التاريخية التي لا تنكر لأنه شاهد أكثرها بنفسه، وقلما اعتمد في وضعها على الآخرين، ولعل هذا هو السبب في كون الأحداث الأخيرة قد كتبت بشكل مفصل وموضوعي.

وقد ذكر ابن شداد في كتابه المذكور معلومات أمنية مستفيضة ودقيقة، كالحراس الذين كان يعتمد عليهم والاجراءات الأمنية التى أتخذها عند الحاجة. وربما تعود هذه الدقة والاستفاضة في معلومات ابن شداد -وخاصة المعلومات الأمنية- إلى قرب هذه الشخصية من السلطان ومنزلته العالية عنده إذ كان من الشخصيات الموثوقة من رجالات الدولة آنذاك، مما جعل من كتابه هذا وثيقة تاريخية مهمة وصلت إلينا من رجل علم وسياسة.

٢- العماد الأصفهاني: أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م):

ولد في أصفهان في العام ٥١٩هـ/١١٢٥م ويبدو أنه قد خرج من بلدته في مقتبل العمر رجاء الحصول على عمل يليق بمنزلته العلمية، ليبلغ من خلاله منصباً ذا شأن، فقدم لذلك بغداد كونها مركزاً للخلافة وقبلةً للعلم والعلماء، تسلم فيها مهمة إدارية عليا، إلا أنه تركها مغادراً إلى دمشق طمعاً في لقاء سلطانها نور الدين زنكي، الذي شاع ذكره في الآفاق في تلك الفترة وعرف بشدة اهتمامه وعنايته بالعلم والعلماء، وتقريبه منهم، لعله يحظى برعايته والتقرب منه، وفعلاً حدث ما كان يرجوه إذ التقى بالسلطان الذي رفع من شأنه وعمل على تسليمه منصبي الكتابة والوزارة اللذين بقي فيهما ردحاً من الزمن. وبعد وفاة السلطان ٥٦٩هـ/١١٧٣م وتسنم ابنه السلطة ضاق بالعماد المقام بالشام فتركها على مضض عائداً إلى بغداد، إلا أنه ومع وجوده في بغداد فإن دمشق لم تفارق خلده، ولذا كان يراقب الأوضاع ومجريات الأمور عن كثب.. وحال سماعه دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م عاد إليها بشغف بغية اللقاء به، وتمكن بوساطة القاضي الفاضل من رؤية السلطان الذي أعجب بعلمه وقدراته مما دعاه إلى صحبته، فلم يفارقه سفراً ولا حضراً. إلا أن القدر فرق بينهما بموت السلطان صلاح الدين ٥٨٩هـ/١١٩٣م ففقد بموته السند والصديق، فساءت نتيجة ذلك أحواله مما د فعته إلى لزوم دارة منكباً على القراءة والتأليف إلى أن مات سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.

بلغ عماد الدين بحكم قابلياته العلمية وأمانته الكبيرة مكانة سامية لدى السلطان صلاح الدين، إذ وصل إلى مرتبة تفوق مرتبة الوزير، وقد ترك عماد الدين آثاراً عديدة يشهد ما وصل إلينا منها علو كعبه ومنزلته العلمية العالمية بين أقرانه، غير أننا سنقتصر في الحديث على اثنين من مصنفاته التاريخية لتعلقهما الوثيق ببحثنا.

أولاً (البرق الشامي)، والآخر (الفتح القسي في الفتح القدسي)، ويقع الأول منهما في سبع مجلدات لم يصل إلينا منها سوى جزئين هما الثالث والخامس، غير أننا نكاد نجد كثيراً من مادة الأجزاء المفقودة مبثوثة في مصادر المؤرخين الذين عاصروه أو تلوه، وجعلوه مصدراً من مصادر تآليفهم، ومن أبرزهم على سبيل المثال لا الحصر أبو شامة المقدسي في كتابه المشهور (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، والبنداري (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) الذي اختصر الكتاب المذكور الذي يحمل عنوان (سناء البرق الشامي) الذي انتهى من اختصاره سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) كما ذكر في مقدمة كتابه (البرق الشامي).

ومن الجدير بالذكر فإن العماد صاحب السلطان إلى ديار مصر، وقد تضمن مصنفه معلومات مهمة عن الأوضاع السياسية والمعارك التي خاضها السلطان، ويشير إلى معلومات أمنية غاية في الأهمية، كان الهدف منها الحفاظ على أمن البلاد واستقراره وقد أفاد البحث منه في أكثر فصوله.

أما كتابه الثاني (الفتح القسي في الفتح القدسي) ويبدأ بوصف الاستعدادات التي اتخذها المسلمون للبدء بتحرير بيت المقدس والمعارك التي أعقبتها حتى وفاة السلطان سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م. فيها مادة غزيرة عن الأجراءات الأمنية التى اتخذها السلطان أثناء قدومه الى القاهرة والنتائج التى ترتبت عنها.

ويعد المؤلفان السابقان من الوثائق السياسية والعسكرية القيمة لأنهما كتبا من قبل شاهد عيان وذي مقدرة فائقة على توضيح الصورة، بشكل موضوعي، مع ذكر معلومات مفيدة عن البلدان والأمكنة التي رآها. والاجراءات الأمنية التى اتخذها السلطان لنفسه : ضلاً عن الأستحكامات الأمنية التي أقامها في مصر.

ومما يؤخذ عليه أنه استخدم أسلوباً أدبياً من السجع والنثر، يصعب معه على الباحث استنباط المعلومات إلا بعد التحقق والتركيز. وقد غطت المعلومات المستقاة من كتابه لاسيما (البرق الشامي) مساحة كبيرة من البحث، وأغنت جوانب مهمة منه في أغلب الفصول.

٣- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم الحموي: (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)

وهو شامي المولد من حماة، وكتابه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) يقع في خمسة أجزاء، يكاد يكون سجلاً كاملاً للدولة الأيوبية، ويسرد في الجزء الثاني منه أخبار السلطان صلاح الدين منذ توليته ديار مصر إلى حين وفاته، تضمنت مصنفاته أخباراً الامنية مفيدة والحافلة بذكر الأحداث الكبيرة والصغيرة منها ذكر الأشخاص الذين أعتمد عليهم السلطان في حفظ الأمن، وقد ضم كتابه المار عدداً كبيراً من الكتب والوثائق الرسمية كتبت بقلم القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وعلى الرغم من عدم وجود معلومات جديدة في كتبه لكن الذي يجب التنبيه عليه هنا أنه اتبع منهجاً خاصاً يقوم على أسس الموازنة بين النصوص التاريخية، فبعد أن يذكر الروايات المختلفة يقوم باختيار الأصح والأنسب منها مع بيان السبب.

٤- المقريزي: أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ-١٤٤٢م).

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بان مصنفات المقريزي تأخذ مركز الصدارة من حيث الإسهام في إغناء كافة فصول الأطروحة، وعلى الرغم من كونه متأخراً لكنه استطاع جمع عدد هائل من المعلومات الدقيقة والمهمة شكلت الأرضية الداخلية للرسالة، وقد أسهم كتابه (أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا) في الفصل الأول بمادة غزيرة، لأنها مختصة بشكل أساسي على الخلفاء الفاطميين وتناول تفاصيل الأحداث السياسية في زمنهم، ولم تخل ذلك من ذكر معلومات أمنية عنهم.

أما كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف (بالخطط) فهو موسوعة غنية بالمعلومات المهمة والدقيقة عن ديار مصر، وقد أفاد الرسالة بشكل ملحوظ وواسع، في كافة فصولها ويمتاز الكتاب بالشمولية مع التركيز على جذور المواد وأولويتها، على الرغم من كونه متأخراً، مما أتاح له الاطلاع على الكتب والمصادر السابقة له، وهو لا يغفل ذلك ويشير إليه في أغلب الأحيان، وقد أشار إلى رسائل القاضي الفاضل بالمتجددات في خططه، ولكن الذي يؤخذ عليه هو إغفاله الإشارة إلى سنوات الأحداث مما يشكل صعوبة على القارئ في معرفة تواريخ هذه الأحداث بدقة.

ومؤلفه الآخر هو (السلوك في معرفة الدول والملوك) الذي يبدو أنه وضعه على غرار الأتعاظ وكتكملة له، ويتناول فيه تاريخ العصر الأيوبي والمملوكي بإسهاب كبير، وقلما يتجاوز أحداثاً مهما

كانت صغيرة دون أن يتناولها، وكأنه قد قام بمسح ديار مصر مسحاً شاملاً وكاملاً، والباحث يستطيع استقاء معلومات الأمنية من التقسمات والأجراءات عهد حكمهم لبيان الهدف الامني منه، وتبدو على كتاباته الموضوعية والحياد، وهذا ما أكسب الكتاب أهمية وقيمة تاريخية كبيرة.

أما في كتيبه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) وعلى الرغم من صغر حجمه إلا أنه يحتوي على معلومات اقتصادية مهمة، حيث سلط الضوء على الأحداث التي ألمت بالديار إثر مجموعة من الكوارث الطبيعية والبشرية، أحدثت كوارث فظيعة هزت كيان الدولة، وسببت لها قلقاً واهتزازاً أمنياً خطيراً، وقد أفادت البحث لاسيما في مادة الأمن الاقتصادي.

أما آخر مؤلفاته التي اعتمدت عليها فهو (البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) والذي يتناول فيه القبائل العربية المنتشرة في ديار مصر، وقد أفاد في إظهار دور هذه القبائل وتأثيرها على الأوضاع الأمنية سلباً وإيجاباً.

وقد قدم المقريزي في مؤلفاته المذكورة أخباراً ومعلومات لم يقدمها أي مؤرخ آخر قبله -على حد علمي-، ولم ألمس من خلال التعامل مع كل هذه المؤلفات ما ينم عن تعصبه لهذا الطرف أو ذاك بل اتسمت جميعاً بموضوعية أكسبته المزيد من الأهمية.

٥- ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

يعد كتابه (الكامل في التاريخ) من المصادر التاريخية المهمة، لشموليته واتباع نظام الحوليات فضلاً عن الدقة والوضوح في تدوين الأحداث، وقد تضمن كتابه هذا معلومات عديدة ومتنوعة عن الدولة الأيوبية، وتكمن أهميته بشكل أساسي أنه عاصر الأحداث وكان شاهداً عليها، وتسنى له أن يستقي المعلومات من مصادرها المباشرة، نظراً لقربه من مصادر لها علاقة بصنع الأحداث، وعلى الرغم من تحامله على الأيوبيين -وهو ما يظهر جلياً في كتاباته-، إذ تحامل كثيراً على صلاح الدين، بسبب مهاجمة السلطان مدينة الموصل عدة مرات، وكان ابن الأثير من المدافعين عنها إلى أن تسنى له فتحها سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م. ففقد ابن الأثير ذلك الماضي المجيد الذي كان يحن إليه وهو وإن انهزم اتابكة الموصل، فإنه قرر محاربة الأيوبيين بعلمه، وحمّل السلطان شخصياً مسؤولية بعض النكبات التي ألمت بالأيوبيين، لاسيما التنافر الذي حصل بين نور الدين وصلاح الدين، وقد أورد بعض الأحداث التي تعد خصوصية وسرية أشار إليها ابن الأثير ولم يلتفت إليها غيره من المؤرخين بسبب تحامله على صلاح

الدين، ومما يزيد في شكنا في هذه المعلومات إنه لا يشير إلى مصادرها، وعلى الرغم من كل ذلك فإن كتابه (الكامل) يعد مصدراً تاريخياً مهماً نظراً لقربه من كبار رجالات الدولة الأتابكية وقد تسنى له أن يحصل على ما يريد من المعلومات منهم.

أما كتابه الثاني المعروف بـ(الباهر في الدولة الأتابكية) فلا يختلف عن الكامل كثيراً لاسيما فيما يتعلق بالأيوبيين، حتى أنه تغافل عن ذكر تفاصيل الصراع الأتابكي الأيوبي لعدم مطابقته مع ميوله الشخصية.

٦- القاضي الفاضل: عبد الرحيم البيساني العسقلاني (ت ٥٩٦هـ/١٢٠٠م)

نشأ في بيئة ثقافية إذ كان والده قاضياً على بيسان، ويبدو أن والده قد أرسله إلى ديار مصر لتحصيل العلم، فترعرع هناك وذاع صيته، وأسند إليه الفاطميون بعض الوظائف المهمة، ولما تولى السلطان صلاح الدين منصب الوزارة الفاطمية، توثقت العلاقة بينهما وقربه إليه، وولاه كتابة الانشاء، وأصبح القاضي لا يفارق السلطان، ويشاركه في جميع مهماته، وصار من كبار مستشاريه، ورسائله عبارة عن الأوامر الصادرة من الدولة الأيوبية، وقد أشار المؤرخون إليها بعبارة المتجددات أو المجريات، وأصبحت مصدراً مهماً للكثير من المؤرخين في كتاباتهم وهي متناثرة في المصادر التاريخية، مثل (البرق الشامي) للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) وكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) والمقريزي في (الخطط) وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) وغيرهم، ولولا نقولات الذين أعقبوا القاضي الفاضل لضاعت جهوده هباءً عدا بعض المقتطفات، وتتضمن تلك الرسائل بين طياتها معلومات أمنية أفادت الرسالة في أكثر فصولها، والاجراءات الامنية التى أتخذت في دولتهم قد دونها القاضي بشكل أوامر وعممها على الأقاليم الكافة.

٧- ابن أبي طي: يحيى بن حامد الحلبي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)

وهو حلبي المولد، عاصر صلاح الدين، وألف عدداً من الكتب، منها (كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين)، ولولا الذين نقلوا عنه أمثال أبو شامة وغيره لضاعت المعلومات التى دونها في كتبه، فقد وقعت قطيعة بين والده وبين نور الدين فنفاه نور الدين على أثرها لكونه من نشطاء الشيعة، وقد

سار صلاح الدين على خطى سيده، لكننا لا نملك ما يشير إلى تدهور العلاقة بينه وبين ابن أبي طي، وهو ما يدل على سعة أفق السلطان ورحابة صدره وقدرته على التعامل بذكاء مع كافة الأطراف. وتمتاز كتاباته عن السلطان وأسرته بنزاهتها وموضوعيتها وأسلوبها السلس، وقد اتبع فيها طريقة الحوليات.

٨- أبو شامة: عبد الرحمن اسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)

وهو مقدسي الأصل دمشقي الدار والوفاة، ولد في فترة كانت الدولة الأيوبية تمر فيها بمرحلة الضعف والانقسام، وقد صنف كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) وكذلك (الذيل على الروضتين) المعروف بـ(تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين) و(عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) وهو لا يختلف عن الأول.

لقد تسنى له زيارة ديار مصر، وعند عودته منها توفي في دمشق، وكان قد شاهد الديار، لذا تعد كتاباته عنها شاهد عيان، ومما يلاحظ إن كتاباته تغلب عليها صفة الأمانة، إذ لم يغفل عن ذكر المصادر والأشخاص الذين استقى منهم المعلومات، وكانت رسائل القاضي الفاضل ونقولات ابن أبي طي، ونقولات العماد الأصفهاني في كل من (البرق الشامي) و(الفتح القسي) تشكل أهم مصادره فضلاً عن الزيادات والإضافات، مما حفظ لنا الكثير من المعلومات التي ضاعت من مصادرها الأصلية ووصلت إلينا عن طرق نقولاته. وقد أفادت هذه المؤلفات الرسالة فائدة عظيمة لدقة الأخبار التي نقلتها فضلاً عن أمانتها، وقد أفدنا من تلك المعلوملت الغزيرة عن الشخصيات الأيوبية ومدى مساهمتهم في استتباب الأمن والسلام في مصر.

٩- العمري: القاضي فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

يعد كتاباه (التعريف بالمصطلح الشريف) و(مسالك الأبصار) من الكتب القيمة، إذ يتناول الأول توضيح مصطلحات إدارية سياسية لها صلة وثيقة بأمن الدولة ومؤسساتها، أما كتابه الآخر (مسالك الأبصار) والذي لا يزال مخطوطاً، فهو موجود في مكتبة المجمع العلمي العراقي في بغداد بنسخة مصورة، و يتناول في جزئه السابع والعشرين الدولة الأيوبية، وبطبيعة الحال فقد اعتمد المؤلف على المؤرخين والكتاب الذين سبقوه، وقد تعامل مع الحقائق التاريخية بأمانة كبيرة ودقة مما أفاد الرسالة كثيراً.

١٠- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

ويعد مصنفه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) من المصنفات التاريخية المهمة التي تلقي الضوء على الأنظمة والدساتير السائدة في العديد من الدول، وقد شغلت ديار مصر مكانة بارزة في كتاباته وتوضيح الرموز والمصطلحات الدارجة في العصور التي سبقت المؤلف. إذ تمت الاستفادة من هذه المعلومات التي اعتمدت عليها الدولة الأيوبية في بيان الجانب الأمني مما أغنى الرسالة في كل فصولها، ويمتاز القلقشندي بالدقة والأمانة والموضوعية في كتاباته.

١١- الدواداري: أبو بكر عبد الله بن ايبك (ت ٧٣٥هـ/١٣٣٣م)

أطلق على كل جزء من أجزاء كتابه المعروف بـ(كنز الدرر) إسماً خاصاً يتناسب مع الحقبة التي يتناولها إذ أن التسمية مأخوذة من تاريخ الحقبة، فالجزء الأيوبي –وهو السابع- عرف بـ(الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب) اقتضب في ذكر المعلومات، إلا أنه يذكر في الوقت نفسه أخباراً نادرة، لا يكاد يذكرها غيره، مما زاد من أهمية مصنفاته، ويغلب على ذكر الأحداث عدم الدقة في توقيتها، وقد انفرد عن الكتاب الآخرين بذكره النيل قبل جميع الأحداث، وقد منح بذلك النيل حقه من الدراسة.

١٢- وليم الصوري: (٥٨٠هـ/١١٨٤م)

كان يشغل منصب رئيس أساقفة صور، وقد عاصر الأحداث العنيفة التي جرت في بلاد الشام وفلسطين، واتجه في كتابة تاريخ تلك الأحداث بناءً على طلب من عموري ملك بيت المقدس، وكان يأمل من وراء ذلك تدوين أحداث ديار مصر، تصوراً منه بأن النصر حليفه، وترجم مؤلفه (الأعمال التي تم إنجازها فيما وراء البحر) الذي يعرف بـ(الحروب الصليبية) إلى اللغة العربية، وتضمن كتابه تاريخ الشرق الإسلامي والمسيحي الذي شهد أهوالاً على يد مهاجرين أوربيين تسربلوا إلى الشرق بمسوح الدين والنصرانية، في الوقت الذي لم يراعوا فيه حتى حقوق المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس أنفسهم.

ويعد كتابه من المصادر التاريخية المهمة لاعتبارات منها: تمكنه من الحصول على أدوات البحث التاريخي من وثائق وقرارات عن المملكة الصليبية، وكذلك المعلومات التي حصل عليها من شهود

عيان شاركوا فعلاً في الأحداث الجارية، وتمتاز تلك المعلومات بخصوصية نادرة لم نجدها في المصادر الإسلامية، وهو ما يعكس وجهة نظر مغايرة، ولا ننسى أنه قد ساهم شخصياً في صنع هذه القرارات، والملاحظ على كتاباته نبرة الموضوعية إذ أنه لم يأل جهداً في توجيه الانتقادات حتى إلى الملك نفسه الذي حمله مسؤولية ضياع ديار مصر من أيديهم، فضلاً عن انتقاده للكثير من القادة والأمراء المسيحيين في الشرق والغرب على حد سواء.

١٣- ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

وعلى الرغم من أنه لم يأت بجديد، لكنه استطاع أن يحفظ لنا عدداً من المصادر التي اعتمد عليها، وأنقذها من الضياع، كالرسائل التي حررها القاضي الفاضل ونقولات العماد الأصفهاني، ويذكر المصادر التي استمدها منهم في تاريخه وقد أغنى كتابه (النجوم الزاهرة) الرسالة، بمعلومات دقيقة تخص الأمن فضلاً عن الأستحكامات والوسائل الأمنية التى أقامها الأيوبيون في مصر.

١٤- ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)

على الرغم من أن المؤلف لم يعاصر الدولة الأيوبية في ديار مصر، إلا أن كتابه (ذيل تاريخ دمشق) يعد مصدراً مهماً للدولة الزنكية والفاطمية لذا فقد اقتصرت فائدته على الفصل الأول من الرسالة حصراً حيث تناول بدايات نشوء الأسرة الأيوبية، وكيفية استعدادها لمواجهة الأحداث المقبلة.

١٥- أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)

وهو من أسرة عربية حكمت مدينة (شيزر) وكان موجوداً في القاهرة في فترة عصيبة من تاريخها تمثلت بالصراع الدامي بين وزرائها، وقد أشار في كتابه (الاعتبار) إلى العلاقة التي كانت موجودة بين أسرته والإمارات الصليبية آنذاك، وقد عاصر نور الدين في دمشق أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أنه أشاد بصلاح الدين في كتاباته، وقد استقت الرسالة معلومات عن هذه الحقبة من كتابه هذا.

١٦- ابن مماتي: أبو المكارم الأسعد بن الخطير المهذب بن مينا (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)

كان من كبار الإداريين زمن صلاح الدين وابنه العزيز، حيث كان يشغل منصب ناظر ديوان الجيش، ألف كتاباً بعنوان (قوانين الدواوين)، أورد فيه جميع المؤسسات والتنظيمات التي كانت سائدة في دولتهم، وقد تسنى له بحكم موقعه في إدارة الدولة أن يذكر وثائق مهمة عن تنظيمات الأيوبيين، وذكر تلك السلع التي تعد استراتيجية ومن حق الدولة استملاك مصادرها، وأغنت المعلومات الواردة في كتابه الرسالة سيما ما يتعلق منها بالأمن الاقتصادي.

١٧- الذهبي: شمس الدين محمد بن عثمان قايماز (ت ٧٤٨هـ/١٤٠٦م)

صنف الذهبي العديد من الكتب وفي مجالات شتى ، وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على عدد منها وهي (العبر في خبر من غبر) و(تاريخ الإسلام) و(دول الإسلام). وإن كان ما جاء به الذهبي ليس جديداً عما ذكر قبله، لكن ذلك لا يعني خلو كتبه من الفائدة، وقد وجدت بين طياتها لاسيما التراجم منها معلومات أفادت الجانب الأمني في أكثر فصول الرسالة.

١٨- أبو الفدا: عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

على الرغم من أن كتابه (المختصر في أخبار البشر) ليس إلا مختصراً لكتاب الكامل لابن الأثير ثم مكملاً لها بعد وفاته، إلا أنه لا يخلو من بعض الزيادات التي أفادت الرسالة، تناول المؤلف اخباراً أمنية تمكنا من الأستفاده منها.

١٩- ابن الفرات: (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)

تاريخه عبارة عن سرد للأحداث السياسية والعسكرية التي وجدنا فيها معلومات أفادت الجانب الأمني من الرسالة، وكانت لها مكانة كبيرة في صفحاتها إذ لا يخلو فصل من فصولها من إشارات إلى ابن الفرات.

٢٠- خسرو، ناصر، ت (٤٨١هـ/١٠٨٨م)

في الواقع لا تخلو كتب الجغرافيين والرحالة من فوائد كثيرة أغنت مادة الرسالة وتعد رحلة ناصر خسرو المعروفة بـ(سفرنامه) سجلاً حافلاً بالمعلومات القيمة، إذ كانت للمعلومات التي ذكرها أهمية

خاصة في الوقت الذي كان فيه ناصر عالماً واسع الاطلاع وشاهد بلداناً وشعوباً عديدة، وعلى الرغم من المخاطر والصعاب التي تعرض لها، إلا أنه لم يأبه بها بحثاً عن الحقيقة، والذي يعنينا من رحلاته هذه هو وجوده في ديار مصر سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، بعد أن انتهى به المطاف هناك، فلبث فيها ما يقرب ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بلاده (بلخ)، وقد دون مشاهداته فيها يوماً بيوم بدقة بالغة، ولهذا فإن ما دونه عن القاهرة والاسكندرية وتنيس، وغيرها من المدن، يعد معلومات قيمة تحوي بين سطورها الكثير من القضايا التي أفادت الجانب الأمني في العصر الفاطمي، وقد تسنى له أن يلم بأشياء كثيرة عن دولتهم بعد أن أصبح واحداً من كبار رجالاتها، وقد أشار إلى إشاعة الأمن والاستقرار في زمن وجوده. وقد استفادت الرسالة في فصلها الأول من هذه الرحلة.

٢١- ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)

كان ابن جبير من الرحالة الأندلسيين المشهورين، بدأ رحلته في ٥٧٩هـ لغاية ٥٨٢هـ ودون مشاهداته بدقة بالغة، وفي فترة وجوده في ديار مصر أشاد بالأمن والاستقرار فيها، وكان شديد الإعجاب بصلاح الدين، نظراً لعلو همته وصدق نيته والأفعال التي أنجزها خدمة للصالح العام وفي سبيل استقرار الأمن والسلام، وقد بين خلال رحلته أموراً في غاية الأهمية، استفادت منها الرسالة في تصور الواقع الذي كان سائداً أيام ابن جبير، إذ لم ينس أن يدون كل ما رآه بكل حرية وما كان يعاني منه الناس، لاسيما الغرباء منهم، وما قدمته الدولة الأيوبية إلى كافة فئات الأهالي من الدعم من أجل استقرار الأمن في البلاد، وقد أشاد ابن جبير بشكل خاص بما قام به صلاح الدين لضمان أمن الحجاج وكيف أنه عالج موضوعاً معقداً كان يحول بين أدائهم لفريضة الحج، وكيف تمكن صلاح الدين من التغلب على هذه المعضلة.

٢٢- البغدادي: عبد اللطيف بن يوسف بن محمد (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)

يبدو أن الجيش الأيوبي كان يضم مختلف الفئات الاجتماعية، إذ كان البغدادي واحداً من الذين انخرطوا في صفوفه، وشاهد ديار مصر، ودون مذكراته في كتاب له عرف بـ(الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) وقد سجل فيه كل ما رآه من المدن والأقاليم، وضمن بين دفتيه معلومات قيمة، وقد أشار إلى مدوناته الكثير من المؤرخين الذين أعقبوه منهم المقريزي، وقد ضمن بين تلك المذكرات معلومات أمنية مهمة أغنت فصول الرسالة.

٢٣- القزويني: زكريا بن محمد بن محمد (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)

تناول في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) بعض المدن المصرية، وما فيها من المعالم الجغرافية والثروات الاقتصادية، وقد تمت الاستفادة منه في ربط هذه الثروات والمعال مثل بعض الثروات الطبيعية والمنتوجات التى استخدمت لصالح الامن العام في ديار مصر.

٢٤- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

ألف ياقوت الحموي اثنين من الكتب المهمة أولهما (معجم البلدان) الذي يشير فيه إلى مواقع معظم المدن والأقاليم في المملكة الإسلامية، ويعد مصنفاً فريداً من نوعه، من حيث الدقة والأمانة، وفضلاً عن شرح كل ذلك فإنه لا يبخل أن يذكر معلومات أخرى عن تلك المدن والأقاليم التي تفيد المؤرخين والكتاب. وقد أفاد هذا الكتاب الرسالة في تعيين بعض المواقع والاستحكامات الأمنية في ديار مصر. أما كتابه الثاني (معجم الأدباء) فإنه يترجم حياة العديد من الشخصيات في مختلف الاختصاصات، وقد أفاد البحث أيضاً في بعض فصوله من خلال ترجمته لبعض الشخصيات كصلاح الدين وغيره من أفراد الأسرة الايوبية سواءً من القاده أو العلماء أو غيرهم الذين كانت لهم دور في استتباب الأمن.

٢٥- ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

وهو مؤلف كتاب (الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها) وقد توزعت فائدته على فصول الرسالة كافة، لا سيما في كيفية توزيع الاعمال والولايات وطرق الأتصالات الرسمية والبريدية مما يعكس في ذلك التنظيم الغايات والأهداف الأمنية منها.

٢٦- السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)

وأفادنا كتابه (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) فائدة جمة، حيث يتناول الكتاب وكما يبدو من عنوانه نفس المناطق التي تناولتها الرسالة، شدة العلاقةبين الموضوع والمعلومات التى دونها ولم يبخل بذكر معلومات امنية مفيدة.

أرى لزاماً علينا أن نشير إلى مجموعة أخرى من المصادر التي اعتمد عليها البحث بصورة أقل مما ذكر، منها: عمارة اليمني (ت ٥٦٧هـ/١١٧١م) في كتابيه النكت العصرية وتاريخ اليمن، وكان واحداً من كبار رجالات الدولة الفاطمية، وتمكن بذكائه وكفاءته أن يجلب انتباه خلفائهم وتقرب إليهم، ونال الحظوة والمكانة العالية في دولتهم، وتمتع بحياة رغيدة وناعمة وهو من أقطاب المعارضة الأيوبية وشارك في أخطر مؤامرة للإطاحة بالسلطة الأيوبية، لكن حلمه هذا لم يتحقق فقتل.

ولمؤلف مجهول في القرن السادس الهجري، دور كبير في إغناء الرسالة عن طريق الاعتماد على كتابه (الاستبصار في عجائب الأمصار مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)، وللملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (٦١٧هـ/١٢٢٠م) مصنف (مضمار الحقائق وسر الخلائق) الذي يعد من الوثائق التاريخية للدولة الأيوبية، والذي أفادت الرسالة منه كثيراً، والآخر هو الحموي: أبو الفضائل محمد بن علي (ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م) الذي أفاد البحث بكتابه (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، وابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن احمد (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) في كتابه (زبدة الحلب). والغساني: الملك الأشرف اسماعيل بن العباس (٨٠٣هـ/١٤٠٠) وكتابه (العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك)، وابن العبري: أبو الفرج ابن أهرون غريغوري الملطي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) وكتابيه مختصر الدول وتاريخ الزمان وكذلك مؤلف رهاوي مجهول وكتابه الذي يحمل عنوان (تاريخ الرهاوي)، وكذلك ابن ميسر: محمد بن علي بن يوسف بن جلب (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) وكتابه تاريخ مصر، والمسبحي: محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) وكتابه (أخبار مصر)، الذي تمت الاستفادة منه بشكل كبير في الفصل الأول من الرسالة. ولابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٣م) مساهمة في إغناء البحث عن طريق كتابه (وفيات الأعيان) الذي هو عبارة عن تراجم للكثير من مشاهير الأيوبيين.

وتقتضي الأمانة العلمية ذكر مجموعة أخرى من المراجع التي أغنت البحث لما وجدناه فيها من المعلومات القيمة، منها تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم حسن، وكتاب (النظم الإسلامية)، لحسن وعلي إبراهيم حسن، فالأول أفاد الرسالة في فصلها الأول أما الثاني فكانت فائدته شاملة، هذا فضلاً عن مجموعة أخرى من الكتب التي ترجمت لصلاح الدين منها: عبد العزيز سيد الأهل، وهاملتون جب، أحمد بيلي، سعيد عبد الفتاح عاشور، البيومي صاحب كتاب (قيام الدولة الأيوبية) ودريد عبد القادر نوري، في كتابه سياسة صلاح الدين، ونيوباى في كتابه (صلاح الدين وعصره) وقد أغنت هذه المراجع فصول

البحث بمادة عملية غزيرة، وفي الفصل الثاني الذي تحدثنا فيه عن القلعة والاستحكامات الأمنيـة اسـتفدنا كثيراً من كتاب كريزويل (وصف قلعة الجبل)، وبول كازانوفا، (تاريخ ووصف قلعة القاهرة) إذ أنهما سلطا الضوء على وحدة مكانية صغيرة، مما اضطر المؤلفان إلى محاولة البحث عـن تفاصيـل الأحـداث والجزئيـات في تلك القلاع والاستحكامات الأمنية فيها التي تداخلت معها في ديار مصر.

كذلك كان لكتاب الاستخبارات الأيوبية في عهد صلاح الدين لمؤلفه نقبـتز مجيـد أمـين فائـدة كـبيرة، حيث أن التبويب والتنظيم وكيفية سرد الأحداث أفادنا في البحث عن عقـد مماثلـة قريبـة معـه، والكتـاب الآخر (الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين) لمؤلفه محسن محمد حسين الذي أغنى البحث في بعض فصوله.

وكذلك الباز العريني في (الشرق الأدنى في العصور الوسطى) و(مصر في عـصر الأيـوبيين) ولجمـال الدين الشيال في كتابه (تاريخ مصر الإسلامية) ج٢، العصران الأيوبي والمملوكي فائدة كبيرة.

ولجمال الدين سرور في كتابيه (الدولة الفاطمية في مصر وسياستها الداخليـة ومظـاهر الحـضارة في عهدها) و(مصر في عهد الدولة الفاطمية) حيث كانت فائدة الأول منهما شمولية أما الثاني فقـد أغنـى البحث في فصله الأول.

هذا فضلاً عن مجموعة أخرى كبيرة من المراجع والمصادر التي قامت عليها مـادة البحـث، والـتي لا يسعنا هنا ذكرها جميعاً، وقد أسهبنا وصفها في ثبتنا للمصادر والمراجع.

الفصل الأول

الأوضاع الأمنية في مصر قبيل قيام الدولة الأيوبية

اولاً: تعريف الأمن لغةُ واصطلاحاً

ثانياً: الاستحكامات الأمنية الفاطمية في مصر:

ثالثاً: أسباب تدهور الأوضاع الأمنية في مصر

رابعاً: كيفية التصدي للأخطار الأمنية

خامساً: الأنشطة الأمنية الفاطمية

اولاً : تعريف الأمن لغةً واصطلاحاً :

الأمن في اللغة الاطمئنان، وهو ضد الخوف[1]، وَأَمِنَ يأمَنُ كَفَرِحَ يفرَحُ والمصدر منها: أمْناً وأَمَنَةً، وأماناً وأمناً وآمِناً (بالفتح والكسر)[2]. وأمن شره فهو أمين وآمن، وفلان لديه أمانة فهو مؤتمن[3]، والأمانة ضد الخيانة، والإيمان ضد الكفر، يقال: (آمن به قوم وكفر به قوم)[4]، والأمن يعني السلام الدائم كقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}.[5]

أما اصطلاحاً: فاستعمالات هذه اللفظة في اللغة متشعبة وكثيرة، وحسبنا الإشارة إلى الألفاظ الكثيرة في القرآن الكريم التي اشتقت من الجذر (أمنْ) فالأمن هو طمأنينة النفس، وزوال الخوف، وأصل المفردات (الأمن والأمانة والأمان) مصادر تستعمل في اللغة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن[6]، نحو قوله تعالى: {وَتَخُونُوا أماناتِكُم} [7] أي: ما أؤتمنتم عليه، وقوله تعالى:

---

(١) الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (بيروت، ١٩٩٠) ج٥، ص٢٠٧ " ابن منظور: لسان العرب، (بيروت د. ت) ج١، ص١٠٧" محمد، د. صباح محمود: الأمن الإسلامي ودراسات في التحديات الجيوبوليتيكية، (بيروت، ١٩٩٤) ص٥.

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة،(القاهرة ٢٠٠١) ص٧١ " الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، بيروت (د. ت)، ج١، ص٢٧. الرازي: مختار الصحاح، (الكويت ١٩٨٣) ص٢٦.

(٣) الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٥، ص٢٠٧٢" الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، (طرابلس ١٩٨٠) مج١، ج١، ص ص١٨١-١٨٢.

(٤) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، دار الجيل، (بيروت، د. ت)، ج٤، ص٢٠٠.

(5) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

(٦) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، (بيروت، ١٩٩٦) ص٩٠.

(٧) سورة الأنفال، الآية ٢٧.

{وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً} [1] أي آمناً من النار، وقيل من بلايا الدنيا التي تصيب من قال فيهم {إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيَعذِبَهُمْ بِها فِي الحَياةِ الدُنيا} [2] وقيل يأمن الإبادة، وقيل أمن من حكم الله)[3].

وفي حديث نزول السيد المسيح (على نبينا) (وتقع الأمنة في الأرض)[4]، أي الأمن -يريد ان الأرض تمتلئ بالأمن- فلا يخاف أحد من الناس والحيوان[5]، أو عدم توقع مكروه خلال الحياة العادية[6]. وروي عنه ع: (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، -وأراد بوعد أصحابه ما وقع بينهم من الفتن-[7]، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى الأمة ما توعد، -أراد بوعد الأمة الإشارة في الجملة إلى مجيء الشر عند ذهاب أهل الخير)[8].

نستنتج مما سبق بأن تعريف الأمن اصطلاحاً هو تهيئة الظروف والأجواء المناسبة لكي يعيش الإنسان آمناً مطمئناً على حياته وممتلكاته، وهي أمنية يتطلع إليها كل فرد اضطربت نفسه وتشتت افكاره[9]، وتقع مسؤولية استتباب الأمن والاستقرار على عاتق الحكومات والسلطات الحاكمة، وتكون العلاقة طردية بين قوة الدولة وأمنها.

ثانياً: الاستحكامات الأمنية الفاطمية في مصر

أدرك الفاطميون صعوبة الأوضاع في بلاد المغرب، فلم يأمنوا البقاء في تلك الوهاد الوعرة، إذ لم تكن متفقة مع تطلعاتهم المستقبلية، لذا توجهت أنظارهم نحو ديار مصر التي اشتهرت بمواردها

---

(٨) سورة آل عمران، الآية ٩٧.

(٩) سورة التوبة، الآية ٥٥.

(١٠) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص٩١.

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص١٠٧.

(٥) ابن منظور: م. ن، ج١، ص١٠٨.

(٦) الجرجاني: كتاب التعريفات،(بيروت، ١٩٩٦) ص٥٥.

(٧) الرمادي: الأمن والسلام في الإسلام، (القاهرة، ١٩٦٣) ص٧.

(٨) مسلم: صحيح مسلم: (القاهرة، د. ت)، ج٤، ص٢٠٧، باب فضائل الصحابة " ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص١٧.

(٩) ابن منظور: م. ن، ج١، ص١٠٨.

الاقتصادية الوفيرة[1] مما أعطاهم الزخم الأكبر والقوة الأكثر كي يضطلعوا بدور فعال في السياسة الإقليمية آنذاك فقد طمعوا فيها منذ وقت مبكر[2]، ولعل العامل الأمني كان هو الدافع الأساسي لهذا التحول الكبير في سياستهم.

يعد قيام الدولة الفاطمية في مصر فاتحة عهد جديد في تاريخ الإسلام، إذ صارت القاهرة حصناً حربياً للحاكم الجديد، وبقيت حصناً ملكياً حتى فتحها في العصر الأيوبي وأصبحت سكناً للعامة[3]، ويمكن اجمال تلك الاستحكامات بالشكل الآتي:

١- الاستحكامات العامة:

نظراً لكون القاهرة تمثل مركز حكمهم فقد استوجب ذلك عليهم إنشاء استحكامات أمنية لدرء الأخطار المحدقة بها لذلك أحاط الفاطميون مدينتهم بسور وخندق من جهة الشام خوفاً من دخول القرامطة إليها[4]، وكان السور مبنياً باللبن، ثم صارت القاهرة منذ إنشائها بثمانية أبواب، اثنان من الناحية البحرية هما: النصر والفتوح، واثنان من الجهة القبلية، هما: بابا زويلة، واثنان من الناحية الشرقية هما: المحروق والبرقية، واثنان في الغرب التي تشرف على الخليج الكبير، هما: بابا سعادة والفرج[5].

أثبتت القاهرة حصانتها بعد أن تمكن الفاطميون من التصدي للهجوم القرمطي في سنة ٣٦١هـ-٩٧١م لم يمض على إنشاء القاهرة وقت طويل حتى أصبحت حاضرةً للخلافة، ضمت قصور الخلفاء ودواوين الدولة وخزائن المال والسلاح ومساكن الأمراء والحاشية، ثم بعد نحو جيل واحد نمت واتسعت واتسمت

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،(بيروت، ١٩٨٦) ج١، ص٣٦٤.

(٢) القاضي نعمان: كتاب افتتاح الدعوة، (تونس، ١٩٧٥) ص٣٢٦ " القرطبي: صلة تاريخ الطبري، (القاهرة، ١٩٨٢) ص ص٥١-٥٢" ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، (حلب، ١٩٩٧) ص٢٥٧" السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، (القاهرة د. ت) ج ٢، ص ص ٢١٠-٢١١" سرور، محمد جمال الدين: مصر في عصر الدولة الفاطمية، (القاهرة، د. ت)، ص٢٨.

(٣) الشامي، عبد العال عبد المنعم: مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، (الكويت، ١٩٨١) ص٥٥.

(٤) المقريزي: أتعاظ، (القاهرة، ١٩٦٧) ج١، ص١٢٩" زكي، عبد الرحمن: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، (القاهرة، ١٩٦٦)ص١٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، (بيروت، ١٩٨٧) ج ٣، ص ص٣٩٧-٣٩٨. المقريزي: الخطط، (القاهرة، د.ت) ج١، ص٣٦٢. عنان: مصر الإسلامية، (القاهرة، ١٩٦٩)، ص٢١.

بالحيوية والنشاط وامتدت إلى أن اتحدت مع مدينة الفسطاط وأصبحتا مدينة واحدة وصارت أحدى أعظم مدن الإسلام في العصور الوسطى[1]، وكان "لصاحب القاهرة الرتبة الجليلة والمكانة العالية والحرمة الوافرة، وكان له مكان في الموكب يسير فيه"[2].

٢- الاستحكامات الخاصة:

لم ينس الفاطميون في بناء قصورهم مراعاة جانب القوة والمتانة والأمان فيها، فضلاً عن الحرس الذي كان يقيم في الساحة الواقعة بين القصرين-الشمالي والغربي- وكان الرحالة ناصر خسرو سنة ٤٣٨هـ-١٠٤٦م قد رأى القصر الفاطمي الكبير، وقال واصفاً إياه: "إنه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل لضخامة مبانيه، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة، إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع"[3]، وكان قصر الخليفة الذي يقع في وسط القاهرة يحتوي على عشر حارات، وكان حراسه ألفاً: خمسمائة فارس، وخمسمائة راجل، وبعد صلاة العشاء تضرب الطبول والأبواق وتعزف الصنوج ويكوّن الحرس من أنفسهم دائرة ويظلوا كذلك حتى مطلع الشمس[4]، وقد ذكر وليم الصوري الاستحكامات الأمنية في قصور الفاطميين بما يذهل العقل[5] إذ كان للفاطميين سراديب تحت الأرض من باب القصر إلى خط الخرنشف[6] الذي كان ميداناً لهم يمرون فيه راكبين[7]، وقد بنى جوهر باب القنطرة خوفاً من القرامطة لكي يمر عليه إلى المقس[8]

---

(١) القلقشندي: م،ن، ج٣، ص٤٢٠. عنان: مصر الإسلامية، ص٢٥.

(٢) القلقشندي: م. ن، ج٣.

(٣) خسرو، ناصر: سفرنامه، (بيروت، ١٩٧٠)ص٨٩.

(٤) ناصر: م. ن، ص٨٩. حسن: الدولة الفاطمية، ص٥٣١.

(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، (القاهرة، ١٩٩٥) ج٤، ص ص٤٨-٤٩.

(6) ميدان بجوار القصر الغربي والبستان الكافوري وسمي بذلك نسبة على ما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيرها. (المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٧).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠١. متز، آدم: الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، (لقاهرة، ت) ج٢، ص٢١٦.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٨.

ومن الاحتياطات الأمنية الأخرى التي طبقها الفاطميون هي منع مرور الناس بشكل ملاصق للقصور لاسيما من باب الزهومة إلى باب الزمرد إلا من كانت له رخصة بذلك[1]، ولأجل الحفاظ على الصفة الحكومية للمدينة فقد منع الناس من الحصول على عقار أو منزل فيها وجميع أملاكها هي ملك الخليفة[2]، وكان الفاطميون يسدون الدروب الخاصة والمهمة القريبة من الأماكن الحساسة بالسلاسل لئلا يمر تحتها الناس وهم راكبون، لاسيما تلك الدروب التي تقع تحت مناظرهم[3]، والتي يمنع الدخول إليها إلا بإذن خاص، حتى مفوضو الأجانب فقد كان عليهم أن يترجلوا عن جيادهم ويسيروا وحولهم صفين من الجنود لحين وصولهم إلى القصر[4]، وكان الخليفة في خارج القصر من يحتاط على أمنه، ففي وقت ركوبه إلى مكان ما، لاسيما تلك الأماكن التي يعتادها كثيراً، يقوم جهازه الأمني بأخذ احتياطات وإجراءات شديدة، إذ تُغلق تلك الطرق والشوارع وقت الركوب، ويمنع الناس من الخروج في الطريق الذي يسلكه والمكان الذي يقتاده[5]، على الرغم من التأكيد الدقيق على الضوابط الأمنية في القاهرة فإن بعض الخلل كان يقع أحياناً وتترتب عليه كوارث مفجعة، كالتي حدثت في سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م[6].

ثالثاً: أسباب تدهور الأوضاع الأمنية في مصر

١- الصراعات الداخلية:

وقد تسببت الصراعات الداخلية في ضعف دولتهم وذهاب هيبتها، إذ أن الفئات التي شكلت عنصر القوة في الخلافة الفاطمية –السودان والأتراك- اشتبكوا فيما بينهم لمرات عديدة في صراع دموي، أثر تأثيراً بالغاً في أمن القاهرة[7]، منها الصراع الذي حدث سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م بين الفريقين

---

(١) المقريزي: أتعاظ، (القاهرة، ١٩٧٣)، ج٢، ص٥٧.

(٢) عنان: مصر الإسلامية، ص٢٨. ويمكن للآخرين استئجارها من الخليفة.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٥.

(٤) المقريزي: أتعاظ، ج١، ص٢٧٩. زكي، د. عبد الرحمن: القاهرة تاريخها وآثارها، ص١٢.

(٥) الصابئ، هلال: رسوم دار الخلافة، (بغداد، ١٩٦٤) ص٨٥"المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٧٠.

(٦) المقريزي: أتعاظ، ج١، ص٢٩٠.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (لقاهرة، ١٩٦٣)ج٥، ص١٧.

ودارت بسببها معارك دامية في الساحات والشوارع داخل القاهرة[(١)]، ومما أذكى نار العداوة تدخل نساء القصر لصالح السودان مما أثار حفيظة الأتراك ومعاداتهم للخلافة[(٢)].

يبدو أن السودان قد انتابهم الغرور بعد أن بلغ عددهم خمسين ألف فارس وراجل، فاستهانوا بالأعراف والقوانين، وتمادوا بالاعتداء على الأهالي، بل إن اعتداءاتهم امتدت إلى الخليفة نفسه الذي أجبروه على دفع الأموال لهم، وقد تجدد الصراع بينهم، لكن الأتراك تمكنوا من إنزال هزيمة قاسية بهم[(٣)] فاضطروا إلى الهروب إلى خارج مصر[(٤)] والقاهرة، وعلى الرغم من ذلك فإنهم واصلوا أعمال السلب والنهب في الظواهر، ولكن الترك وبعد انتصارهم قاموا هم أيضاً، بالاعتداء على المواطنين وسلب أموالهم أمام عجز الخليفة من فعل أي شيء حيال ذلك[(٥)].

إن هذه الأوضاع السيئة وانعدام الأمن والاستقرار حددت حريات الأهالي مما حدا بهم إلى المكوث في بيوتهم وعدم الخروج منها خوفاً على أنفسهم، ومما زاد في أمر هذه المحنة ارتفاع الأسعار وندرة القوت[(٦)]، ومن أسوأ تلك الكوارث التي شهدتها مصر الشدة العظمى التي حدثت في سني ٤٥٩-٤٦٤هـ/١٠٦٦-١٠٧١م[(٧)]، وقد حصدت هذه الشدة وغيرها أرواحاً كثيرة حيث لم يَبقَ مَنْ يَعمَل ويزرع ويحصد[(٨)]، ولأجل الحصول على القوت احتدمت صراعات عنيفة احترقت خلالها معظم دور السادة وسلبت الأموال وتعاظمت الشدة بمصر[(٩)].

ومن اللافت للنظر في هذه الفترة كثرة عزل الوزراء، إذ تعذر عليهم معالجة الأزمات لقصر حكمهم حتى بلغ الأمر أن بعضهم لم يحكم إلا يوماً واحداً، كأبي عبد الله محمد بن أبي حامد التنيسي

(١) المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٢٧٣.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، (القاهرة، ١٩١٩)٢، ص١٣"تاريخ ابن خلدون: مج٤، ص ص٣-٦٤. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٥٦.

(٣) ابن ميسر: ج٢، ص ص١٦-١٧" امقريزي: أتعاظ: ج٢، ص ص٢٧٣-٢٧٤.

(٤) وقد يذكر المصادر مصر ويقصدون بذلك مدينة الفسطاط، ولكن في دراستنا هذه نقصد بها ديارمصر.

(٥) تاريخ ابن خلدون: (بيروت، ١٩٨٨) مج٤، ص٦٤. حسن: الدولة الفاطمية، ص٥٨١.

(٦) الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١، ج٦، ص ص٣٧٩-٣٨٠.

(٧) النجوم الزاهرة، (القاهرة، ١٩٦٣) ج٥، ص٢.

(٨) المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٣٠٠. حسن: الدولة الفاطمية، ص١٧١.

(٩) المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٣٠٦.

الذي قتل في اليوم التالي[(١)]، وبعد وفاة (اليازوري سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٧م) تولى الوزارة أربعون وزيراً في مدة تسع سنوات، هذه الأحوال السيئة كانت مدفوعة بتشجيع الفئات والجماعات المسلحة العسكرية على المزيد من القتال لاسيما بين الأتراك والسودانيين[(٢)]،

لقد تمادى بعض الوزراء في السيطرة على الخلفاء، إذ بلغ اليازوري[(٣)] من النفوذ والقوة حداً أجبر الخليفة على الموافقة على نقش اسمه على السكة وبقي ذلك مدة شهر[(٤)]، ثم تحسنت الأوضاع الأمنية بعض الشيء بعد أن تقلد بدر الجمالي المستنصري الوزارة[(٥)]، وأخذ الأمور بحزم بناء على دعوة المستنصر، وكان قد وصل إلى القاهرة سنة ٤٦٦هـ/١٠٧١م فولاه الأخير تدبير الأمور، وكان وزير السيف والقلم ولقب بأمير الجيوش[(٦)]، وقد استطاع أن يضع حداً للتجاوزات، فاستتب الأمن والسلام ورخصت الأسعار في عهده[(٧)].

٢- اختلاف العناصر السكانية التي شكلت قوة الدولة:

يبدو ان العناصر التي كانت تعتمد عليها الدولة هي نفسها التي كانت تسبب الفتن وتزعزع أمن مصر واستقرارها، ويأتي السودان في مقدمة الذين أساءوا إلى أمنها كلما سنحت الفرصة لهم بذلك، فكان تأخير أعطياتهم يوماً واحداً كافياً لإظهار التمرد والعصيان، ومسوغاً لهم لكي يقوموا بأعمال السلب والنهب، حتى خلال المهمات الرسمية التي كانوا يكلفون بها، وقد بلغ تماديهم هذا حداً لم ينج

(1) المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٣٣٣.

(٢) حسن: الدولة الفاطمية، ص١٧٩-١٨٠ و٥٨٠.

(٣) هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن، ولي القضاء والوزارة معاً، وهو أول من جمع بينهما، ثم صرف عنها سنة ٤٤٥هـ. السيوطي: حسن لمحاضرة، ج٢، ص١٩٠.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٤.

(٥) كان أرمني الجنس، جباراً عنيداً، كثير السب للصحابة، ويعد من الطغاة، ولخوف الناس منه اضطر أكثرهم اعتناق مذهبه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٥، ص١٢٠.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، (بيروت،١٩٧٧) ج٢، ص٤٣٩" تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٦٤"سرور، جمال الدين: مصر في عصر الدولة الفاطمية، (القاهرة، د. ت)، ص١٨٤.

(٧) الدواداري: كنز الدرر، (القاهرة،١٩٦١) ج٦، ص٣٩٩" المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٢٠" المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، (القاهرة، ١٩٩٠)، ص٥٨. حسن: الدولة الفاطمية: ص١٧١.

منه أحد حتى الخليفة نفسه[١]، ويأتي رجال الجوالة[٢] بالدرجة الثانية في تعكير صفو الجو الأمني فقد استغلوا أبسط الأشياء لإظهار عصيانهم وإشعال نار الفتنة[٣]، كما شكل المغاربة تهديداً أمنياً خطيراً ومباشراً في القاهرة، إذ كانوا يقومون بالاستيلاء على منازل الأهالي في القاهرة والقرافة عنوة[٤]. ولم تتوقف السلطات الفاطمية مكتوفة الأيدي إزاء تلك الفئات التي حاولت العبث بأمن واستقرار مصر فلجأت إلى طرق وأساليب مختلفة محاولة منها للسيطرة على هذه الأوضاع المتردية والحيلولة دون تفاقمها أكثر. وكان تشكيل جماعات خاصة من هذه الفئات وتعيين مسؤول على كل جماعة منهم يسمى بالعريف[٥] وكلّتْ إليه مهمة تشخيص القائمين منهم بالمخالفات والجرائم وتقديم المعلومات الخاصة عنهم الى السلطات الحكومية، واستخدمت أساليب قاسية لردع المخالفين[٦]، وقد اختلفت هذه الأساليب باختلاف مرتبة المعاقب الاجتماعية، فكان السودان يُقتَلون ثُم تُرمى جثثهم للكلاب، في حين كانت عقوبة الآخرين تقتصر على القتل فقط[٧].

لم تتخذ السلطات الفاطمية أساليب الرد العنيف والقوة المفرطة في التصادم مع المشاغبين والمعارضين فحسب بل كانت هناك اساليب اخرى لجأت اليها لاحتواء الفوضى والقلاقل الامنية في القاهرة، منها: منح الاموال لهؤلاء لبناء مساكنهم بعيداً عن الاهالي بغية اتقاء شرهم[٨]، وإصدار أوامر تمنع مبيتهم في المدينة، وكان ذلك يعلن على الملأ بواسطة منادٍ، ومن ضبط مخالفاً يتعرض لأشد العقوبات[٩].

---

(١) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص١٧٠.

(٢) هم الذين جلوا عن اوطانهم الخوارزمي: مفاتيح العلوم، (القاهرة ١٣٤٢هـ)، ص٤٠.

(٣) المسبحي: اخبار مصر،(القاهرة،١٩٨٠) ج٢ ص١٩٨.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٠٦.

(٥) وهو المسؤول عنهم، ويقوم بعمل النقيب الموجود داخل صفوف جند الحلقة (النويري: نهاية الإرب، (القاهرة د.ت) ج٨ ص٢٠٣).

(٦) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص١٧٠.

(٧) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٣١٣.

(٨) المقريزي: م.ن، ج١ ص١٥٤.

(٩) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٠٦

٣- المغالاة في استغلال بعض المراسيم الدينية:

ساعدت بعض الظروف على نشوب الفتن والقلاقل الامنية، في مصر والقاهرة تمثلت بأيام الاعياد والمناسبات، اذ كانت هذه المناسبات تستغل من قبل جماعات خاصة، حيث كان الشيعة يجبرون الاهالي على اظهار الحزن والأسى في العاشر من محرم (ذكرى استشهاد الامام حسين (رض)) وكانت الدولة تتوقع حدوث قلاقل أمنية فتأخذ تدابيرها، وتصدر الأوامر إلى الشرطة حول كيفية التعامل مع هذه الظواهر، باتخاذ الاجراءات المناسبة، إذ كان تمنع الخروج الى بعض الاماكن، وتضبط الطرق والدور حتى لا يستطيع احد من إظهار ما يخالف القانون[١]، ولم تنفع تلك الاجراءات في الليالي المظلمة التي كانت جواً مناسباً لهؤلاء المخالفين، فقد حاول الجهاز الأمني السيطرة على ذلك عن طريق إيقاد المصابيح، لتقليل محاولات السرقة، والاعتداءات[٢]، ويبدو من سير الأحداث أن المصريين كانوا يظهرون التطرف والمغالاة في اظهار المنكرات بشكل لا يتفق مع قانون الدولة[٣]. وغالباً ما كانت هذه الاوضاع تتسبب في نشوب الحرائق في الاسواق والمحلات السكنية، لذلك فقد امرت السلطات الامنية بوضع أزيار مملوءة بالماء في الحوانيت[٤]. وكان الأهالي في القاهرة سارعوا الى نقل بضائعهم الى منازلهم كلما توقعوا حدوث فوضى واضطرابات، خوفاً من السلب والنهب[٥]، فضلاً عن ذلك فان ملاحقة الشرطة للمخالفين والمتهمين كان كفيلاً بخلق جو مضطرب امنياً يؤدي الى اغلاق المحلات التجارية، وقد تلجأ الدولة الى محاولة تطمين الاهالي، ومنع حصول الاضرار على ممتلكاتهم العامة[٦]، وقد اخذت الفوضى الناجمة اشكالاً عنيفة، وهذا يتوقف على مذهب الوزير في المناسبات الدينية، فاذا كان شيعياً يغالي في المراسيم، مما يشجع القلاقل وأحداث الشغب، والعكس صحيح[٧].

---

(١) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٢٧٧،٦٧.

(٢) المقريزي: م.ن، ج٢ ص ص٣٩، ٤٨، ١٠٥.

(٣) المقريزي: م.ن، ج١ ص٢٤٢، ج٢ ص ص٤٨، ٨٧، ١٠٥.

(٤) المقريزي: م.ن، ج١، ص٢٧٧.

(٥) المسبحي: أخبار مصر، ج٢، ص٢٠٠.

(٦) المقريزي: أتعاظ، ج٢، ص٧٧.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٥٤.

كانت القاهرة اكثر المدن تعرضاً للفتن والقلاقل، إذ كان يتوجه إليها أهل الظواهر كلما داهمهم خطر، مما شكل ذلك عبئاً عليها، لذلك فان الاجهزة الامنية اعدت قوات خاصة لاعادة الامن والاستقرار في المدن والقصبات المحيطة بها[1]، وحتى الاماكن المقدسة والمزارات التي كانت بمثابة مخابئ يلجأ اليها المطاردون من قبل الدولة[2].

رابعاً: كيفية التصدي للأخطار الأمنية

١- الأخطار الأمنية الخارجية:

على الرغم من قصر مدة الوزراء فإنهم أحكموا القبضة على مقاليد الأمور بفضل الموثوقين من الأمناء والعيون والمخبرين، وإذا ما تعرض أمن الدولة لخطر ما ولاسيما تلك التي لها علاقة بأمن الوزير الشخصي، فإن هؤلاء لا يغمض لهم جفن ليل نهار، وقد سبق أن الاسماعيلية[3] قد شتوا بقتل الأفضل (أمير الجيوش)، وخططوا لقتل الوزير مأمون البطائحي والخليفة الآمر والآمر معاً، وأعدوا العدة لذلك، قام الأول وحال ورود تلك المعلومات الخطرة إلى مسامعه، باستخدام جهازه الأمني لملاحقتهم وأوعز إلى جميع الشبكات الأمنية في البلاد، بتتبع حركاتهم ابتداءً من عقر دارهم في قلعة (ألموت) إلى مركز القاهرة[4].

٢- الأخطار الأمنية الداخلية:

يتلخص بتلك الاجراءات التي اتخذتها الخلفاء والوزراء والأمراء لتمرير مخططاتهم بما يحقق مطامعهم بالدرجة الأساس وقد حدثت أحداث مثيرة وشغب كثير إثر قيام تلك العناصر بأعمال القتل

---

(١) المسبحي: اخبار مصر، ج٢، ص١٦٩.

(٢) سرور: الدولة الفاطمية، ص١٢١.

(3) وهم جماعة من الباطنية يقولون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر اسماعيل وهو جد الخلفاء الفاطميين بمصر، وهذه الطائفة هم شيعة تلك الدولة، وزعموا أن جعفراً مات وإن الإمام بعده اسماعيل، وقالوا أنه حي لم يمت . ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب،(بغداد ، د.ت) ص٥٩" العمري: المصطلح الشريف، ص ص١٩٨-١٩٩.

(٤) للمزيد من المعلومات ينظر : ابن ميسر، تاريخ مصر، ج٢، ص ص٦٥-٦٦.

وتصفية من يريدون تصفيته كقتل الوزير مأمون البطائحي سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م [1] وقد فسحت المجال لتدخل الجند لاختيار من يرغبون في توليته الوزارة، أدت هذه الأوضاع الأمنية السيئة الى إلحاق أضرار جسيمة بأرواح وممتلكات الأهالي[2].

و من الأمور الغريبة في هذه الفترة وصول بعض الوزراء من هم على غير المذهب الاسماعيلي، حيث استطاع أبو علي الأفضل أن يتبوأ كرسي الوزارة مدة ثلاثة عشر شهراً غير أنه قتل سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م[3] بسبب معاداته للرافضة[4].

وقد شهدت ساحات البلاد ومدنها أحداثاً خطيرة وصراعات مريرة بين الفئات والجماعات المسلحة، وكانت مدينة القاهرة من أكثر المدن تعرضاً للأخطار[5]. ومن الملاحظ ان أكثر الأحداث خطورةً على أمن البلاد تلك التي سببتها السودان، منها الذي حدث سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م في القاهرة وضواحيها[6].

يبدو ان الوزارة الفاطمية كان لمن غلب، وقد تبوئتها مختلف الفئات[7]، حدث من جراء ذلك حساسية لدى المسلمين مما أدى في بعض الأحيان الى تحويل الصراع من السياسي الى الديني أو بالأحرى تم استغلال ذلك لأغراض خاصة حيث تمكن رضوان الولخشي من جني الفائدة واستثمار الصراع لصالحه بعد انتصاره على بهرام الأرمني وتوليته الوزارة سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م[8] ، ومن الملاحظ ان موافقة الخليفة على تولية أي شخص الوزارة كان سنداً قوياً له، وبدونها يتعرض أمن الوزير الى خطر جسيم ومن ذلك ما حدث لرضوان الولخشي إذلم يستطع ان يحظى بتأنيد الخليفة وموافقته مما كان له أكبر الأثر في قتله سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م[9]، نرى ان بطانة الخليفة كانت تلعب دوراً بارزاً في صنع الأحداث

---

(١) ابن ميسر، م. ن: ج٢، ص٦٩" سرور: الدولة الفاطمية، ص١١٨" عنان: مصر الإسلامية، ص٢٥٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٣٩" السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ص١٥١ و١٩١.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢، ص٧٤" السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٩١.

(٤) وهم يقولون بألوهية الأئمة وأباحوا المحرمات، وأسقطوا وجوب فرائض الشريعة" (البغدادي: الفرق بين الفرق (بيروت، ١٩٧٧)، ص١٣٣.

(٥) ابن منقذ: الاعتبار، (بغداد،١٩٨١) ص٧" ابن ميسر : تاريخ مصر، ج٢، ص٧٦.

(٦) المسبحي: أخبار مصر (القاهرة ١٩٨٠) ص٧٧" ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٤٢.

(٧) ابن خلدون: المقدمة (القاهرة د.ت) ص١٣٩" حسن: الدولة الفاطمية ص١٧٧.

(٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان، ج١، ص٦٦٠" المقريزي: الخطط ج١ ص ص٤٨٣-٤٨٥.

(٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٨١" سرور: الدولة الفاطمية، ص١٢٣.

وتنصيب من يريدونهم[١]، وكان من نتائج تلك الصراعات احداث بلبلة وشغب وقطع الطرق بين المدن التي فقدت الأمن والاستقرار أيام نشاط هذه الأحداث[٢].

شارك الكورد مشاركةً فعالة في الحكم الفاطمي إذ كان ابن سالار الكوردي (ت٥٤٤هـ) أحد الوزراء البارزين[٣] الذي كان والياً على الاسكندرية والبحيرة، وقد استولى على منصب الوزارة بعد ان تمكن من ازاحة الوزير ابن المصال وقتله، والقضاء على معظم أنصاره من الصبيان الخاص[٤]، يبدوا أن الوزير الكوردي لم يحظ بتأيد الخليفة بسبب الفرق المذهبي بينهم وقد أصبح ضحيةً لهذه المسألة، اذ قتل سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٥]، نتجت عن تلك القلاقل والنزاعات نتائج مؤسفة امتدت الى جميع الفئات حتى شملت الخلفاء الذين لم ينجو منها، لاسيما هؤلاء الذين لم يأخذوا الأمر بجدية أو الذين لم يهتموا بأمنهم الخاص بالشكل المطلوب ، إذ تعرض الخليفة الظافر لمؤامرة قتل سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م وأدى موته الى قيام مظاهرة شعبية عارمة عمت معظم مدن البلاد لا سيما القاهرة حيث قام الأهالي بالهجوم على حارة البرقية[٦]، لأنها كانت مجمع دور الأجناد[٧]، وعلى أثرها أيضاً استنجد أهل القصر بوالي الأشمونين طلائع بن رزيك، فلبى طلبهم وقدم الى القاهرة مرتدياً شياباً سوداء ورافعاً علماً أسود[٨]، وتمكن من ان يعيد الامن والاستقرار الى ظهراني الأهالي في مصر، وعاقب المشاغبين وأعاد العمل بالقانون وأصبح ظهراً وسنداً قوياً للخليفة الفائز حتى وفات الأخير سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م[٩].

---

(١) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم (القاهرة ١٩١٦) ج٣، ص٢٣١.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ،(بيروت، ١٩٠٨)، ص ٣٠٨" ابن ميسر، تاريخ مصر، ج٢، ص٨٨.

(٣) هو ابو الحسن علي بن سالار الكوردي الزرزاري سمي بـ(العادل أمير الجيوش)، للمزيد من المعلومات ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ، ص ص٤١٦-٤١٨.

(٤) هم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة، فكان الواحد منهم إذا مات حمل أولاده إلى حضرة الخلافة وتربوا فيها وتعلموا الفروسية والعلم. ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢، ص٩٠" وهم من أخصاء الخليفة عددهم نحو خمسمائة بينهم أمراء. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥٢٢/٣.

(٥) الدواداري: كنز الدرر ، ج٦، ص٥٥٣.

(٦) وهم من برقة جاءوا بصحبة جوهر فعرف بهم ثم صاروا من أعوان طلائع بن رزيك" القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٣.

(٧) ابن منقذ: الاعتبار ، ص٢٨.

(٨) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ج٢، ص٩٤" القلقشندي: صبح الأعشاب، ج٣، ٢٩٣.

(٩) ابن ميسر: م.ن.ج، ص٩٤" حسن: الدولة الفاطمية، ص١٨٧.

يبدو ان تصرفات رزيك وقابليته الادارية قد أوغر صدور الحساد مما ادى الى ان يكون ضحيةً لمؤامرة احيكت من داخل القصر ، نرى ان جماعة من الكورد قد دافعوا عنه ضد المتآمرين عليه دفاعاً مستميتاً منهم الحسين بن أبي الهيجاء الكوردي، الذي كان أحد امراء الصالح رزيك وصهره، غير ان عمله لم يكن ذا جدوى، إذ قتل وحل محله في الوزارة ابنه ابي شجاع رزيك بن الصالح[١].

ادت هذه الصراعات الى الحاق أضرار بالغة بأمن البلاد وسلامتها، وتعرض القوافل التجارية الى السلب والنهب فضلاً عن وقوع العديد من مدنها بيد الصليبيين مما عرض أهاليها الى الاصابة بأضرار بالغة[٢] وقد اتخذت مع هذا الأحداث بعض الاجراءات لرفع معنويات الأهالي واستتباب الأمن في البلاد[٣]

تعرض امن البلاد الى الخطر بعد خروج الأمير شاور عن الطاعة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م نتج عنها قتل العادل وشنقه[٤] ،حاول شاور فرض الأمن بكل الطرق المتاحة، ولكن خوفه من أنصار الوزير المقتول (العادل) ومقدمهم ضرغام اضطر الى الهرب نحو الشام والاستنجاد بنور الدين زنكي[٥] ، وأصبح ضرغام صاحب الأمر الحقيقي في مصر، واعتمد على الجيوشية[٦] والريحانية[٧] في استتباب الأمن، في الوقت الذي كان شاور يعمل من أجل كسب ود نور الدين زنكي بغية العودة الى مصر، وتم له ما كان يصبو اليه، اذ أعاده الزنكي بصحبة شيركوه أحد أهم الأمراء في البلاد، و في خضم أحداث مريرة حيث

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، (دمشق، ١٩٩٢) ق١، ص٢٥٥" الدواداري: كنز الدرر، القاهرة، ١٩٧٢، ج٧، ص١٧" ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ص٣١٤-٣١٥. المقريزي: أتعاظ، ج٣، ص٢٤٦" حسن: الدولة الفاطمية، ص١٨٧.

(٢) ابن الأثير: الباهر، (القاهرة، ١٩٦٣) ص ص٣٢-٣٤. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٣٠. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، (بغداد، ١٩٧٩)، مج٢، ج٤، ص١٥٢.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية ،(القاهرة، ١٩٩٥) ج٣،ص ص١٣٠-١٣١.

(٤) تاريخ الرهاوي: (بغداد، ١٩٨٦) ج٢، ص١٩١" المقريزي: أتعاظ ، ج٣،ص٢٥٦.

(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية. ج٤، ص١٠٢، ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، (بيروت، ١٩٨٣) ص٣٦٨" ابن واصل: مفرج الكروب،(القاهرة، ١٩٦٠) ج١، ص١٣٧" بيومي: علي، قيام الدولة الأيوبية، (القاهرة، ١٩٥٢) ص٩٨.

(٦) نسبةً الى غلمان أمير الجيوش بدر الجمالي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٢م) أتعاظ : ج٢، ص٣٣١.

(٧) هم فئة من عسكر الفاطميين نزلوا بالقاهرة وقت انشائها، ولهم حارة باسمهم .(اتعاظ: ج٢، ص٥٤.

كانت المعارك تدار من باب الى باب[1] حقق جيش الشام انتصاراً باهراً، حيث حوصر ضرغام في زاوية ضيقة، ولم يجد الأخير بداً الا أن يتصل بعموري[2] ملك بيت المقدس بعد أن تعهد له بدفع ضريبة، ولكن عمله هذا استوجب من قوات شاور دخول القاهرة وعلى أثرها قتل ضرغام سنة ٥٥٩هـ/١١٦٢م[3].

حاول شاور اعادة الأمن والاستقرار، ولكن حبه للغدر وميله الايقاع بالذين يؤيدون شيركوه حال دون ذلك، حتى انه بدأ يحاسب الناس بمجرد الظن، ثم لجأ الى محاولةٍ اخرى لاستعادة الأمن والاستقرار ألا وهيَ الاستعانة بعموري، وبدأ يغريه تارةً باغداق الاموال عليه، ويخوفه الاخرى، وعلى أية حال انه قد مهد الطريق للفرنج لوضع شحنة لهم في القاهرة التي كانت أسوارها وأبوابها بيد فرسانهم، ووصل الخطورة درجة كبير إذ أناط مسؤولية أمن القاهرة الى (هيج دي ايلين) أحد امراء الصليبيين، أدرك الفرنج أن ديار مصر أصبحت بلا حامٍ، ولكي يزيد مري من همة جنده قام بتقسيم إقطاعات مصر وتوزيعها عليهم، لأنه كان واثقاً من نفسه باحتلالها[4]، متصوراً بأن نور الدين في وضع لا يمكنه جمع جيشه في هذه الفترة الضيقة لأن الناس كانوا مشغولين بموسم الحصاد، وإنه سوف يصل إلى القاهرة قبل أن يتهيأ جيش الشام[5].

تبيين للأهالي في مصر بأن الوضع قد بلغ من السوء حداً لا بد معه من سبيل للخروج من هذا المأزق، وحتى أقرب المقربين الى شاور لم يكن راضباً عن سياسته، فاتفقت جميع الأطراف استدعاء جيش الشام مرة أخرى لوضع حد لهذه المأساة وفقدان الأمن والاستقرار لاسيما بعد قيام شاور باحراق

---

(١) المقريزي : أتعاظ ، ج٢،ص ص٢٦٨-٢٦٩.

(٢) اختلف المؤرخون في ذكر اسمه فورد على أشكال عدة، هي: أموري، أمرليك، مري، عموري.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية ، ج٤، ص٢٧" ابن الأثير : الكامل،(القاهرة، ١٩٦٣) ج٩، ص٨٥" مؤنس، حسين: نورالدين محمود (القاهرة، ١٩٥٩)، ص٢٩٠.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٥٤" الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٠.

(٥) المقريزي: أتعاظ، ج٣، ص٢٩١.

الفسطاط، حيث انتقل معظم أهاليها الى القاهرة، وقد حاول الصليبيون الدخول الى القاهرة وقد أصبحوا قاب قوسين او أدن من هذا الأمرى[1].

٣- الإجراءات الأمنية ضد المناوئين والمخالفين:

تزخر المصادر التاريخية بمعلومات وافرة عن كيفية قيام السلطات الفاطمية بانزال مختلف العقوبات بالمناوئين والمخالفين لها من الذين يسيؤون الى أمن البلاد وسيادتها، وقد كان استخدام المفاطر (الفلاقة) مع السجناء أمراً شائعاً[2]، وقد خُصِصَ شخص لتعذيب من أريد تعذيبه، وكان يسمى بمتولي الستر[3] وهو صاحب العذاب[4] وإذا ما أراد الخليفة تعذيب شخص ما فإن على المذكور تنفيذ الأمر.

ومن جملة الأساليب القاسية والبشعة التي كان الحكام يعاملون معارضيهم بها هي: قرض اللحم بالمقارض، وإجبار المقطع منه على أكله[5]، وكذلك قطع اليد من الوسط بالساطور، وسلخ الجلد وحشوه بالتبن[6]، والصلب حياً حتى الموت[7] وهو ما يسمى بالقتل صبراً[8]، وقطع الرأس بالسيوف الثليلة، وقد يبقى المصلوب مدة طويلة تصل بعض الأحيان إلى سنتين، ثم تحرق عظامه[9]، أو يحرق الميت بكامله، كما فعل ذلك بنصر بن عباس- وزير الظافر سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[10]، وكان الوزراء من اكثر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ،ج٩،ص٩٩" ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص١٥٨" الحنبلي: شفاء القلوب (بغداد، ١٩٧٩) ص٣٣" ابن آياس: بدائع الزهور (القاهرة، ١٩٦٠) ص٥٤.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الادباء، (القاهرة، ١٩٩١) ج٣ ص٣٠، هامش رقم (٢٠).

(٣) النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، (القاهرة د.ت)، ج٢ ص٢٩٨.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٢٩٥.

(٥) ابن تغري بردي: م.ن، ج٥ ص ص٣١٠-٣١١.

(٦) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص٢١١.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص ص٣١٠-٣١١.

(٨) أي نصب الانسان للقتل وهو منهى عنه (ابن منظور: لسان العرب، (بيروت، د. ت)، مادة صبر) ابن تيمية: الحسبة، (د. ت)، (د. م)، ص٥٦.

(٩) ابن تغري بردي: م.ن، ج٥ ص٣١١.

(١٠) تاريخ ابن خلدون:مج٤ ص٥٦.

الفئات ظلماً للناس، ويذكر ان الافضل بن بدر الجمالي كان اذا غضب على احد امر بقطع سائر أعضائه[١]، وكان ابن سالار قد ضرب مسماراً في اذن ابي الكرم محمد بن المعصوم التنيسي ناظر الدولة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٦م[٢] هذا فضلاً عن وسائل اخرى كثيرة كقطع الاذن، وجدع الانف، وقد انزلت هذه العقوبات بالعديد من الناس[٣]، ولم يقتصر التعذيب على مرحلة التحقيق والاستجواب فحسب بل مورس أيضاً مع السجناء أيضاً، وفي داخل السجن، اذ كانوا يقيدون بعض السجناء الخطرين بالسلاسل[٤].

كان أمر إنزال العقوبة بالخصم اصداره من اختصاص المجلس القضائي، الذي كان جزءاً من الجهاز الامني الذي يتحكم في أمن البلاد، وقد اقتصر مجلس الحكم فيها على مجلس واحد، لان تعدد المجالس كان يثير الاختلاف بين الخصوم[٥]. وقضاة الشيعة هم وحدهم من لهم الحق في النظر في المظالم[٦]، وقد يكون للخليفة حق إصدار الأحكام دون العودة الى المجلس القضائي، وكان الخليفة الحاكم كثيراً ما ينزل العقاب الجماعي بحق الكثيرين، وقد اقدم على قتل عدد من أفراد أسرة واحدة، دون بيان سبب يستحق هذا العقاب[٧].

وكانت المحاكمات تجري في جامعي مصر والقاهرة مرتين في اليوم[٨]، وقد كانت هذه الاحكام تتغير في الدولة الفاطمية حسب تحكم الوزراء، فقد نجد أربعة قضاة في المحكمة، اثنين من أنصار الفاطميين واثنين من السنة، أي بواقع قاضيين لكل مذهب، وكان ذلك امراً جديداً في الدولة الفاطمية[٩] استحدثه الوزير ابو علي أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م بعد ان كان القضاة من الشيعة الأسماعيلية حصراً[١٠].

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٦ ص٤٧١.
(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢ ص٩٠.
(٣) حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٨٦.
(٤) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص١٣٩.
(٥) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج١ ص ص١٤٩-١٥٠.
(٦) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص٢٥٥.
(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤ ص٣٠٣.
(٨) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج١ ص١٥٠.
(٩) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢ ص٧٤، سرور: الدولة الفاطمية، ص١٢٠.
(١٠) ابن ميسر: م.ن، ج٢ ص٧٥.

وكانت الأجهزة الأمنية تتألف من الرجال والنساء، وقد أظهرت كفاءة عالية في أداء واجباتها[١]، ويكفي لكي تتخلص من شخص ما أن توجه إليه إحدى التهم التي عقوبتها الموت، وكان على السلطات الفاطمية أن لا تأخذ أحداً بجريرة الظالم، وكثيراً ما كانت التهم تعتمد على بعض الأخباريات المغرضة، والتي كانت مدفوعة بدافع الحسد والخوف على المصالح، وكان بعض الناس كل الوسائل الممكنة للايقاع بخصومه[٢]، وقد أدى ذلك الى وقوع كثير من الأبرياء في مظالم لم يعرفوا عنها شيئاً.

خامساً: الأنشطة الأمنية الفاطمية:

١- الأمن الاقتصادي

يمثل نهر النيل سر الحياة وديمومتها في التحولات الاقتصادية والسياسية والأجتماعية وغيرها. وقد كان الاعلان عن الانخفاض في منسوب مياهه في عام ما سبباً مباشر في حصول حالة من الذعر والهلع بين السكان مما نتج عنه مضاعفات خطيرة تهدد أمن البلاد وتعرض سلامته للخطر، وقد أمر الخليفة المعز ان لا تعلن حالة النيل إلا له شخصياً أو للمسؤول المباشر عن المقياس، ويبدو ان الحد الامثل لمياه النيل كان يجب ان يبلغ ستة عشر ذراعاً، وهو ما كان يطلق عليه حد الوفاء، وبخلافه تحدث أحداث خطيرة، وقد سجلت كتب التاريخ تفاصيل كثيرة منها[٣]. فمن هذه الأحداث مثلاً ما وجده الأهالي من المعاناة والحرمان سنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م) إذ وقع غلاء فاحش نتج عنه فوضى عامة تدهورت على أثرها الاوضاع الامنية، وقام المغاربة بنهب القاهرة، وانتهاك حرماتهم[٤]. وفي عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤م ارتفعت الاسعار فانعكس الحال على النقود المتداولة، وقد تدخلت السلطات الحكومية لمعالجة هذه الأزمة بضخها الى السوق عشرين صندوقاً من الدراهم من بيت المال. وأمرت الأهالي بالتعامل بها وألزمت الناس تسليم دراهمهم الى دار الضرب[٥] بعد أن أمهلتهم ثلاثة ايام، وصرفت

---

(١) المسبحي: اخبار مصر، ج٢ ص٢٣٤.
(٢) المقريزي: أتعاظ، ج١، ص٢٩٨.
(٣) المقريزي: اتعاظ، ج١ ص١٣٨، وقد قام حسن ابراهيم بإعداد جدول وضع فيه مقاييس النيل من سنة ٣٥٩هـ لغاية سنة ٥٦٧هـ، الدولة الفاطمية، ص ص٥٧٣-٥٧٥.
(٤) المقريزي: كشف الغمة ص٤١، أتعاظ، ج١ ص١٢.
(٥) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٦٩، كان درهم النقرة ثلثاه من الفضة وثلثه من النحاس، ولمعرفة تفاصيل ذلك ينظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٥٠٧-٥٠٨.

أربعة دراهم قديمة بدرهم جديد، وثم صرف الدينار بثمانية عشر درهماً[1]. كما اتخذت الدولة إجراءات صارمة بحق الطحانين والخبازين، إذ أمرتهم بعدم بيع الخبز إلا مبلولاً[2]، لضمان عدم خزنه، وقد كان المحتكرون يلعبون دوراً فعالاً في تفاقم هذه الأزمة، فوجدت السلطات بأن انسب علاج لهذه الأزمة هو تسعير الغلال والمواد وضرب المحتكرين والمخالفين من التجار والتشهير بهم، ودعم غير المحتكرين منهم[3]، ومن المعلوم ان الاسلام حرم الاحتكار ولعن المحتكرين وفي هذا الصدد يقول المصطفى (صلى الله عليه وسلم): (لا يحتكر إلا خاطئ)[4] وكثيراً ما كان ينجم عن تردي الاوضاع الاقتصادية مظاهرات عارمة شبيهة بما يحصل اليوم في كثير من دول العالم، فقد حصل في العام ٣٩٨هـ/١٠٠٧م نقص في مياه النيل، أصاب الناس بسببه ضرر كبير، وتفشت بينهم المجاعة، ودامت تلك الأوضاع سنة كاملة، فخرج الاهالي بسببها الى الشوارع، واجتمعوا في ساحة بين القصرين، واستغاثوا بالحاكم وأجبروه على وضع حد لهذه الأزمة، وقد وضعت خطط خاصة لحل هذه الازمات[5].

كما حدثت أحداث مشابهة أيام الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢١-١٠٣٥م) حيث عانى الناس الأمرّيْنِ من جراء ضائقة مالية التي ألمت بهم، والخليفة غارق في ملذاته وقد توفي على أثرها مائة وسبعون ألف إنسان عدا الذين لم يعثر على جثثهم أو يعرف بموتهم، يبدو من هول الكارثة غلبة المبالغة على ذكر أرقام هائله، وقد وصل الشغب حداً اضطرت السلطات معه إلى إعلان حالة الطوارئ، حيث أعطت للمواطنين حق الدفاع عن النفس والأهل، وان استلزم الأمر قتل المشاغبين، وقد بدأ الناس فعلاً بالاستعداد وللدفاع عن أنفسهم وعن أهليهم، وحدثت مصادمات عديدة في الأزقة والشوارع بين الاهالي والسودان [6]، قصر نهر النيل عن حد الوفاء سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م في زمن المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) في وزارة اليازوري في وقت كانت فيه المخازن السلطانية خالية تماماً من

---

(١) المقريزي: كشف الغمة، ص٤٣، ومن المعروف ان الصيرفة مقتصرة على اهل الذمة لان الشريعة الاسلامية لا تبيح للمسلمين الاشتغال بها، ينظر. ماجد، عبد المنعم : نظم الفاطميين ورسومهم، ج١ ص١٢٩.

(٢) المسبحي: اخبار مصر، ج٢ ص٣٥، المقريزي: كشف الغمة، ص٤٣.

(٣) المقريزي: كشف الغمة، ص٤٤.

(٤) ابن تيمية: الحسبة، ص٢٢.

(٥) المقريزي: كشف الغمة ص٤٥.

(٦) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص ص١٦٩-١٧٠.

الغلال، غير أن ذكاء الوزير وانتهاجه سياسة حكيمة كان لها بالغ الاثر في التخفيف من حدة آثار هذه الضائقة، عن طريق اللجوء الى الاهالي وتعاونهم معه، وكذلك شجع روح التنافس في البيع بأسعار مناسبة بين الباعة مما سارع في حل الازمة[1]. وفي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥ حدثت حالة مماثلة، فلجأ إلى طريقة أخرى حكيمة، إذ ألغى كثيراً من القنوات والوسائط التي كانت تمر بها الغلال ابتداءً من الفلاح ووصولاً الى المستهلك من السوق، وألزم كل فلاح بكمية محدودة من الغلال يلتزم بادائها للدولة وبشكل مباشر وبعكسه فإنه سوف يتحمل عواقب وخيمة، كما شجع التنافس بين الباعة، وقدم مساعدات حقيقية ساهمت الى حد كبير في انخفاض الأسعار، وانفراج الازمة. وبذلك تمكن ان يضمن وخلال سنة واحدة فقد لمصر والقاهرة مؤناً بلغت ألف تليس:[2] سبعة مئة لمصر، وثلاثة مئة للقاهرة، ودامت تلك الاوضاع الطبيعية مدة عشرين شهراً، الى ان ادركت الغلة الجديدة[3]،وهو ما يؤكد عليها شريعتنا الاسلامية بتأمين الحياة لسنة واحدة على الأقل[4].

تدهورت الاوضاع الامنية بعد وفاة اليازوري سنة ٤٥٠هـ-١٠٥٨م وتسلط على الحكم الأتراك بعده واستأثروا أنفسهم به، وتزعزعت اركان الوزارة، وساد جو من التوتر وتوقفت المشاريع لعدم توفر الأموال[5]، وسميت هذه الازمة التي طالت الجميع بالشدة العظمى ٤٥٧-٤٦٢هـ/١٠٦٤-١٠٦٩م[6]، وقيل ان الحال وصلت بالاهالي الى حد حملهم على أكل لحم الكلاب والقطط[7]، وبلغ الخليفة الفقر حداً اضطر معه الى الجلوس على الحصير، واقتصر أكله على فتات الخبز، وأخذت صرخات نساء القصر تسمع من شدة الجوع، وهاجر الناس الى البلدان، وقلما وصل أحد إلى بر النجاة إلا مات جوعاً في الطريق[8]، ولم يكن النيل وحده مسؤولاً عن ذلك إذ ان الأمراء يتحملون القسط الأكبر من المسؤولية

---

(١) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٢٢، كشف الغمة، ص٤٨.

(٢) تليس كلمة كوردية يساوي مائة وخمسين رطلاً، ابن مماتي: قوانين الدواوين، (القاهرة، ١٩٤٣) ص٣٦٥.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٦ ص٤٠٠، المقريزي: كشف الغمة، ص٥١.

(٤) ابن جماعة الحموي: مستند الاخبار في الات الجهاد، (بغداد، ١٩٨٣) ص٤٢، ابن تيمية: الحسبة، ص٤٧.

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢، ص ص١٣، ١٧.

(٦) المقريزي: كشف الغمة، ص ص٥٣-٥٤.

(٧) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢ ص٧، ، ابن اياس: بدائع الزهور، (القاهرة، ١٩٦٥) ص ص٦٠-٦١، حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٨١.

(٨) المقريزي: كشف الغمة، ص ٥٥-٥٦، أتعاظ، ج٢ ص٢٩٨.

في هذا التدهور الذي نجم عنه أيضاً قلة في الأيدي العاملة لجميع الأنشطة الاقتصادية، واختفت الكثير من الوسائل الإنتاجية الحيوانية من الوجود[١]، وقلت سيطرة الدولة، ومكثت القلة الباقية من الاهالي في بيوتها، وقلما خرج أحد من داره إلا في حالات الضرورة وإذا ما دعت الحاجة إلى الانتقال إلى مدينة أخرى، كان يجب أن تكون ضمن قافلة، يحرسها الحراس، ومع ذلك فقد كان السفر براً وبحراً بمثابة مجازفة خطرة، ومما زاد في طول مدة هذه الأزمة حدوث زلزال سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م،قضى على أعداد كبيرة من البقية الباقية من الأهالي[٢]. وهكذا بلغت الأوضاع درجة كبيرة من السوء[٣].

لم يقف الخليفة المستنصر مكتوف اليدين إزاء هذه الظروف، بل حاول جهد الامكان تحقيق الامن الغذائي للاهالي، ووضع حد لهذه المأساة، حيث شجعت السلطات الناس على المتاجرة، وجلب المواد من الخارج، كما أمرت الدولة بمنع ذبح الأبقار عدا تلك التي لا تصلح للحراث[٤] كذلك منعت بيع القمح لغير الطحانين[٥]، وزاد ضغط الاهالي في القاهرة على الخليفة لايجاد حل لهذه الازمة فانتهج في سبيل ذلك طرقاً وأساليب ذكية للخلاص من هذه المعاناة[٦]، لأنها كانت في زيادة مستمرة وتزامن معها وباء حصد أرواح الكثيرين[٧].

ويبدو ان الخليفة الآمر كان أيضاً مهتما بمعالجة الاوضاع الاقتصادية، فقام بنفسه باجراءات مهمة لدعم اقتصاد دولته، ومنها: تحسين عيار الذهب، اذ كان اول من فطن الى ذلك سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م[٨]، وكان لدور الضرب المنتشرة في أنحاء البلاد دور كبير في تسهيل المعاملات التجارية

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٣٢٣-٤٩٤، المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٣٠٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٣.

(٢) القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة، (بيروت، ١٩٦٤) ج١ ص٣٤٣.

(٣) ذكرت المصادر التاريخية حوادث مؤسفة بسبب تلك الاحداث المؤلمة، المقريزي: كشف الغمة، ص٥٦ الخطط ج١ ص٣٥٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص١٦، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص ص٩٢-٩٣، ٢١٣..

(٤) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص ص٥٣، ١٤٩.

(٥) المقريزي: م.ن،ج٢ ص٢٩١.

(٦) هناك قصة طريفة عن الموضوع ينظر: المقريزي: كشف الغمة، ص٥٨.

(٧) الدواداري: كنز الدرر، ج٦ ص٤٥٠.

(٨) الدواداري: كنز الدرر، ج٦ ص٤٩٣.

عن طريق طرح كميات كبيرة من السيولة النقدية[١]. ثم أسس وكالات تجارية ومشاريع ذات مردودات مالية[٢]، وبلغت اهتماماته أموراً دقيقة لتخفيض الرسومات والضرائب على الأهالي، ومسامحتهم في دفع الرسوم عن طبع الموازين والعيارات، كما منع الاهالي من دفع الاموال الى المحتسبين وأعوانهم[٣]، وحذرهم من الغش والتدليس، ونودي في مصر والقاهرة بضرورة حفظ الموازين والمكاييل، وانه اذا ما وجد لدى أحد صنجة[٤] او كيل او ميزان ناقص نزلت به أشد العقوبات كائناً من كان[٥].

وعلى الرغم من بذل بعض الخلفاء الفاطميين جهوداً مخلصة لحل الأزمات التي انتابت دولتهم، إلا أنها لم تكن بالمستوى المطلوب، فعلى الرغم من إمكانياتهم المادية الكبيرة، إلا انهم كانوا يصرون على اخذ المكس من الأهالي وعلى كل شيء تقريباً[٦]، وهو ما جعل الأوضاع تسرع نحو تدهور خطير، حيث بلغ عدد المراكز التي يستوفى المكس فيها، اثنين وسبعين مركزاً[٧] فضلاً عن العشر الذي كان مفروضاً على التجارة، وكان ميناء عيذاب[٨] واحداً من ابرز مراكز الجباية[٩]، هذا فضلاً عن واردات كثيرة من معادن الارض كالزمرد والشب والنطرون والبلسان[١٠]،كما وجد الذهب بكميات كبيرة في جنوبي البلاد[١١]، هذا فضلاً عن الرسوم التي كانت الدولة تستوفيها من سك النقود[١].

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤١٧.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢ ص٦٣.

(٣) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص٢٧٧، حسن: الدولة الفاطمية، ص٦٢٠.

(٤) يزن بها الدراهم. المسبحي: اخبار مصر، ج٢ ص١٩٩.

(٥) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص٢٨٠.

(٦) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج٢ ص١١٧، حسن: الدولة الفاطمية، ص٦٠٥.

(٧) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٥٣٨-٥٣٩.

(٨) بليدة تقع على البحر الاحمر وهي ميناء تجاري لهم ترسو فيها المراكب الآتية من عدن إلى الصعيد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٣ ص٣٦٥.

(٩) خسرو: سفرنامه، ص١١٨، ماجد: نظم الفاطميين، ج٢ ص١١٨.

(١٠) العمري: مسالك الابصار، (مخطوط)، بالمجمع العلمي العراقي في بغداد، ج٣ ورقة ١٩٨-٢٠٠" القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٥٢٨-٥٢٩. والأخير نبات يستخرج منه الزيت (الباكوي: تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، موسكو، ١٩٧١، ورقة ٧٥، استخدم للتعميد لدى النصارى (العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ورقة ٢٠٠).

(١١) الاصطخري: مسالك الممالك، (القاهرة،١٩٦١) ص٤٠.

٢- الأمــن الفكــري:

حظي ترسيخ عقيدة الشيعة الإسماعيلية باهتمام بالغ، وتولى فقهاؤهم ودعاتهم وضع كتب ورسائل متعددة لتقوية مركزهم والانتصار لمذهبهم[٢]. وقد اعتمدوا في سبيل ذلك على القرآن والسنة النبوية الشريفة[٣]،وحاول المسؤولون إزاحة العاملين من غير الإسماعيلية وهو ما لم يحصل الا بصورة تدريجية حتى لا يسبب ذلك خللاً أمنياً وإدارياً في الدولة[٤] واقدم بعض الخلفاء في إحداث تغيرات من هذا القبيل بشكل ظاهري إذ أمر الخليفة الظاهر سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م بإخراج فقهاء المالكية وإحلال الشيعة مكانهم وعن طريق الخطط والبرامج المنظمة تمكن الفاطميون من فرض مذهبهم[٥].

تعرض علماء السنة إلى الاضطهاد والقمع، وقد أشار ابن واصل الى ذلك قائلاً: "ان كلمة السنة بها وان كان مجموعة فإنها مقموعة"[٦] وقد تعرض النشطاء منهم للأذى أو القتل[٧].

ولم يقتصر العمل على الفقهاء فحسب بل كان للخلفاء أيضاً دورٌ بارزٌ في الحفاظ على أمن مذهبهم، فقد كان الحاكم يتابع بنفسه الحسبة المذهبية الذي وضعت أساساً لخدمة مذهبهم[٨]، ولم يدخروا وسعاً في بذل اموال وجهود هائلة لهذا الغرض، وبثوا الدعاة في كل أصقاع العالم الاسلامي بغية التمهيد لاحراز انتصارات سياسية لاحقة[٩] وأنشأوا في القاهرة الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٥٠٦ فما بعد" ماجد: نظم الفاطميين، ج٢ ص١٢٠" حسن: الدولة الفاطمية، ص٦٢٠.

(٢) ومن ابرز فقهائهم ابو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور المعروف بابن حيوة التميمي القيرواني (ت ٣٦٦هـ) مؤلف كتاب (دعائم الاسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام)، تاريخ أبن خلكان : ج٢ ص٢١٩.

(٣) تامقريزي: أتعاظ،ج٢، ص١١٣" Shaban: Islamic History, Vol, 2,P 191.

(٤) حسن: النظم الاسلامية، (القاهرة، ١٩٦٢) ص٦٧.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١ ص٩٣.

(٦) مفرج الكروب، ج٣ ص٢٩١، المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٥٤ مع اختلاف في النص.

(٧) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٣٩.

(٨) عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، (القاهرة، ١٩٥٩) ص٣٦ نقلاً عن كتاب دعائم الإسلام، ج١ ص١٩ وما بعدها.

(٩) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٥، علي: خطط الشام، ج١ ص ص٢٣١-٢٣٢" كرونيباوم: الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية، (بغداد، ١٩٦٦) ص٢٢١.

لتصبح مؤسسة لنشر عقيدة الشيعة الإسماعيلية وتعاليمها[١]، وقد تركزت جهود الخلفاء بشكل عام على مذهبهم وإبعاد الناس عن السياسة عن طريق صرفهم الى الاشتغال بالصلوات وان لا يسأل أحد عن أحوال السلطان وأسرار الملك[٢]، أما المدارس فلم تكن موجودة في دولتهم عدا الدار التى بناها يعقوب بن كلس وزير العزيز بجانب الازهر، وكانت تقام فيه حلقة لدراسة الفقه، وقد بلغ رواده سبعة وثلاثين فقيهاً[٣]، أما دار العلم الذي كان مركزاً لداعية الشيعة الإسماعيلي[٤]، فقد انشأ سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م وعرف أيضاً بدار الحكمة[٥] وكان يتولى ادارتها طائفة من علماء الشيعة وقد حظيت بعناية كبيرة من لدن الدولة، وقد نقلت اليها عدد هائل من الكتب والمصنفات من خزائن القصر[٦]،وقام الدعاة بحِثّ الناس على حفظ كتبهم، وخصصوا مبالغ لمن يفعل ذلك[٧]، وقمعوا من يتناول غير كتبهم[٨].

بلغ تطرف بعض الخلفاء درجة وصلت إلى انهم ادعوا الألوهية، كما كانت الحالة مع الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧م مما أدى إلى استياء الأهالي من هذا الأمر وهياجهم عليه، وخرج الناس في القاهرة على شكل تظاهرات عارمة استمرت ثلاثة أيام، وقامت السلطات الأمنية فيها بغلق أبوابها بغية قمع المظاهرة[٩].

أما على الصعيد الداخلي فقد تسبب هذا الانشقاق في قلاقل أمنية كان لها أول وليس لها آخر كما يقال، ففي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م تعرضت القاهرة الى النهب والسلب[١٠] بسبب اشتداد الصراع بين النزارية

(١)Shaban: Islamic History. Vol. 2, P. 198

(٢) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٧٧.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٤١٣-٤١٤.

(٤) يأتي مرتبته بعد القاضي، ويلبس زيه ويأخذ العهد على لمن يعتنق مذهبهم، القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٥٥٨.

(٥) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٥٦.

(٦) المقريزي: م.ن،ج٢ ص١٦ من المقدمة.

(٧) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٥، كيلاني، محمد سيد: الحروب الصليبية واثرها في الادب العربي في مصر والشام)، (القاهرة، د.ت) ٩ ص٩٤.

(٨) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص٢٧٣، ج٢ ص٣٩، السخاوي: الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، (بيروت، ١٩٨٣) ص٩٤.

(٩) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص١١٣.

(١٠) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٦، حسن: النظم الاسلامية، ص ص٩٣-٩٤.

والمستعلية وعلى اثرها قتل الخليفة الآمر سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م، ثم قتل قاتلوه وذلك لطمس معالم الجريمة[١].

وكان من مضاعفات هذه الصراعات المذهبية أيضاً ذهاب هيبة الخليفة ووقوعه تحت سيطرة الوزراء، ولعل من هذه الإجراءات الحجر على الخليفة الذي كان أمراً معتاداً آنذاك والأمثلة على ذلك عديدة فقد تمكن الأفضل أبو علي من إسقاط إسماعيل بن الحافظ من ولاية العهد، فضلاً عن استحواذه على الأموال والذخائر الموجودة في القصر في القصر[٢]، ويبدو ان أعماله هذه لقيت معارضة شديدة من العامة نشأ عنها نهب للأسواق والمحلات في القاهرة[٣]، وذهب الأفضل ضحية هذه الأحداث إذ قتل سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م[٤].

ان سيطرة بعض الوزراء الذين يدينون بمذاهب تختلف عن مذهب الدولة، قد اضر بالفاطميين كثيراً، فساهم في إضعاف وحدتهم، كما وسارع في انهيارها، وكان هذا الصراع صراعاً بالسيف واللسان[٥].

٣- الأمــن الصــحي:

حظي هذا الميدان باهتمام الدولة، حيث وجدت بيمارستانات (مستشفيات) كان من أشهرها تلك الواقعة بالقرب من الجامع الأزهر[٦]، إذ تمتع الاطباء نتيجة ذلك بالرخاء المادي، وأسندت إليهم أيضا إلى جانب مهنتهم مناصب إدارية، وقد تطورت العلوم الطبية على أيديهم في الميدانين العملي والنظري[٧]، ولم تقتصر العناية الصحية بالأهالي على الأمور المتعلقة بالطب والعقاقير فحسب، بل امتدت لتشمل الوقاية من الأمراض أيضاً، وقد أولت الدولة اهتماماً بالغاً بالنظافة، حيث كانت تنظف شوارع المدن بين حين وآخر، وتكنس الطرقات، وتحفر المجاري[٨] وحظيت الأفران والمخابز أيضا

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص ص١٨٤-١٨٥.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢ ص٧٤" سرور: الدولة الفاطمية، ص١٢٠.

(٣) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٦.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢ ص٧٥" حسن: النظم الاسلامية، ص ص٩٤-٩٥.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢١٢. بيومي: قيام الدولة الايوبية، ص ص٣٦-٣٧.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤١٧.

(٧) للمزيد من المعلومات ينظر: ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، (بيروت د.ت) ص ص ٥٤٤ وما بعدها.

(٨) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٣٩.

برعاية الدولة واهتمامها بأمنها الصحي فمنعت العجن بالرِجْلِ[١]، ولهذا الأمر ما يسوغه، ففضلاً عن الأخطار الصحية الناجمة منها، فالعجن بالرِجْلِ محرم دينياً ولعل من هذه الإجراءات أيضاً منع المرضى من العمل في الأفران والمخابز[٢]، وكان تنفيذ الأوامر الصحية يقتضي التعاون بين جهازي الصّحة والشرطة، لمنع انتشار الأمراض والأوبئة، ومن مظاهر ذلك أيضاً قيام السلطات بحملات القضاء على الكلاب. وقد هدفت هذه الحملات الى خلق جو من الهدوء، ومنع الكلاب من إزعاج الناس سواء أكان ذلك بسبب الأذى او النباح[٣] وقد وردت نصوص عديدة تؤكد على إبادة الكلاب كلياً[٤].

وقد شمل الأمن الصحي أيضاً هندسة البناء وقد تفنن البناؤون في بناء العمارات السكنية العالية في القاهرة والمدن الاخرى، ويشير المقريزي الى تركهم للطوابق الأرضية لأنها لا تتوافر فيها الشروط الصحية[٥]، وقد شملت هذه الإجراءات الحمامات أيضاً حيث كانت خاضعة لقوانين صحية واجتماعية[٦] فلم يكن مسموحاً بالدخول إلى الحمام دون مئزر وكانت حشمة النساء من الأمور التي تعنى بها الدولة أيضاً، فكان كشف الوجه ممنوعاً كما كان خروجها محدداً وخاصةً في أيام الخليفة الحاكم كما منع الخليفة الظاهر خروجهن للقرافة بعد صلاة العصر[٧].

٤- الأمــن العــام

---

(١) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٥٣.

(٢) كان دخول المرضى بامراض معدية كالبرص والجرب والسل ممنوعاً الى الاماكن العامة كالحمامات، ينظر الفصل الرابع: الأمن الصحي، ص.

(٣)نهى الاسلام على تربية الكلاب، عدا كلاب الصيد والماشية (المنذري: تهذيب الترهيب والترغيب (الاردن، ١٩٩٠) مج٢ ص٣٥١.

(٤) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٥٦، ١٠٢.

(٥) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٥٣.

(٦) كان دخول المصابين بالامراض الجلدية ممنوعا الى الحمامات، وهو امر ظل متبعاً حتى العصر الايوبي، كما سيأتي الحديث عنه. ينظر الفصل الخامس الأمن الصحي.

(٧) المقريزي: م.ن، ج٢ ص١٠٣، ٥٧، ١١٠، ١٣٥.

يراد به خلق جو يسوده الأمن والسلام للطبقاتِ كافة، لاسيما الدنيا منها، لذلك فإن السلطات الحكومية وضعت إجراءات صارمة لوضع حد لازدحام الناس في الأماكن العامة، وقد كان ركوب الخيل محظوراً على عامة الناس في القاهرة، وحتى المكاريون لم يكن يسمح لهم بذلك إلا برخصة، وهو أمر نادر الحصول[1]. وألزمت السقائين بوضع غطاء على روايا الجمال والبغال، حتى لا تُدَنسُ ثياب الناس[2]. ومعظم هذه الإجراءات كانت تقع ضمن مهام المحتسب، ويلاحظ أن من الصعوبة بمكان التفرقة بين الإجراءات الصحية والاجتماعية، بسبب تداخلها مع بعضها.

أما فيما يتعلق بأمن أهل الذمة فقد أدرك الفاطميون كفاءتهم الإدارية، لذلك قاموا باستخدامهم فيها، إذ كانوا من وجهة نظرتهم أفضل من غيرهم من حيث الأمن والكفاءة[3]، وعلى الرغم من تفوق فئة من أهل الذمة وتوليهم مناصب مهمة، فإن عامتهم كانوا خاضعين لسلطة الدولة، وكان واجباً عليهم شد الزنار ولبس الغيار[4]، ومع كل هذا فقد عاشوا حياة رخاء حيث كانوا يزاولون حرفاً ومهناً راقية، كالطب، والتجارة، وكان لهم مسؤول منهم، وهذا الكلام ينطبق على اليهود والأرمن أيضاً، الذين تمتعوا بنفس الحقوق[5]. كما كانت هناك جملة أمور يمتنع على أهل الذمة فعلها منها: اختلاطهم بالمسلمين ليلاً، و النزول إلى البحر، ومنعهم من ركوب الخيل، كما كان يمنع عليهم شراء السودان والإماء، واستخدامهم المسلمين في الأعمال[6]، وعلى الرغم من هذا التضييق على أهل الذمة ومحاسبتهم فانهم لم يتورعوا عن إظهار المنكرات علناً بين حين وآخر، وقد كانوا يبالغون في ذلك أحياناً مع علمهم أنّ أفعالهم هذه محرمة في الشرع الإسلامي. وقد كانوا يُبَلّغون بهذه الاوامر بشكل يومي تقريباً عن طريق ضرب الأجراس في الشوارع والطرقات[7].

---

(١) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٥٧.

(٢) المقريزي: م.ن، ج١ ص٢٧٦.

(٣) عامر، فاطمة مصطفى: تاريخ أهل الذمة، (القاهرة ١٩٩٩) ج٢ ص٤٥٠.

(٤) هما من العلامات التي تميز اهل الذمة عن المسلمين، المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص ص٥٣، ٨١.

(٥) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٠٥" ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٢٤٤" حتى، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، بيروت ١٩٥٩، ج٢ ص٢٤٠.

(٦) المقريزي: اتعاظ، ج٢ ص٩٤.

(٧) المقريزي، م. ن، ج١ ص٢٧٢، ج٢ ص٥٣.

٥- أمن الحج:

كانت مصر مركزاً لتجمع الحجاج ولا سيما القادمون منهم من المغرب والعمل على تنظيمهم وتهيئتهم بغية أداء فريضة الحج بما يقدم لهم من تسهيلات في الوقت الذي كان أمن الحج واحداً من أولويات اهتمامات الحكومة الفاطمية، بعدّها وظيفة دينية ذات علاقة وطيدة بالخليفة كأعلى سلطة دينية، وقد استُغِلّتْ هذه الفريضة لكسب ودّ اكبر عدد ممكن من الحجاج للميل لمذهبهم، وفي الوقت نفسه كانت تعكس هيبة الدولة الفاطمية المشرفة على الحرمين الشريفين، حاول الفاطميون بشتى الطرق خلق جو من الامن والسلام في مواسم الحج فكانت السلطات المختصة جاهدةً تحاول توفير الاحتياجات الضرورية للحجاج، فضلاً عن ضمان سلامتهم داخل حدود دولتهم.

وزيادة على الفائدة المذهبية السياسية التي كانت تجنيها الدولة من هذا الفعل، فقد كانت تحصد كذلك من وراء هذا العمل فوائد اقتصادية جمة نتيجة مرور الأعداد الكبيرة من قوافل الحجاج بها، حيث بلغت قوافلهم (٦٠) ستين ألف ناقة و(٢٠٠) مائتي ألف حاج، فأوعزت السلطات الفاطمية الى جميع أمراء الاقاليم التي تمر بها تلك القوافل ضرورة تقديم تسهيلات لهم، كما عينت لهم حراساً في الطرقات التي يسلكونها لحمايتهم وكان معظمهم من العربان[1]، يبدو أن السلطات كانت تأخذ المكس من الحجاج المارين بأراضيهم[2]، وعلى الرغم من وجود الحراس، فان محاولات قطاع الطرق والقراصنة لم تتوقف في التعرض لقوافل الحجاج، وقد حدثت بين الطرفين معارك طاحنة تشبه المعارك التي تقع بين جيشين نظاميين[3].

ونظراً للظروف الصعبة التي واجهت الدولة الفاطمية فقد تعذر عليها في بعض الاحيان التأمين على حياة الحجاج وممتلكاتهم لذلك اصدرت قراراً بمنع الحج براً وبحراً[4]، ولم يتمكن الفاطميون من إحكام قبضتهم على الحجاز بشكل دائم [5].

أما فيما يتعلق بحج النصارى الى بيت المقدس بفلسطين، فلم تكن نظرة الحكومة الفاطمية اليها بأقل من أهمية الحجاج المسلمين، اذ تعامل الفاطميون مع الصليبيين على قدر كبير من المسؤولية،

---

(١) المسبحي: اخبار مصر، ص٤٣" المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص١٣٨.

(٢) متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، (القاهرة د.ت)، ج٢ ص٨٧.

(٣) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص١٦٤.

(٤) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٩٠.

(٥)Shaban: Islamic History, vol. P189

بأداء مراسيم الحج وزيارة كنيسة القيامة، شريطة ان يزوروها بشكل جماعات غير مسلحة، أما فيما يخص باعتداء الفاطميين على بعض الحجاج المسيحيين[1] فكان ذلك بسبب عدم حصولهم على الرخصة من الدولة الفاطمية من جهة، وانخراط معظمهم في صفوف الجيش الصليبي الغازي من جهة أخرى. وهو ما يفسر اشتداد الهجمات الصليبية أيام مواسم الحج وهو ما عكر صفو الأمن الإسلامي[2]، لذلك فإن محاربتهم كان أمراً مألوفاً.

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣١.

(٢) الحروب الصليبية، ج٣ ص٣٥٥" ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، (بيروت ١٩٧١)ص١٦٥، مؤنس: نور الدين محمود، ص٢٨٧.

الفصل الثاني

الاستحكامات الأمنية التي أقامها الأيوبيون في مصر

أولاً: قلعة الجبل

ثانياً: سور القاهرة

ثالثاً: أهم المراكز الأمنية في مصر

رابعاً: الاستحكامات الأمنية في مصر

يتناول هذا الفصل الاستحكامات الأمنية التي أقامها الأيوبيون في القاهرة وضواحيها من أجل الحفاظ على أمنها وسيادتها سنذكرها حسب أوليات بنائها، وهي كالآتي:

أولاً: قلعة الجبل:

أ- دوافع البناء:

امتدت رقعة الصراع الإسلامي الصليبي لتغطي فترة زمنية قاربت المائتي عام، وكانت الاستراتيجية الرئيسية المتبعة لدى الطرفين تقوم على أساس تسخير كل الطاقات والإمكانيات الممكنة وحشدها لإحراز الانتصارات، وهو ما اكسب الصراع ضراوة وشدة، وقد تبنى الطرف المعادي طريقة ناجحة أثبتت نجاحها بمرور الزمن، تمثلت ببناء عدد كبير من القلاع والحصون والمباني في الأراضي التي تم الاستيلاء عليها[1]، وهو ما ركز نفوذهم في بلاد الشام، وكانت هذه الحصون ملاذاً آمناً لهم ولعوائلهم، وللذين يلوذون بهم[2].

وقد استفاد المسلمون من هذه القلاع بعد فترة من الزمن، فتوجهت أنظارهم نحو الإكثار منها، لا في بلاد الشام فحسب، بل في جميع الأقاليم التي ترزح تحت سيطرتهم[3]، من أجل ضمان أمنهم الشخصي أولاً فضلاً عن ضمان أمن وسلامة المناطق التي استلزمت بقائهم فيها.

وجد صلاح الدين نفسه في القاهرة محاطاً بأخطار جسيمة تهدد أمن وسلامة حكومته، ولكي يضمن الأمن فيها عمد إلى بعض الأساليب الذكية لكسب ثقة أهاليها، بعد أن رأى ما أصابهم من

---

(١) سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠. عبد الجبار، محمد: عرض وثائقي لفترة صلاح الدين، المراجعة تحرير النص: ربيع عبد الرؤوف الزواوي، سيدي، العنوان/ www.canmedia.com

(٢) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص ص١٩-٢٠.

(٣) مبارك: الخطط النوفيقية، ج١ ص٦٩.

التذمر والمآسي نتيجة صراع الوزراء، وتبعات ذلك الصراع عليهم، والتي قد قام بإلغاء الضرائب السابقة لأنها كانت تثقل كاهل الأهالي، وكانت رمزاً للظلم والاستعباد، ولم يتوان في إلغائها[1].

فقد واجه صلاح الدين مشكلة عويصة، من حيث الموقع الذي احتله في القاهرة، إذ كان قائداً لجيش نور الدين زنكي ونائبه فيها، وكان في الوقت نفسه وزيراً للعاضد وهما قطبان مختلفان ، فكان عليه إرضاء الطرفين، هذا فضلاً عن الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك هنا وهناك لإذكاء نار العداوة بينه وبين سيده نور الدين، وهو ما تطلب من صلاح الدين تعاملاً خاصاً مع هذا الوضع، برزت خلاله مهارته الفائقة وعقليته الفذة، فاستطاع ان يرضي الطرفين ويحافظ على توازن القوى في المنطقة[2].

وبعد زوال الأخطار، وانفراد صلاح الدين بحكم القاهرة، نذر نفسه للجهاد في سبيل الله، وقد قضى معظم حياته فيه، وطوال السنوات الأربع والعشرين التي قضاها في الحكم[3]، والتي قضى خمساً منها كوال لنور الدين في القاهرة ولم يتجاوز مدة مقامه في القاهرة اكثر من ثماني سنوات، أما الأعوام الباقية فقد أمضاها مجاهداً في الشام والجزيرة الفراتية وفلسطين[4]. وكان صلاح الدين مجاهداً في سبيل الله، ذاع صيته وانتشرت أخباره، وقد وجد بان ذلك يستلزم منه ترك القاهرة، والتوجه صوب ساحات القتال لملاقات الصليبيين الطامعين في ارض الإسلام والعبث بأمنها، ولم يكن يؤمن على حكومته ان تترك في القاهرة دون حماية، لاسيما بعد ان تحولت الاستراتيجية العسكرية الصليبية الى التركيز على القاهرة، حيث مثلت الطريق للوصول إلى القدس في الآونة الاخيرة، لذا فقد أولى أمن القاهرة عناية كبيرة، فرأى أن يبني قلعة يحتمي فيها جيشه وأنصاره وأهله وذويه[5] ويأمن عليهم جميعاً، وواقع الأمر كان صلاح الدين قد تنبه منذ الوهلة الأولى إلى ضرورة إحكام دفاعات القاهرة واستحداث

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين، ج١ ص٣٢٠، ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، (بيروت ١٩١٨) ص٢١٥. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة الأوقاف في الموصل، ورقة ١٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩ ص١٠٢. وقد فوضة الخلافة العباسية لنور الدين زنكي ولاية ديار مصر منذ تولية الفائز (٥٤٩-٥٥٥هـ) لكن لم تتسنى له الظروف آنذاك ان يسير اليها. ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص١٤٧. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، (القاهرة، ١٩٨٥) ج٢ ص١٦.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٨.

(٥) كريزويل: وصف قلعة الجبل، ص٣٢، كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٣٢، بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، (بيروت ١٩٧٧) ص٣٦٠.

استحكامات أمنية مشددة، وهي طبعاً جزءٌ لا يتجزأ من العملية الجهادية ومكمل لها، وقد تعرض في الوقت نفسه إلى سلسلة خطيرة من المؤامرات استهدفته شخصياً، كما استهدفت حكومته[1]، كما انه كان على علم بأخبار الفرنج وتحركاتهم وطموحاتهم وآمالهم التي لا تنقطع بامتلاك القاهرة، بعد ان تلمسوا ما لهذه الديار من الأهمية في جميع النواحي[2]، وفضلاً عن كل ذلك فان الأعمال العمرانية العظيمة تعكس عظمة بانيها، وهي بمثابة الأثار التي تخلد ذكراهم، لذلك فان هذه الحقيقة تضاف الى حاجة القاهرة الى القلعة، وقد أشاد الشعراء بعظمة هذا البناء ومنه قول أحد الشعراء:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم[3]

وكذلك فان القلاع كما قيل: "أنوف مَنْ جمَلَها شَمَخَ بِها"[4]، وأصحاب القلاع هم أكثر عزاً من أصحاب المدن على الرغم من كونهم اكثر مالاً[5].

يبدو ان صلاح الدين قد تهيأت له ظروف ملائمة لكي يحقق ما يجيش بصدره على ارض الواقع وقد اشار كاتبه عماد الدين إلى ذلك الصدد قائلاً: "وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم"[6] واسند أمرها إلى مملوك له عُرف بقراقوش الاسدي[7]، وبدأ العمل فيها سنة

(١) ينظر الحركات المعارضة: ص

(٢) كريزويل: وصف قلعة الجبل، ص١٤.

(٣) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٣.

(٤) البنداري: سناء البرق الشامي، ج١ ص٢٨٠.

(٥) ابو شامة: الروضتين، ج١، ص١٥٣" ابن الاثير: الباهر، ص١٣٧.

(٦) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، (القاهرة ١٩٧٦) ص٢٠٩، البرق الشامي، (عمان ١٩٨٧) ج١ ص٢٣٩، ابو الفدا: المختصر في اخبار البشر، (القاهرة د.ت)، ج٣، ص٥٩.

(٧) هو الامير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الاسدي (ت ٥٩٧هـ) الذي نسب اليه حارة بهاء الدين في القاهرة، نال ثقة صلاح الدين وصار من اكابر خدام القصر، (العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٢٩ هامش رقم (١)" ابن خلكان:

٥٧٢هـ/١١٧٦م[1]، يعد مشروعه هذا من اضخم المشروعات العسكرية العمرانية في القرون الوسطى الاسلامية، ومن الأعمال الدفاعية العظيمة، ولم يغب عن بال السلطان اختيار المكان الملائم صحياً، إذ علق اللحم في القاهرة ثم تغير شكله وطعمه بعد يوم، وعلق قطعة أخرى على جبل المقطم[2] فتغير بعد يومين[3]، فوقع اختياره على المكان الثاني منهما، وقد استوجب بناؤها استملاك مساحة من الأراضي والبنايات، شملت عدة مساجد، منها: مسجد سعد لدولة، ومسجد عز الدولة، ومسجد مقدم عليا بن عليان من بني بويه، ومسجد العدة، ومسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن، ومسجد قسطة[4] وكذلك بعض الاهرامات الصغيرة بالجيزة للاستفادة من أحجارها[5]، وكان السلطان قد اختار المكان المناسب استراتيجياً أيضاً حيث كان مشرفاً على القاهرة، وقد أصبحت القلعة مقراً للدولة[6]، والكتابة المنقوشة على باب الدرج تثبت بلا شك أن القيام ببناء القلعة كان في أيام السلطان نفسه، ونص الكتابة هو: "بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة، التي جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى ظل مكة تحصيناً مولانا الملك صلاح الدنيا والدين أبو المظفر بن ايوب، محي دولة أمير المؤمنين على يد أمير مملكته، ومعين دولته قرقوش بن عبد الله المالكي

وفيات الأعيان، ج٤، ص ص٩١-٩٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ص١٧٦-١٧٧) وقد نسب اليه احكام خرافية في كتاب الف عنه من قبل الاسعد بن مماتي (ت ٥٩٦هـ/) عرف بـ (القاشوش في أحكام قرقوش). الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٢٧٠.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ص٥٣-٥٤" ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٣١ ذكر ذلك في احداث ٥٧٣، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٥١، الذهبي: العبر، (بيروت، ١٩٨٥) ج٣ ص٦١.

(٢) زكي: القاهرة تاريخها وآثارها، ص٦٥. سمي بذلك لجدبها وعدم وجود النباتات والاشجار فيها (القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٣٤٠-٣٤١) او ربما نسب الى مقطم الكاهن الذي كان مقيماً فيه لعمل الكيمياء (الحميري: الروض المعطار، بيروت ١٩٨٠، ص٥٥٧..

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٣.

(٤) المقريزي: م.ن،ج٢ ص ص٢٠٢-٢٠٣.

(٥) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٢١، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٦٩، زكي: قلعة صلاح الدين، ص٣٤، لقد اقترف الايوبيين وحسب ظني خطأً كبيراً في استخدام أحجار الاهرامات لبناء القلاع والاسوار لان الحفاظ على الاثار وحمايتها من واجبات السلطات الحاكمة.

(٦) لجنة من المؤلفين: الموسوعة: عربية عالمية مصورة بالألوان، (سويسرا ١٩٨٥) مج١١ ص١٨٥٣.

القاهري سنة تسعة وسبعين وخمسمائة"[١] ا في عام ١١٨٣-١١٨٤م، وحسب اعتقاد صاحب الكتابة فإن الجزء الأكبر من البناء قد تم عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م[٢]، يبدو ان المشروع كان ضخماً لدرجة لم يتمكن السلطان من إكماله، أو لعله كان منشغلاً بأمور الجهاد، ولكن خلفاؤه وبقدر ما تسنى لهم من الوقت والمال لم يدخروا وسعاً في إكماله وإضافة استحكامات جديدة إليه، وعلى سبيل المثال أكل الملك الكامل اكمل البرج الأحمر سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م[٣] فضلاً عن بعض الادر والمناظر والمتنزهات والحمامات وغيرها[٤]، ويبدو ان أبناء صلاح الدين قد سكنوها بعض الوقت ومنهم ابنه العزيز وحفيده المنصور، ثم انتقلوا منها فيما بعد الى دار الوزارة، وأول من سكنها بشكل دائم هو الملك العادل[٥]، ثم الكامل، وقد نقل إليها معه أولاد العاضد وأقاربه، وخصص لهم بيتاً للإيواء، وظلوا فيها حتى عام ٦٧١هـ-١٢٠٠[٦].

ان الاهتمام المتزايد ببناء هذه القلعة كان تعبيراً صادقاً عن شدة الاهتمام بالقاهرة التي كانت القلعة تمثل فيما بعد قلبها النابض، ويتجسد هذا الاهتمام بهندستها المعمارية من نحت الاحجار وعمل آلاتها، وعلى الرغم من تسمية علم الهندسة بعلم الحيل، الا انه كان من العلوم المتقدمة لاقى اهتماماً ملحوظاً في العصر الايوبي، وبرز من الملوك الايوبيين مهندسون بارزون، اذ كان الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين نموذجاً بارزاً لهؤلاء المهندسين الماهرين[٧]، وقد استخدمت أعداد كبيرة من الاسرى في هذا العمل، إذ بلغ عددهم ما يقارب الخمسين ألف[٨]، واستمر العمل في بناء القلعة طوال

---

(١) زكي: القاهرة تاريخها واثارها، ص٦٥.

(٢) انفرد الدواداري بذكر بدء البناء سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، كنز الدرر، ج٧ ص٦٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٥٠، الخطط، ج٢ ص٢٠٤، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧٤، زكي: قلعة صلاح الدين، (القاهرة ١٩٦٠) ص٣٤.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٦٤.

(٥) العمري: مسالك الابصار، ج٣ ص٢٠٣" السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٩. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٧.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٢٢، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٦٩" ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٧، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧٤.

(٧) ابو شامة: ذيل الروضتين، (بيروت ١٩٧٤) ص٢٩٣، ابو الفدا: المختصر في اخبار البشر، ج٣ ص٧٤.

(٨) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٤، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧٠.

حياة صلاح الدين دون أن يتم الانتهاء من بنائها[١]، وعلى الرغم من ذلك فان البناء قد اكمل في زمن يسير[٢]، ويعد الوقت الذي بنيت فيه القلعة قياسياً اذا ما قارناه بمساحة القلعة وحجم العمل فيها. ومن الذين شاهدوها الرحالة ابن حبير وقد وصفها عند حديثه عنها بأنها: "حصن حصين المنعة"[٣].

حظيت القاهرة باهتمام متزايد من لدن الملوك الأيوبيين، ولم يكن يغادرها صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م حتى اصبحت قاعدة لتدريب الجند وإعدادهم وتقويتهم، وأصبحت معسكراً خلفياً لامداد جبهات القتال بالمقاتلين والعدد[٤]، كما كانت في الوقت نفسه مكاناً آمناً لإرسال الجرحى والأسرى بعد إخلائهم من ارض المعركة[٥]. وتبين لنا من خلال دراسة ذلك العصر، ان وجود القلاع كان له اثر كبير في رفع معنويات الجيش والأهالي، بما يؤمنه من المستلزمات التي تحتاجها الجبهة، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فقد كان للاطمئنان النفسي الذي أحدثته هذه القلاع دور كبير في مجريات الأحداث، فكان الملك الكامل كلما عاد من مكان ودخل القلعة تنفس الصعداء، وقال مرة عند عودته من الشرق ودخوله فيها: "رأيت روحي في قلعتي"[٦]، وهذا التعبير في الحقيقية يدل على مدى الاطمئنان الذي أحس به الكامل، وهو في داخل قلعته، نظراً لوجود كل المستلزمات الأمنية والترفيهية فيها.

ذكرت بعض المصادر التاريخية ان حواراً جرى بين صلاح الدين وأخيه العادل بصدد بناء القلعة اذ قال الأول منهما: "هذه القلعة بنيت لأولادك، فثقل ذلك على العادل، وعرف السلطان صلاح الدين ذلك منه، فقال لم تفهم عني، إنما أردت أنا نجيب، فلا يكون لي أولاد نجباء، وأنت غير نجيب فيكون أولادك نجباء، فسرى عنه"[٧].

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٢١، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٦٩، زكي: قلعة صلاح الدين، ص٣٤.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٤.

(٣) الرحلة: ص٢٤.

(٤) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص١٥٤.

(٥) العماد الاصفهاني: م. ن، ج٥ ص٧٥، ابن واصل" مفرج الكروب، ج٥ ص٣٣٩" قلعجي: صلاح الدين، (القاهرة ١٩٧٩) ص٣١١.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق٢ ص٧٠٠.

(٧) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٢٢، المقريزي: الخطط، ج٢ ص ص٢٠٣-٢٠٤، عرف عن صلاح الدين من الصفات الحميدة، ولا نجد من المصادر المقربة اليه ما يوحي عنه تجاوزه على الناس لاسيما اقرب المقربين اليه، علماً

ب- محتويات القلعة وأقسامها:

احتوت القلعة على المؤسسات التي كانت تدير أمور ديار مصر، فخطط لكل فئة مكاناً خاصاً يتناسب مع عملها واداء واجبها، فالقلعة التحتية كانت مكاناً للحكام والقادة والافراد الذين يقومون بادارة الدولة[1]، وقد وفرت لهم ما يحتاجون اليه من مستلزمات من الاسواق والحوانيت والمساجد، والمقيم فيها لا يحتاج الى احد لمدة طويلة[2]، واصبحت في الوقت نفسه مأوى المماليك الذين جلبوا للانخراط في صفوف المقاتلين، ومنعوا من الدخول والخروج إليها إلا لضرورات قصوى، وهو ما قلل احتمال إخلالهم بالامن، لاسيما قيامهم بالاعتداء على الاهالي، وقد يتعرضون الى التأديب من قبل السلطان بين حين واخر لارتكابهم المخالفات[3].

أما فيما يتعلق بمحتويات القلعة، فقد شكلت المياه عنصراً مهماً من عناصر امنها، حيث ان توفرها يؤمن للقاطنين فيها جانباً مهماً من المستلزمات الضرورية، ولهذا الغرض فقد حفر قراقوش بئراً حلزونياً لتوفير المياه داخل القلعة، ليستفيد منه الاهالي خاصة أيام الحصار[4]، فضلاً عن ذلك فان القلعة احتوت على ابراج ودهاليز، مما أضفى عليها متانة وقوة، وكانت مبنية على صخور شديدة الانحدار، مما جعل مهمة تسلق جدرانها شيئاً صعباً، وفي الأماكن التي كان يقل فيها الانحدار جعلت أراضيها الخارجية بشكل لا يساعد على استخدام السلالم عليها، اذ كانت تمثل خنادق وأراض غير مستوية، وحتى استخدام المقالع، لقذف الصخور على الجدران او حفرها لاحداث ثقوب فيها فقد كانت

انه كان يشاوره في الامور العظام، وقد قال العماد الاصفهاني: (ان مجالسه كانت منزهة من الهزل، وما سمعت منه قط كلمة تسقط، ولا زلة لسان)، (الفتح القسي، ص٦٥٦هـ).

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية، (بيروت ١٩٦٧) ج٣ ص٦٣١.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٥، الظاهري: زبدة كشف الممالك، (باريس ١٨٩٤) ص٣٦.

(٣) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٧٠.

(٤) وبئر القلعة عرف ببئر يوسف، وهو عبارة عن بئرين احدهما فوق الثاني، يسحب الماء من البئر الاول للثاني، ثم يحول الى الخارج، ومجموع عمق البئرين نحو تسعين متراً، وجميعه نقر من الحجر، وزمن صعود القادوس اربع دقائق وثلث وزمن سقوط حجر من الاعلى الى قعرها خمسون ثانية، ودرجة حرارة مائها مساوية لدرجة حرارة المتوسط في مدينة القاهرة، واقل باربع درجات من درجة حرارة قاع بئر الاهرام، ومستوى مائها تحت مستوى مخاريق النيل، ومائها مالح قليلاً، (مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧٠).

غير ممكنة، ومع ذلك فقد كانت الاخيرة من أهم الأخطار التي تهدد أمن القلاع، وقد أمن ذلك باستخدام صخور يستحيل ثقبها[1]. ويقال ان قلعة الجبل كانت على النمط البيزنطي[2]، اذ بنيت أبراجها بشكل محكم، غلب عليها الشكل المستدير وليس المستطيل، لان الأول اثبت مقاومته اكثر من الثاني، والابراج ف الحقيقة بناء منعزل كالحصن او القلعة، وتشكل جزءاً مهماً من تحصينات الاسوار[3]،وتكمن أهمية الأبراج في الرصد والمراقبة، حيث كانت توضع عليها مصابيح مليئة بالزيت، لها أغطية شفافة للحفاظ عليها، وقد أفادت هذه المصابيح باضاءة مساحات شاسعة من الأرض المجاورة لها، وبشكل جيد مما يساعد الحراس والعسس على القيام بواجباتهم على اكمل وجه[4] بحيث كان لكل برج مساحة معينة ومسؤولية خاصة، وعليهم إخبار مسؤول القلعة عند رصد اية حركة معادية، واستخدم الحمام لهذا الغرض، وكان يوجد في كل برج حمام، وقد اخذ الناس حذرهم، لئلا يقعوا في مكيدة العدو[5].

ويبدو ان الأبراج قد استغلت لأغراض أخرى عديدة منها التعليمية، إذ كان العلماء والفقهاء قد ألقوا فيها المحاضرات على طلابهم[6]، فضلاً عن استخدامها كسجن بشكل شائع[7]، وقد كان يتوسط القلاع برج عال، سمي بالقلة[8]، وتقع أعلى قمة في القلعة، وتتعلق به آمال أفراد القلعة في الأوقات الحرجة والشدائد، وهي بمثابة قلعة داخل قلعة[9]، وقد حاول تورانشاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م عندما طارده المماليك ان يتشبث بقلة برج للخلاص فلم يحالفه الحظ[10]، ومن أقسام القلعة ما يعرف بالبدنات

---

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية، (بيروت ١٩٦٧) ج٣ ص٦٣٢-٦٣٣.

(٢) سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص١٠٦.

(٣) رنسيمان: م.ن الحروب الصليبية، (بيروت ١٩٦٧) ج٣ ص٦٣٢، كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٤٤.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣ ص٣٥٥.

(٥) ابن الاثير: الباهر، ص١٧١.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطاني، ص٩، ابن دقماق: الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، ج٢ ص١١٤.

(٧) ينظر امن الاسرى والسجناء، ص ----

(٨) والقلة لغة أعلى الرأس في الشيء (قاموس منجد الطلاب، بيروت ١٩٥٦، ص٦٠٨).

(٩) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٢٢٤.

(١٠) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق٢ ص٧٨١، الذهبي: العبر، ج٣ ص٢٦١" العيني: عقد الجمان،(القاهرة، ١٩٨٧) ص٢٢.

وهي أقسام قوية وبارزة مشابهة للبرج ومتصلة بالاسوار[١]، وعلى العموم فان بناء القلاع في تلك الفترات كانت تمثل عصارة الفكر الهندسي العسكري لديهم لغرض الصمود بوجه العدو وتقاوم ضرباته أطول فترة ممكنة.

أما أبواب القلعة، فكانت منافذ او نقاط يحاول العدو فتحها أو اقتحامها قبل أي منطقة اخرى، وكان ذلك واضحاً للحسابات العسكرية والامنية، لذلك فان الاهتمام بصنع الأبواب وإحكامها كان أيضاً واحداً من نتائج التطور الفكري والصناعي، حتى لا يمكن فتحها أو كسرها أو حرقها.

لقد استلزم أمن الأبواب الحراسة الجيدة فضلاً عن التمعن في احكام صنعها من المواد التي تقاوم التأثير عليها، وكانت أبواب القلعة والسور مصفحة بالحديد، ان صناعة أبواب القلاع كانت متطورة جداً[٢]، وعلاوة على ذلك فان الإجراءات الأمنية كانت دقيقة، فلم يكن من السهولة الدخول والخروج الا لمن كانت له حاجة ماسة تقتضي ذلك، ويعزى اتخاذ هذه الإجراءات الأمنية المشددة للحيلولة دون دخول او تسلل من يبغي شراً بالقلعة أو يطلع على أسرارها. ويبدو ان الداخل الى القلعة كان يسمح له قصد المكان الذي يريده فقط، دون ان يتمكن من التجوال داخلها كيفما شاء، لأنها كانت بمثابة قلب العاصمة ورمز قوتها فهي مسكن السلطان ومقر إدارته[٣].وكان في قلعة الجبل أبواب عدة منها باب المدرج الذي كان يمتد بمحاذاة سور القلعة بمسافة خمسين متراً، ويؤدي المرور فيه الى برج واسع ومن ثم يصل الى داخل القلعة، وعلى الداخلين الصعود الى سلم موجود ثم يعبر البرج، وكانت القلاع زمن صلاح الدين قد بنيت بهذا الشكل ونظراً لصعوبة المرور وكثرة نقاط المراقبة والتعرجات الموجودة بدأ التفكير بازالة هذه العوائق، وكان الهدف من المرور في هذا الباب الدخول الى الجناح العسكري[٤].

وعلى الرغم من قوة وصلابة الأبواب وإحكام صنعها، فان أصحاب القلاع قد أقاموا باشورة[٥] لتحقيق مزيد من الامن لابواب القلاع[١]، اذ كان في كل باب عطف حتى يصعب الهجوم منه وقت

---

(١) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٤٥.

(٢) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٣٦، ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٦.

(٣) العمري: المصطلح الشريف، (بيروت ١٩٨٦) ص١٨٨.

(٤) كازانوفا: م.ن، ص٩٠.

(٥) بناء ذو منعطفات تقع أمام أو خلف الباب لتعويق هجوم العساكر على الباب وقت الحصار لمنع دخول الخيول دفعة واحدة (المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٨٠، هامش رقم (٣)، او هي عبارة عن الحائط الظاهري للحصن الذي يتحصن وراءه الجند للقتال، دوزي، (بغداد ١٩٨٠) باشورة.

الحصار، وكذلك عمل زلاقة من حجارة الصوان على الابواب حتى يتعذر على الخيول دخول القلعة بالجملة، لانها لا تساعد على تثبيت قوائم الخيل، وقد هدم الملك الكامل تلك الزلاقة بسبب وقوعه عليها[٢]. ومن الاصول المتبعة الانتظار في الصالة العائدة للباب، حتى يتسنى للمراجعين الدخول[٣]، وكما سبقت الاشارة فان الابواب المتواجدة في القلعة تتفاوت من حيث أهميتها وخصوصيتها فباب السر –على سبيل المثال- مخصوص لدخول وخروج أكابر الامراء وخواص الدولة ومن هم برتبة وزير وكاتب السر ومَن في مستواهم، ويبدأ هذا الباب من الصوة وهي من المرتفعات التي بنيت عليها القلعة وتميز من جانب جدارها البحري الذي يمتد الى مقابل الايوان الكبير، وفيها يجلس السلطان ايام المواكب، ويفتح هذا الباب عند الدخول ويغلق بعده[٤]، ولا يدخل من هذا الباب الا من يعرف كلمة السر، التي كانت ترسل يومياً، وكان السلاطين شديدي الحرص على تنفيذ التعليمات بشكل قانوني ومنتظم[٥].

ويبدو ان اختراق باب واحد لا يكفي للوصول إلى الهدف المنشود، لان القلعة اتصفت بتداخل الابواب، فباب القلعة الذي يؤدي الى دهاليز فسيحة ومنه باب يدخل الى جامع الخطبة –الجامع الحاكمي- ومنه -أي بعد الجامع- يصل الى باب السفارة ودور الحريم السلطانية وهناك باب من جهة القرافة لكنه باب قليل الاستخدام[٦]، ويحتمل ان يكون كمنفذ للهرب اذا ما تعرضت القلعة الى الهجوم واحتمال سقوطها بايدي العدو[٧].

ج- صاحب القلعة:

كان أمن القلعة مهماً جداً بنظر الحكومة، وبناءاً على ذلك فقد عين للقلعة وال، وكان يعين بمراسيم خاصة له ولنوابه، وتحدد بموجبها الحقوق والواجبات[٨]، ويقع على عاتقه كشف القلعة وبيان ما

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص١٥٠.

(٢) المقريزي: الخطط، ١٢ ص٣٨٠.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٤٢٣-٤٢٤.

(٤) القلقشندي: م.ن، ج٣ ص٤٢٣" كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٦٣.

(٥) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٦٧، وما يزال الدخول الى المعسكرات ليلاً أمراً ممنوعاً إلا بعد ترديد كلمة السر.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٢٤.

(٧) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٧٠.

(٨) العمري: المصطلح الشريف، ص١٨٨.

تحتاجه من التجديد والاعمار من المباني، وإقامة المجانيق اللازمة لها[1]. وواليها هو أمير طبلخاناه، وهو المسؤول المباشر عن باب، وهو الباب المباشر للقاهرة الى المدرج، وهو يعين بالباب والياً خاصاً برتبة أمير عشرة، وله صلاحيات والي القلعة[2]. وفي الباب الرئيسي يجلس والي القلعة بشكل رسمي، وتدق الخليلية قبل المغرب[3]، وفيما يتعلق بأوقات فتح باب القلعة وغلقه، فان ابوابها كانت بشكل عام تفتح بشمس وتغلق بشمس[4].

ان وقوع حصار ضد القلعة كان من الأمور البديهية لدى السلطات الحاكمة، حيث ان تهيئة المستلزمات في داخلها كان ضرورياً، لذلك قاموا بخزن المواد فيها بكميات كبيرة لتكفيهم لفترة طويلة وهو ما كان أمراً طبيعياً، مدة عشر سنوات، وقد يعود خزن المواد إلى أسباب أمنية خوفاً من الانتفاضات الداخلية والاضطرابات الأمنية التي تنشب، لاسيما بسبب الأزمات الاقتصادية، فالقلاع تكون بمثابة مستودع للغلال والمؤن[5]، واذا ما تعرضت الى الحصار فان المحاصرين بإمكانهم الاعتماد على ما لديهم من المخزون للمقاومة اطول فترة ممكنة، وكان من سياسة الزنكيين شحن القلاع بمؤن تكفيهم تقريباً لعشر سنوات[6]، أما فيما يتعلق بالماء فإن الآبار كانت مصادر مهمة لتوفير ذلك فضلاً عن الصهاريج التي تجمع فيها المياه أيام الأمطار، ولقد برع المهندسون في استخراج المياه الباطنية والاستفادة من مياه الأمطار، وكان لوجود الماء دور بارز في مقاومة القلعة ووقوفها بوجه الأعداء او سقوط القلعة بيد الاعداء[7].

وكما سبقت الإشارة إلى أهمية القلعة باعتبارها المركز الرئيسي للقاهرة، ومأوى الحكومة والطبقات العليا فضلاً عن أصحاب الحرف والصناعات للمحافظة على امنهم، لذلك وجب على والي القلعة السهر ليل نهار، فالواجب الرسمي يحتم عليه تفقدها كل صباح ومساء كما كان عليه الأشراف

---

(١) العمري: م.ن ص١٣٣.

(٢) ابن الاثير: الباهر، ص١٠٣.

(٣) النويري: الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام، ج٤ ص٢٠٤" كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٧٨.

(٤) العمري: المصطلح الشريف، ص١٨٨.

(٥) ابن الاثير: الباهر، ص١٠٣.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٢٤" المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٤.

(٧) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣ ص٦٣٢.

المباشر على تنصيب الحراس والعسس لتقصي أخبار الاعداء المجاورين ان وجدوا، والتأكيد على سلامة جهاز البريد المتمثل بالحمام بصورة وثيقة ودائمة[1].

د- المآخذ التي وجهت إلى موقع بناء القلعة:

تمثل قلعة الجبل آية من آيات الإبداع للهندسة العسكرية في القرون الوسطى، تعتبر صرحاً عالياً وشامخاً، وقلعة حصينة جداً، وعلى الرغم من أنها لم تتعرض لحادث تختبر فيه في أداء دورها كدفاع حصين جداً[2]، فان العسكريين والاستراتيجيين وبعد ان أمعنوا النظر فيها، وجدوا أنها اختيار غير موفق، لان باستطاعة العدو إذا ما أراد أن يخترقها وخصوصاً من جهة الجبل المقطم، أما من جهة القاهرة فكانت محصنة، لان الصخور وعرة ويصعب تسلقها، وتتميز بالقوة والحصانة من الشمال والغرب، والناظر منها الى القاهرة يجدها امامه بأبهي مناظرها[3]، لان الجبل الذي بنيت عليه القلعة يطل على القاهرة من عدّة جهات وكان بُعد القلعة عن الاحياء السكنية المجاورة أمراً يصعب إمدادها بالمؤن واذا تمكن العدو من احتلال الشرق المقابل لها فانه يستطيع ان يعزلها عزلاً تاماً عن بقية المقطم بواسطة حفر خندق عميق حول الشرق، لعزله عن بقية اجزائها لتتم السيطرة عليها بسهولة ويسر[4].

ان اختيار مكان القلعة لم يكن اعتباطاً، ب قامت على أمور استراتيجية وصحية، لكن الاعتبار الأول كان هو الأهم ولا يستبعد ان يكون المهندسون قد اطلعوا على نقاط الضعف فيها، ولكن جغرافية القاهرة ربما حتمت عليهم ان يختاروا هذا المكان حصراً، لان أهداف البناء كانت عديدة، منها كما سبقت الاشارة تأمين مأوى للحكومة الايوبية، والأشراف على مدينة القاهرة والاطلاع ميدانياً على أحوالها، وقد يصعب على الأعداء السيطرة على القاهرة ما دامت القلعة قائمة لما تسببه لهم من المشاكل وقد يكون العيش تحت نقمة الدفاعات المنظمة داخل القلعة صعباً، فضلاً عن ما أفضت إليه الأوضاع الأمنية من الاستقرار بفضل القلعة وعزوف الاعداء والمشاغبين من الإقدام على الإخلال

---

(١) العمري: المصطلح الشريف، ص١٨٨.

(٢) المقصود هنا هي الهجمات الصليبية وليس غيرها، لأن الملك الصالح نجم الدين كان قد استولى عليها بسهولة ويسر (المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٧).

(٣) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٨٨.

(٤) كازانوفا: م. ن، ص ص٦٧-٦٨.

بالأمن أو ربما يكون من السهل الوصول إلى القاهرة وإنجاز ما يمكن إنجازه، ولكن الوصول الى القلعة وتحقيق مكاسب فيها امر صعب جداً بل ومستحيل نظراً للاحتياطات والضوابط الامنية الدقيقة فيها. ومهما يقال فان القلعة أصبحت مركزاً للحكومات التي أعقبت الايوبيين[1] فلو كانت تفتقر الى الضوابط الامنية والاستراتيجية، لما اتخذها الآخرون مقراً لهم بالمعيار الاستراتيجي آنذاك.

أما قياس الأمر بالمعايير الحالية بعد اختراع الأسلحة الحديثة، فالأمر مختلف تماماً، فبعد ان كانت قمم الجبال هي الملاذ الامن، اصبح باطن الأرض بديلاً أمنياً عنها. ويجب ان لا يغيب عن البال، بان أقوى الاستحكامات الأمنية قد اخترقت أمام إرادة الإنسان وإصراره على تدميرها، فقد تصور الأمريكان ان بيرل هاربر لا يمكن اختراقه[2] كما كان للفرنسيين التصور نفسه فيما يتعلق بخط ماجينو العسكري[3] وكان لاسرائيل نفس الاعتقاد فيما يتعلق بخط بارليف، وتهاوت هذه الاستحكامات الواحدة تلو الاخرى بشكل اصبح من الصعب تأمين الحياة بالاعتماد على الشبكات الدفاعية، والمثال الاخير هو اصدق تعبير عن إمكانية الانسان في الوصول الى قلب الهدف الذي تمثل بالهجوم على مبنيي التجارة العالميين في الولايات المتحدة التي كانت تتصور بان اقامة الشبكات المضادة للصواريخ يبعد الخطر عن بلادها، ويؤمن الحياة فيها، وسرعان ما اصيبوا بخيبة امل لفشل درعهم الواقي في الحفاظ على امنهم القومي. وعلى اية حال فان صلاح الدين قد افلح في مسعاه في فرض الامن سواء كان عبر الاستحكامات الامنية أو غيرها.

ثانياً: ســـور القاهـــرة

أ- دوافع البناء:

المدينة المسورة: "وهي مدينة تصرف عنها العين، وتصرف فيها العين، وقد أضحت غرة في وجه الدهماء، وأمست في الارض اخت البلدة التي في السماء، قد شد بالسور على خصرها النطاق وطلع بها طالع الا نجم النفاق، ذات أزقة وسيعة وادور فيها لمنازل الاقمار وديعة قد فضلت منطقتها بالبروج،

(١) مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٧.

(٢) مجموعة من المؤلفين: الموسوعة السياسية، تحرير وإشراف: د. سفر عبد الوهاب الكيالي، كامل زهير، (بيروت، ١٩٧٤) ص١٣٥، كان ذلك في ديسمبر ١٩٤١.

(٣) مجموعة من المؤلفين: م. ن، ص١٠٨.

وفضلت على كل بلد حظ ساكنها منها الخروج"[1]. ويتبين من هذا النص، ان الاسوار كانت باهظة التكاليف، لكنها مع ذلك تمنح البلدة أمناً واستقراراً، وتقيها من الاخطار، وتصمد أمام ضربات الاعداء، وقد أعطى ارتفاع السور للقاهرة ميزة دفاعية تتمثل بصعوبة النيل منها، وفي الوقت نفسه حوت بين جدرانها الاحياء والمحلات السكنية، وانتشرت عليها البروج الكثيرة،وقد تفاعلت كل هذه المكونات لتظهر منظراً رائعاً من الناحية الجمالية، وجداراً امنياً من يسكن داخله فضلاً عن الساكن بجوارها.

وفي رواية ابن أبي طي، ان صلاح الدين بدأ بالاعمال الدفاعية بعد مضي عامين من تسلمه منصب وزارة العاضد الفاطمي، والبداية الواضحة لاهتماماته الامنية في القاهرة بدأت منذ سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، عندما امر بترميم سور القاهرة، حيث كان قد تهدم، واصبح غير قادر على منع دخول وخروج الناس[2]. يبدو ان مشروعه هذا كان يناسب مكانته كوزير، لكنه ما لبث ان فكر في تنفيذ مشروع أكثر ضخامة بعد دخوله القاهرة في ٢٨ ربيع الاول سنة ٥٧٢هـ/٢٢ سبتمبر ١١٧٦م[3]، وكان المشروع من المشاريع العمرانية الضخمة جداً آنذاك وتضمن بناء سور حول مصر والقاهرة والقلعة، وقد اسند امر بنائه الى قراقوش الاسدي كما فعل مع القلعة وقد بدأ بالتنفيذ الفعلي لبناء السور حال تسلمه الامر[4].

يبدو ان الأسباب التي دعت السلطان للقيام بهذا العمل تعود لعدة امور، منها: امتلاكه الاموال الكافية وشعوره بزوال بعض الأخطار التي كان يشعر بها[5]، لاسيما بعد ان اطمأن الى الطائفة الإسماعيلية في بلاد الشام، بعد شفاعة خاله شهاب الدين الحارمي في التوسط بين الطرفين ومصالحتهم[6] ليتوجه بعد ذلك الى القاهرة سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، ومن ثم بدأ العمل بالمشروع.

(١) العمري: المصطلح الشريف، ص٣١٦.

(٢) ابو شامة: الروضتين، ج١ ص١٩٢، ج٢ ص ص١٥-١٦" كريزويل: وصف قلعة الجبل، ص١٠.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، (دمشق ١٩٧٩) ص٥٢.

(٤) العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ورقة ٦٩، الذهبي: العبر، ج٣ ص٦١، المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٣٣" الباكوي: تلخيص الآثار، ورقة ٦٧.

(٥) O'clery, Helen: The pegasus book of Egypt, London, 1968,p.32.

(٦) الحموي: تاريخ المنصوري، (موسكو ١٩٦٠) ص١٨٨.

ب- حجم المشروع وقياساته :

وفيما يتعلق بحجم المشروع وقياساته، فقد بلغ طول السور (٢٩٣٠٢)[1] ذراع بالذراع الهاشمي[2]، وينقسم الى عدة أقسام، طول القسم بين القلعة بالقسم والبرج الأحمر لساحل مصر (١٠٥٠٠) ذراع، وطوله من حائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة الى القلعة بالمقطم كان (٨٣٩٢) ذراعاً. ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج الأحمر (٧٢٠٠) ذراع، ودائر القلعة بمسجد سعد الدولة (٣٢١٠) ذراع، وذلك يضرب طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل الى النيل[3] وقد بني السور كله من الحجر[4] القص المنحوت.

لم يكن هذا السور الأول من نوعه في القاهرة بل الثالث، اذ ان الاول كان قد بناه القائد جوهر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م والثاني بناهُ بدر الجمالي في عهد الإمام المستنصر سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، أما الثالث فكان سور صلاح الدين[5]، ويعد هذا السور متمماً للثاني. مات السلطان ولم يتم العمل بعد لا في القلعة ولا في السور، فتوقف العمل الى سلطنة الملك العادل سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، وتحول من دار الوزارة اليها سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧-١٢٠٨م[6]، وما تزال بعض معالم هذا السور باقية الى ايامنا، لاسيما بعض الاجزاء من السور الجنوبي، الذي يصل القلعة بالكوم الأحمر والذي يعد حلقة دفاعية

(١) العمري: مسالك الابصار، ج٢٧، ورقة٦٩" الذهبي: دول الاسلام، ج٢ ص٨٦، المقريزي: السلوك، (القاهرة ١٩٥٧) ج١ ق١ ص٦٣، ويبلغ سبعة ةنصف ميل، او ما يعادل من ثمان ونصف (ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤ ص٢٦٦، وينفرد ابن نفري بردي بجعل طول السور (٢٧٣٠٠) ذراع (النجوم الزاهرة، ج٦ ص ص٥٣-٥٤). لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى: مجموعة أبحاث، المؤرخ ابن تغري بردي، (القاهرة، ١٩٧٤) ص١٦٣.

(٢) ويساوي (٦٦,٢٧)سم، هنتس: المكاييل والاوزان الاسلامية، (عمان ١٩٧٠) الكراس (١) ص١٨٥٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص ص٥٢-٥٣.

(٤) العمري: مسالك الابصار، ج٢ ورقة ٦٩، مجلة العلوم، ج١١، ص١٨٥٣.

(٥) المقريزي: الخطط، ١٢ ص٣٧٧. سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص١٠٨، هامش رقم (٣).

(٦) العمري: مسالك الابصار، ج٣، ورقة٢٠٣، السيوطي:حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٩. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٧.

مكملة، تدور حول القاهرة والفسطاط، ومن هذا الجزء بعض الابواب منها: باب القرافة، باب الصفا، باب مصر، باب القنطرة[1].

حظي مشروع السور باهتمام بالغ من لدن الأيوبيين، إذ صرفوا من أجله جهوداً وأموالاً ضخمة، عبرت عن عظمتهم، والواقع فإن بناء نظام دفاعي متكامل كان أمراً باهظ التكاليف، لذا فقد حاول صلاح الدين منذ ان كان وزيراً للعاضد أن يقتصد في التكاليف، فاكتفى بترميم سور بدر الجمالي الذي كان لا يرد داخلاً ولا يمنع خارجاً[2]، ثم ما لبث أن وجد السلطان نفسه في وضع يمكنه القيام بتنفيذ مشروع اضخم، ولكي يضمن نجاح هذا المشروع التام قام بتخصيص ديوان خاص له سمّي بـ (ديوان الأسوار)[3]، وكانت واردات دار الحسبة ودار العيار الفاطمي تحت تصرفه فضلاً عن مصادر أخرى مبينة في سجلات الديوان[4] وعلى الرغم من استمرار العمل الدؤوب والمنتظم من سنة ٥٧٢ وحتى ٥٧٩هـ/١١٧٦-١١٨٣م، فان مدة انجازه لم تكن طويلة قياساً بحجم المشروع وضخامته[5]، علماً أن بناءه لم يكمل في حياة صلاح الدين. وقد بني السور من حجر أملس مصقول الواجهة بشكل يتعذر على السلالم المتحركة الاستقرار عليه[6]، وقد أحاط بالسور خندق عميق حفر واديه وضيقت طرقاته[7]، إذ أمر الملك العادل قراقوش سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م ان يحفر ما بقي من السور ويعمقه لغاية الوصول الى الصخر، ويجعل من التراب المستخرج باشورة تعمل كساتر دفاعي، وقد قام باستخدام الأبقار لهذا الغرض. بشكل يقطع الطريق من الدخول الى البلد[8]، وقد رأى ابن جبير كيفية حفره، والذي تم عن طريق النقر بالمعاول نقراً في الصخور وهو من العجائب والآثار الباقية[9].

(١) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٥٨.

(٢) ابو شامة: الروضتين، ج١ ص١٩٢" كريزويل: وصف قلعة الجبل، ص١٠.

(٣) المقريزي: الخطط، ج١ ص٤٦٤.

(٤) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣٤١.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٢، ايليسيف: الشرق الاسلامي في العصر الوسيط، ص٤٥٦ نقلاً عن :
van berchem Motes: d'arehoeogic Arabictiragea Pewat p.64

(٦) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣ ص٦٣٢.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٦٣.

(٨) المقريزي: م.ن،ج١ ق١ ص١٥٠.

(٩) الرحلة ص٢٤.

هدف بناء القلعة والسور

لقد أسهب المؤرخون في ذكر أهداف بناء الاستحكامات الامنية، ولاسيما قلعة القاهرة، وللقلاع بشكل عام أهمية خاصة لأنها "يمكنها الصمود أمام ضربات الاعداء، كما يمكنها ان تقف عائقاً ومدافعا قوياً عن المدن، وقد يحدث ان تعود المدينة الى أصحابها بفضل ما تسببه القلعة من اخطار وعوائق ولا يجد معها هؤلاء الغزاة أمناً خلال فترة تواجدهم بالقرب منها، فيضطرون الى الانسحاب والعودة الى مواضعهم"[١]. ان القضايا العسكرية تخضع لحسابات خاصة، فان وجد العسكريون ان ثمن البقاء في منطقة ما قد يجاوز أهميتها العسكرية فالأولى لهم الانسحاب عنها، ويبدو ان صعوبة الدفاع عن المدن كان من الاسباب المهمة في بناء القلاع والاسوار، اذ كانت تحتاج الى أعداد هائلة من الجند وعليه فان القلاع والاسوار تعوضان عن هذا العدد، لذلك فقد كانت تلك التحصينات ملائمة، وقد أثبتت كفاءتها، ولعل الغاية الاسلامية من بناء السور تكمن في جعل حاضرة الدولة اقدر على الدفاع عن نفسها في حالة الإغارة عليها[٢].

وعلينا ان لا ننسى ان وجود إعداد هائلة من الاسرى كان سبباً مباشراً وراء ذلك أيضاً، إذ كان لابد من ان يسخروا في الاعمال، لان تكاليف إطعامهم وإسكانهم كانت كبيرة وقد كان استغلالهم في تلك الأعمال العسكرية، يتناسب والوضع السائد، وقد أبدى الايوبيون منتهى الحكمة في القيام بتلك المشاريع العسكرية، فضلاً عن استخدامهم اسراهم في مختلف الاعمال العمرانية، فاستطاعوا بذلك من استيعاب الاعداد الهائلة منهم. وللجانب النفسيْ دور مهم في بناء القلاع والاسوار، اذ كان الايوبيون من الشعوب الجبلية التي كانت تحب الجبال والمناطق المرتفعة، وقد تلمسوا من تاريخهم السياسي الفائدة العظمى للقلاع، لذلك إنهم لم يجدوا أمناً في أي مكان دون أن تأويهم القلاع الحصينة، وعندما وجدوا في ديار مصر بيئة مغايرة لما اعتادوا عليه ارادوا ان يخلقوا او يهيئوا لانفسهم جواً يتناسب مع اذواقهم حتى لو كان هذا الجو صناعياً إذ كان حبهم لبناء الاسوار والقلاع بارزاً، اذ لا يطمئن قلبهم ولا يستتب امنهم في بلد تغلبه السهول دون ان يأووا الى قلاع حصينة خوفاً من أي طارئ، ومن الطبيعي ان يخافوا أعداءهم سواء أكانوا من الداخل أم من الخارج، وهم يدركون جيداً مدى تطلع الفرنج الى

---

(١) عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص١٢٤" كريزويل: وصف قلعة الجبل، ص١١٣.

(٢) الموسوعة عربية عالمية مصورة بالالوان، ترادكسيم، (سويسرا ١٩٨٥) العدد١١ ص١٨٥٣.

ديار مصر، حيث لم ينقطع تطلعهم هذا اذ رأوا أن الوجود الأيوبي في ديار مصر يمثل عائقاً ومانعاً كبيراً لاستقرارهم بالشام، لما تقدمه هذه الديار من دعم مادي ومعنوي للمسلمين في صد المد الصليبي في الشام، واصبح الصليبيون في وضع لا يحسدون عليه في الشمال والجنوب[١]. وكذلك فان اطمئنان الانسان وهو داخل قلعة حصينة يضفي على الحكومة ثقة كبيرة بنفسها في أداء مهامها، وحتى الجانب المعادي عندما يرى عدوه محصناً داخل قلعة، فان عليه ان يحسب لهذا الوضع حساباً دقيقاً، لان متطلبات اقتحام القلاع تحتاج الى أسلحة ومعدات وعساكر كثيرة، وهو امر يختلف الوضع فيه عن الهجوم على عسكر مكشوف في العراء أو في مدينة غير مسورة، وبناء على هذه الحسابات فان صلاح الدين وجد بان حكمه مهدد ما لم يبنِ لنفسه ولذويه وعساكره قلعة منيعة مسورة ولاهل القاهرة جميعاً سوراً يحميهم ويحرسهم من جميع الجهات.

كان على السلطان التوجه الى ساحات القتال بنفسه، لذلك فقد كان لابد له من أن يترك القاهرة باستمرار إذ كان معظم العمليات الجهادية تجري في بلاد الشام، ولكي يأمن على حكومته الفتية في القاهرة، وجد ان بناء قلعة ضرورة لابد منها، ويدل هذا على أن الهدف الأمني كان واحداً من أهم الأهداف التي دفعت بصلاح الدين إلى إصدار أمر ببناء القلعة والسور.

لم يقتصر اهتمام السلطان على القاهرة فحسب بل شمل كل الاماكن المهمة من أرجاء الديار المصرية[٢] فعندما كان وزيراً زار الأسكندرية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م وامر بعمارة سورها وتجديده[٣]، وكان جل اعتماده في بناء هذه الاستحكامات يقوم على الامير قراقوش الاسدي، إذ أمره أيضاً بعمارة سور عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م[٤]. ولم يقتصر عمله على الاستحكامات الامنية فحسب بل كان شغوفاً بشتى اشكال البناء والعمران كالمساجد والمدارس والخوانق[٥].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ص٤١-٥١.

(٢) سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص١٥.

(٣) البنداري: سناء البرق الشامي، ج١ ص١٠٩، ابو شامة: الروضتين، ج١ ص٤٨٦" ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٣٠، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٢" عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص١٢٧.

(٤) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٢٠٩، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٩٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص١٠٩.

(٥) ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣ ص٥٩، الصفدي: الوافي بالوفيات، (بيروت ٢٠٠٠) ج٢٩ ص٦١، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، (بيروت ١٩٧٥) ص١٩٥.

ولعل ما يتعلق بتوتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين، وان خوف الاخير من الاول دفعه لبناء قلعته فهو أمر لا يتوافق مع الوقائع التاريخية، لان صلاح الدين قد بدأ بالعمل بعد وفاة سيده نور الدين بثلاث سنوات[1] لذا فليس من الراجح ان يكون هذا سبباً مباشراً في بناء القلعة، وقد روج ابن الاثير لتوتر العلاقات بينه وبين سيده نور الدين، ولا شك ان الود والعلاقات المتينة بين الطرفين تكوّن اثر تاريخ طويل بين الاسرة الزنكية والايوبية، ولم يعكر صفو هذا الجو الودي بينهما في أي وقت، وأدت قوة هذا الرباط إلى تسطير تاريخ حافل بالأحداث التاريخية المهمة، مما أوغر صدور فئة من الأمراء الحساد الذين حاولوا بشتى الطرق والوسائل إثارة المشاكل لزعزعة هذه الثقة المتبادلة التي زرعها تاريخ الاسرتين، ويبدو ان صلاح الدين كان يضيق ذرعاً من كيد هؤلاء، ولا يستبعد ان يتخذ الاحتياطات الضرورية الكفيلة لتجنب كيدهم، وذكر ابن شداد الذي كان من المقربين الى صلاح الدين كان يعارض بشدة دسائس أمرائه للوقوف بوجه سيده نور الدين وقد بذل هؤلاء الرهط (الجماعة) محاولات جادة لتأجيج الوضع وإجباره شق عصا الطاعة، ولكنه كان أقوى وأكبر من أن يرضخ لإرادة أولئك النفر، وأنكر عليهم موقفهم هذا بقوله: "لا يجوز أن يقال شيء من ذلك"[2]، ويظهر بجلاء أنه لم يقبل هذه الآراء السقيمة، وعبثاً حاول هؤلاء من تنفيذ مآربهم، وقد خابت آمالهم جميعاً، وانتهت تلك المؤامرات دون ان ينالوا منه ، وبوفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م زالت الغشاوة ولم يقدم على عمل يسيء الى العلاقة بين الاسرتين الايوبية والزنكية.

يبدو ان العوامل التي دفعت السلطان الى بناء القلعة والسور كانت أمنية بالدرجة الاولى، لاسيما بعد ما تبين له عظم المخاطر التي تهددهم وبالأخص من الصليبيين، وضرورة وجود استحكامات أمنية في القاهرة –القلعة والسور- تقاوم العدو ردحاً من الزمن لحين ان يتسنى له الوصول إليها في حالة غيابه عن القاهرة ليمكنه حينها مداركة الأمر وإذا كان السلطان يخاف على نفسه فهو على صواب، لأنه لم يعد ملك نفسه فحسب بل ملك المسلمين جميعاً، فلو أصابه مكروه فسيشكل ذلك ضربة قاصمة لهم جميعاً، وما نجم عن وفاته سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م حين حدث ارتباك أمني بمجرد سماع نبأ وفاته، إذ عمت الفوضى البلد، وقام التجار بنقل بضائعهم من محالهم إلى بيوتهم[3].

---

(١) كريزويل: وصف قلعة الجبل، ص١٤.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٧.

(٣) في الحقيقة أن أجواء المدينة كانت قلقة وكانت الشائعات تتردد باستمرار معلنة وفاة السلطان وهو لا يزال يصارع المرض. للمزيد من المعلومات ينظر الفصل الثالث، أسباب تدهور الاوضاع الامنية ص

ومن البديهي ان الاهتمام المتزايد بالقاهرة من كل الجوانب كان يتناسب مع مكانتها كحاضرة لديار مصر، لذا فان السلطان كان يدرك ان سقوطها يعني سقوط الديار بأجمعها، لذا فقد أولاها اهتماماً متميزاً من حيث تقوية دفاعاتها، وإظهار قدرتها، وقد أثمرت جهوده هذه فلم يجرؤ أحد من التقرب منها، على الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها الأعداء، والتي ردت جميعاً على أعقابها دون ان تحقق هدفها المنشود، سواء أكان ذلك ايام السلطان ام بعده، وبفضل كونها مستودعاً للذخيرة والرجال أيام الاعتداءات الصليبية على مدن الديار كدمياط والأسكندرية، فإن معظم قواتها كانت تنقل الى ساحات القتال للدفاع عن تلك المدن[1]، وقد تم تعويض النقص في الكوادر الأمنية بواسطة السور والقلعة المقامة فيها، لذلك فان امن القاهرة كان يمثل حلقة متداخلة مع امن المدن الاخرى، ويستبعد ان تتعرض إحداها للخطر دون الأخرى والعبء قد يتحمله الكل حتى لو كان الخطر على الجزء.

تعد الاستحكامات الامنية الايوبية في القاهرة، من المشاريع الكبيرة التي استهدفت تحقيق الامن[2] وقد حققت هذه الاستحكامات هدفها فاعطت السلطان شعوراً بالأمان، وحققت تكاملاً في العمليات الجهادية على جميع الاصعدة، من حيث محاربة الاعداء في كل الاماكن، وتأمين الحياة للمسلمين في كل الارجاء، وحسب الامكانية المتاحة للايوبيين وقد كان ذلك من اولويات الاستراتيجية الايوبية. وكانت إقامة القلعة والسور دليلاً واضحاً على قدرة الادارة الايوبية على فرض الامن والاستقرار في ربوع ديار مصر، لاسيما في عهد صلاح الدين الذي ترك بصمات واضحة لم يتركها أي شخص آخر غيره[3].

ثالثاً: أهم المراكز الأمنية في مصر

١- مدينة القاهرة:

كان الهدف الأساسي من بناء بعض المدن في العصر الإسلامي هو جعلها حصوناً حربية، وقد قام الفاطميون الشيعة ببناء القاهرة، وسميت بهذا الاسم لتقهر من خالفها، تقع شرقي النيل، وليس عليه

---

(١) ينظر أمن السلطان، ص

(٢) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، (عمان ١٩٨٧) ج٣ ص٨١.

(٣) زكي: قلعة صلاح الدين، ص٣٢، ماهر، سعاد: القاهرة القديمة وأحياؤها، (القاهرة ١٩٦٢) ص٣٤.

مباشرة، وقد ازدهرت بالقصور والبنايات الضخمة التي يعجز عنها الوصف[١]،حتى أصبحت "حاضرة للبلاد وداراً للخلافة، وكرسي الملك، قصدها الناس من أنحاء المعمورة، وغصت بالناس من مختلف البلدان والأجناس"[٢]، "وانحطت منزلة الفسطاط بعد بناء القاهرة واتخاذ الفاطميين لها مركزاً لخلافتهم"[٣] وقد تبارى الشعراء في التغني بها لعظمتها وكونها حاضرة البلاد[٤].

وعلى الرغم من المزايا السابقة التي اتصفت بها القاهرة، فان الواقع الذي عاشته من شدة الازدحام، وكثرة المباني المتقاربة بعضها من بعض، والكثافة السكانية العالية التي شكلت ازدحاماً في الأزقة والشوارع تسبب في حدوث أتربة وأبخرة ناتجة عن الازدحام الشديد للمارة، فضلاً عن ارتفاع المباني، التي حالت دون تسرب أشعة الشمس الى محلاتها ما عدا منطقة بين القصرين التي تتخللها ساحة فسيحة، كل ذلك تسبب في مشاكل صحية أو بعبارة أخرى جعلها تفقد ميزة الامن الصحي بشكل عام حيث بات استنشاق الهواء النقي أمراً صعباً دون الخروج من المدينة والتوجه الى الضواحي[٥]، لم تكن القاهرة الموضع الأول الذي أقيم فيه مركز السلطنة، بل كانت الفسطاط أول مركز منذ دخول المسلمين إليها سنة ١٩هـ/٦٤٠م ثم انتقل فيما عدا العسكر خارج الفسطاط، وسرعان ما هدمت مدينة العسكر بعد بنائها بفترة قصيرة ليستقر الناس في القطائع[٦]، ولما تقدم جوهر الصقلي

---

(١) مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار (د.م) ١٩٨٦، ص٨٣، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٠٧، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١ ص١٩٨.

(٢) العمري: المصطلح الشريف، ص٢١٧" القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤١٩.

(٣) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٢.

(٤) ومن بين القصائد: قال أحد الشعراء:

لله قاهرة المعز لأنها ... بلد تخصص بالمسرة والهنا

أو ما ترى في كل قطر منية ... من جانبها فهي مجتمع المنى

وقال آخر عنها:

مصر لها الأفضال إذا لم تزل ... على العدالة منصورة ظاهرة

ما غولبت كلا ولا قوهرت ... إلا وكانتا مصر والقاهرة

ابن أياس: بدائع الزهور، ص٣٥.

(٥) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص ص٢٤-٢٥.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (القاهرة ١٩٧٧) ج٤ ص١٠٩.

الى ديار مصر قام ببناء القاهرة التي صارت فيما بعد دار الخلافة، واستقر فيها الخليفة باهله وخواصه، وظل الوضع هكذا حتى انقضت دولتهم فسكنها الايوبيين من بعدهم[١].

بدأ عصر جديد في ديار مصر بعد دخول الايوبيين إليها، فقد توسعت القاهرة في زمنهم من جهاتها الاربع[٢] بلغت الزيادة السكانية أيام الأيوبيين أربعة أضعاف ما كانت عليه أيام ناصر خسرو[٣]، فقد امتدت لتشمل معظم ميادين الحياة، كالنظم الدينية التي شهدت انتصار السنة على الشيعة، فضلاً عن التطورات التي حصلت في العمارة اذ تمثلت ببناء المدارس على طراز خاص[٤]، وكذلك تغيرت النظم العسكرية باقامة النظم الإقطاعي[٥]، الذي شجعته الروح العسكرية التي روجت للجهاد وهو ما شجعته الدولة حتى اصبح الانتساب للعسكرية يعد شرفاً كبيراً، أما ما أحدثوه من تغيرات في مجال الهندسة العسكرية فقد تجلى ذلك في الاهتمام بنمط القلاع والأسوار، ويحتمل ان هذا كان من تأثير الاخرين، وكانت الزخارف التي تزين أبنيتهم في غاية الإتقان والجمال[٦].

وقد أخذت العناصر العسكرية مسؤولية الحكم والإدارة في نفس الوقت، فبعد ان كان ذلك العنصر مغلوباً على امره في العصر الفاطمي، لم يلبث ان اصبح اكثر اقتداراً وقوة في ايام المماليك[٧] وحسب قول جب (Gibb) فان انضمام مصر مع بلاد الشام اصبح زيادة فعلية في القوة العسكرية

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١ ص١٩٨، المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٤، أتعاظ، ج١ ص١٠٠.

(٢) مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧٩.

(٣) المقريزي: اغاثة الامة، ص٦٢، الخطط، ج١ ص٣٦٧، مصطفى شاكر: المدن في الاسلام، (القاهرة ١٩٨٨) ج٢ ص٣٦. يحتمل ان تكون هذه الزيادة اثر انتقال اهل الغرب اليها لتوفر مجالات الحياة المعيشية فيها فضلاً عن الأمن والسلام.

(٤) ولم تقتصر هذه التغيرات على التوسع العمراني.

(٥) ان نظام الاقطاع العسكري قد دخل الى ديار مصر عن طريق صلاح الدين، حيث كان الامراء والموظفون من ذوي المناصب يحصلون على الاقطاعات منذ العصر الفاطمي، بيد ان الاراضي التي كانت تعد كاقطاعات كانت صغيرة نسبياً، وكانت صفتها من جوانب مختلفة تختلف عن انظمة الاقطاع البويهية والسلجوقية وكان نظام صلاح الدين الجديد الذي يعتمد على نظام الاقطاع يأخذ صفات مختلفة ايضاً من النظام الفاطمي القديم، للمزيد من المعلومات ينظر:
Tsugitak, sato "The 1-4 ta' System of Egypt and Syria under the Ayyubids" Arabic Journal for Humanities, 1990, No 38, vol-10, p.347.

(٦) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٩ نقلاً عن: van Bercheman: Archeologic Arab. P.118 (tiraye a part).

(٧) كازانوفا: م.ن، ص١٩.

والمالية لرفد جبهات القتال ومواصلة الجهاد في بلاد الشام[1]، حيث أصبحت بلاد الشام عمقاً سوقياً لديار مصر والعكس صحيح أيضاً.

أ- شــرطة القاهرة

تركز الاهتمام الفاطمي باستتباب الامن والسلام في القاهرة منذ تأسيسها، اذ نقلوا اليها شرطة القطائع التي كانت تعرف بالشرطة العليا[2]، وظلت القاهرة محافظةً على شخصيتها الامنيـة في العصر الايوبي، إذ كان واليها أعلى الولاة رتبة وكان يطلق على إمرته (إمرة طبلخاناه)[3]، وتكمن أهمية والي القاهرة واتساع سلطاته من الصلاحية المخولة له في التحكم بالضواحي والأشراف عليها، واذا كان هناك مدير للشرطة فضلاً عن وجود الوالي، فانه يعتمد على مجموعة من الأشخاص عرفوا بـ(الأعوان) وهم من عناصر الشرطة، وتنحصر مسؤوليتهم في حفظ الأمن والنظام في الليل والنهار[4].

اقتضت الضرورة الامنية تعاون عدد من المؤسسات فيما بينها، لحاجة إحداها الى الأخرى، فارتبط القضاء بالشرطة، وكان أحدهما يكمل الثاني، وقد بلغ التعاون بينهما درجةً وثيقةً، فعمل القضاء يكمن في إصدار الاحكام، فيما تقع مسؤولية تنفيذها على الشرطة ومحاسبة المخالفين وإنزال العقوبات بالمذنبين، فضلاً عن واجباتها في عمليات الكشف والتحري[5]، وتولت أيضاً مسؤولية حماية قاضي القضاة وحراسته[6]. ونظراً لاهمية منصب مدير الشرطة ومكانته، فلا يستبعد ان يكون لـه من يحجبه عن الناس، اسوة بالمحتسب والقاضي[7].

---

(١) صلاح الدين، ص١٨٨.

(٢) المسبحي: اخبار مصر، ج٢ ص١٩٠" المقريزي: أتعاظ، ج١ ص١١٠، هامش رقم (١).

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٢٣. هو الامير الذي يكون مسؤولاً عن عما لا يقل عن أربعين جندياً وقد يزيدون الى السبعين، (السيوطي: حسن المحاضرة، ج٣ ص١٧٨).

(٤) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج١، ص ص١٧٤-١٧٥، الرمادي، جمال الدين: الامن والسلام في الاسلام، (القاهرة ١٩٦٣) ص٣٠.

(٥) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٧، هامش رقم (٥).

(٦) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج١ ص١٧٥.

(٧) المسبحي: أخبار مصر، ج٢ ص٣٣.

اما فيما يتعلق بالطرق والاساليب التي سلكتها الشرطة في اداء مهامها، فلم نعثر على نصوص تؤكد استخدام الكلاب البوليسية مثلاً، وان كان استخدام الفاطميين لها احتمالاً راجحاً وفيه ان مجموعة من كلاب الصيد المدربة أرسلت الى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله من المغرب. واذا صح ذلك فان العصر الايوبي لم يختلف كثيراً في أساليبها التحقيقية والكشفية عن الفاطمي[1].

نظراً لاهمية بعض المناصب كالولاية والشرطة والحسبة، فان اسنادها الى اصحابها كان يتم عبر اقامة مراسيم مهيبة ويقرأ السجل على منابر مصر والقاهرة، ويتم اختيارهم من بين الوجوه العدول، وكانوا يجلسون أيام المرافعات في جامعي مصر والقاهرة، ويجتمعون في بعض الاحيان في جامع واحد[2].

والشرطة من الاجهزة الامنية المهمة التي تقع على عاتقها مسؤولية حفظ الامن والاستقرار، اذ هم بحكم عملهم من منتسبي الدولة ولهم حقوق مثلما عليهم واجبات، وعلى الدولة تحديد رواتب معينة لهم لاعالة عوائلهم باعتبارهم متفرغين للعمل الحكومي، وحسب المعلومات المتوفرة فان صاحب الشرطة كان يتقاضى راتباً يقارب بين ٣٠-٥٠ دينار جيشي[3]، في حين بلغ راتب الفرد العادي من منتسبي الشرطة ما بين ٢٠-٥٠ ديناراً جيشياً حسب الرتبة والخدمة وما الى ذلك من الضوابط[4].

ان الدولة الايوبية لم تكتف بالاعتماد على الاجهزة الامنية للحفاظ على امن القاهرة وبقية المدن الاخرى، بل كانت تقوية الاستحكامات والاجراءات الامنية ضمن اولويات عمل الحكومة، فالابواب والمنافذ قد استحكمت لدرجة يصعب اختراقها[5]، وان اجراءات الدخول والخروج الى القلعة والمدينة كانت دقيقة إذ لم يكن الدخول سهلاً الا بعد التأكد من هوية الداخل، ونظراً لكون الداخلين الى القاهرة اكثر بكثير من الداخلين الى القلعة، لذا فقد كان يصعب الإقرار باتخاذ نفس الاجراءات فيها، وقد يكون هناك بعض التساهل في ابواب القاهرة.

---

(١) المقريزي: أتعاظ، ج١ ص٢٧٩، الخطط: ج١ ص٢٦٧.

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٥٥٨-٥٥٩.

(٣) تبلغ قيمته ثلاثة عشر درهم وثلثا درهم (العمري: مسالك الابصار، ج٣ ص٢٠٠.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٩٠، حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٦١.

(٥) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٣٦" ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٦.

ومن مظاهر استتباب الامن في القاهرة تدفق أعداد كبيرة من الأجانب إليها، ومن مختلف الاجناس[1]، وازدهار اسواقها وتوسع عمرانها وتوفر اسباب العيش فيها، وانتشار المدارس والخانات والابنية السكنية في ارجائها، كما انشأت فيها ورشات ومصانع فضلاً عن دار الطراز[2]، فضلاً عن توجه أهالي المدن التي تتعرض للنكبات إليها كما حدث في سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م بعد خراب دمياط على أيدي المماليك[3]، فانفتحت أبواب الحياة لمختلف الفئات الاجتماعية وتسنم اليهود والنصارى مناصب إدارية مهمة، لاسيما أصحاب الحرف منهم[4].

٢- الفسطاط:

بعد بناء القاهرة أصبحت الفسطاط مدينة للعامة، واتسعت المدينة بشكل لافت للنظر لاسيما على الصعيد العمراني، اذ ازداد عدد المساجد والشوارع والحمامات[5]، ورخصت أسعار البضائع والمستلزمات الحياتية نظراً لموقعها على النيل، وقد أشاد بها ابن حوقل في زمنه قائلاً: "والفسطاط مدينة كبيرة، نحو ثلث بغداد، مقدارها نحو فرسخ، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، وذات رحاب في محالها، وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام، الى ظاهر انيق، وهواء رقيق، وبساتين نظرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة"[6].

ونظراً لوقوع الفسطاط في موقع مسيطر على القاهرة، إذ كانت تصلح ان تكون قاعدة عسكريةضدها لذا فقد اصبح امن القاهرة تحت رحمة المسيطر على الفسطاط، ولعل ابرز دليل على ذلك ان الوزير شاور السعدي امر باحراقها سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م لما أيقن بصعوبة الدفاع عنها ضد الفرنجة،

(١) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٧، المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٦٧.
(٢) للمزيد من المعلومات ينظر الامن الاقتصادي، ص
(٣) ابن الجزري: حوادث الزمان(بيروت ١٩٨٨) ص٢٣٠.
(٤) المقريزي: م.ن،ج١ ص٣٦٨.
(٥) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٩، رمضان، هويدا عبد العظيم: المجتمع في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى العصر الفاطمي، (القاهرة ١٩٩٤) ج٢ ص٢٤٣.
(٦) صورة الارض، (بيروت ١٩٧٠) ص١٣٧.

ولكي لا يستفيد منها العدو[1]، واستمرت النيران تشتعل فيها طيلة أربع وخمسين يوماً[2]، ونستدل من طول فترة بقاء اشتعال النيران فيها على كبر حجمها، وكثرة الابنية فيها، وعندما تسنى لشيركو ان يقضي على شاور ويتبوأ كرسي الوزارة فيها أوعز إلى الاهالي بالعودة اليها، بعد ان طيب قلوبهم، وبدأ الناس بالعودة اليها، واعيد لها الامن والاستقرار شيئاً فشيئاً[3]، علماً أن الناس الذين خرجوا منها تعرضوا لنكبات مؤلمة، ولم يبق لديهم شيء من المال، ويبدو ان شيركو قد ساعدهم –وعلى قدر استطاعته- في البدء بحياة جديدة، وقد كان هدف شيركو من إعادة الحياة إليها:

أولاً: التخفيف من المشاكل الأمنية في القاهرة، اثر تواجد أهالي الفسطاط فيها.

ثانياً: ليجعلها قاعدة عسكرية أمامية للدفاع عن القاهرة ضد الأخطار الخارجية" ثم ما لبث ان قامت السلطات الحكومية بإدخالها مع القاهرة داخل سور واحد[4]. وبذلك وفرت الدولة سهولة الدفاع عنها أسوة بالقاهرة.

يبدو ان فكرة إدخال الفسطاط داخل سور القاهرة، أعطت للاخيرة أهمية كبرى، وأصبحتا مدينة عظمى[5] لأنها بفضل ذلك أصبحت تقع على النيل أي ما يشبه اليوم إدخال منطقة ضمن حدود بلدية لمنطقة اخرى لتصبح جزءاً منها وارتفعت الأهمية الاقتصادية للقاهرة، لان قوافل التجارة كانت تفرغ حمولاتها في الفسطاط ثم توزع الى بقية المدن[6]، واصبح بمقدور الحكومة استيفاء الضرائب منها والتحكم بكمية ونوعية التجارات التي يمكن المتاجرة بها.

عاد للفسطاط مركزها التجاري الهام، وتكدست فيها السلع التجارية من الشمال والجنوب، وصارت مجمعاً تجارياً ضخماً[7]، تأخذ القاهرة منه ما تحتاج إليه ثم توزع الباقي، فضلاً عن ذلك انتشرت فيها الورش والمصانع كصناعة السكر والصابون وغيرها، ثم ما لبث ان اختصت الفسطاط

(١) ياقوت الحموي: معجم الادباء، (القاهرة، ١٩٩١) مج٤ ص٢٦٦، ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٤.
(٢) للمزيد من المعلومات ينظر : الكوارث البشرية، ص
(٣) للمزيد من المعلومات ينظر : المؤامرات الداخلية، ص
(٤) للمزيد من المعلومات ينظر : سور القاهرة، ص
(٥) الباكوي: عجائب الآثار، ورقة ٦٧.
(٦) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٧.
(٧) ابو الفدا: تقويم البلدان، ص١٠٨.

بصناعة السلع المدنية والقاهرة بالسلع العسكرية، وعلى الرغم من كون القاهرة مركز الادارة والحكم، فقد نافستها الفسطاط في إنتاج السلع السلطانية، وبمرور الزمن اتصلتا لزيادة وتوسع العمران، وصارت الفسطاط امتداداً طبيعياً للقاهرة. وانتقل إليها العسكريون ايضاً، وشمل الازدهار بشكل خاص الجانب الغربي من النيل وعلى ضفافه[(١)]. وبدأت الحكومة الايوبية بنقل بعض الاسواق من القاهرة الى الفسطاط ولاسيما تلك الاسواق التي تخص الجند، حيث تقوم ببيع الفراء والجوخ، كما قامت بإنشاء عدد من الطرقات والجسور لتيسير الحركة السكانية بين المدينتين، وصارت الفسطاط اكثر ازدهاراً من كافة النواحي بعد بناء جزيرة الروضة فيها من قبل الملك الصالح نجم الدين[(٢)].

لم يقتصر الاهتمام الايوبي في الفسطاط على الجانب الاقتصادي فحسب، بل انشأت فيها كافة المعالم الحضارية كالمدارس والمستشفيات، حيث بنى صلاح الدين فيها مدرستين سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م احداهما للمالكية المعروفة بالقمحية والأخرى للشافعية المعروفة بابن زين التجار[(٣)]، وقد كانت الأخيرة في الأساس سجناً، وخصص لها ربع الصاغة المجاورة، وعمر الملك تقي الدين عمر منازل العز بالقرب من باب القنطرة ووقف عليها جزيرة الروضة، ثم بنى الملك المعز المدرسة المعزية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[(٤)].

على الرغم من وقوع القاهرة والفسطاط داخل سور واحد، ونظراً لتوسع المدينتين وكثرة الاهالي، فان السلطات الحكومية رأت ضرورة وجود مركز امني في الفسطاط على غرار القاهرة، وقد قامت فعلاً بوضع جهاز امني مستقل لها، يتناسب مع مكانتها، فعينت له والياً خاصاً من إمرة عشرة[(٥)]، يكون مسؤولاً عن حمايتها، ولكن رتبته اقل من رتبة والي القاهرة[(٦)]، وكان مقر الشرطة السفلي في الفسطاط، وللفسطاط تاريخ قديم في تنظيمات الشرطة يعود الى العصر الطولوني ٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٤م[(٧)].

---

(١) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٤٢.

(٢) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٧، المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٦٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٥٤.

(٤) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص١١٠.

(٥) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٢٤.

(٦) المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٧، هامش رقم (٥)" ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، ج١ ص ص١٧٤-١٧٥.

(٧) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٢٤" سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية، ص ص١٨٥-١٨٦.

أما الازدهار والتقدم الذي حل بالفسطاط في العصر الايوبي فقد انعكس سلباً على الامن الصحي فيها، اذ شكل هذا التضخم السكاني والابنية العالية فيها مع موقعها الجغرافي، -غير الصالح اصلاً، الا بصعوبة بالغة – أرضاً خصبة أصابت سكانها بالأمراض مختلفة[(١)]، على رغم من الأجراءات الامنية الصحية التى قامت بها السلطات فأن موقعها الجغرافي الغير مساعد إذ كان في منخفض من الارض، فلا تصل اليها ريح الصبا[(٢)].

٣- قلعة الروضــــة:

كانت الروضة محلة من محلات الفسطاط، وكان النيل يفصلها وقت الزيادة، وهي من متنزهات مصر[(٣)]، وفيها المقياس، وكان من السهل دمجها مع الفسطاط بعد استواء الطمر والتراب الفائض والرواسب مع الزيادة، لولا رغبة الملوك والسلاطين في عزلها[(٤)]. وقد حظيت الروضة باهتمام الملك الكامل إذ كان يتنزه فيها[(٥)]، وقد رأى ان يقوم بتنظيف وتطهير مجراها سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، واستغرق العمل بها ثلاثة اشهر ليجعل الماء محيطاً بالروضة وهكذا صارت جزيرة[(٦)].

برزت أهميتها كمتنزه ملكي، وقد اشتراها الملك تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، وأصبحت قاعدة له، وعندما جاء الملك العزيز برفقة عمه الملك العادل أمر بترك تقي الدين القاهرة والذهاب إلى بلاد الشام[(٧)]، إذ وقف الجزيرة على المدرسة التي بناها في منازل العز[(٨)]، ولما ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب استأجر الجزيرة مدة ستين سنة، ومن ثم بدأ ببناء قلعته فيها[(٩)].

---

(١) البغدادي: الافادة والاعتبار، (بغداد ١٩٨٧) ص٦٩.

(٢) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، ص٢٨" المقريزي: الخطط، ج١ ص ص٣٤١-٣٤٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢ ص١٣٩.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٠٤، الشامي: مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، ص٥٣..

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥ ص٢٧٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٤١.

(٦) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٠٤، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج٢ ص١١٠، وقد ذكر ذلك في احداث سنة ٦٤٦هـ.

(٧) مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧١.

(٨) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص١١٠.

(٩) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، بيروت ١٨٩٣، ج٢ ص ص١٠٩-١١٠. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣١.

يعد بناء قلعة الروضة من المشاريع الضخمة، إذ تطلب ذلك قيام الملك الصالح بهدم عدد كبير من الدور والمساكن والمساجد، وقد بلغت عدد المساجد التي شملها الهدم اكثر من ثلاثين مسجداً كما تعرضت بساتين عديدة الى قطع اشجارها، وقد بلغ عدد اشجار النخيل التي تم قطعها اكثر من الف نخلة، كما شمل الهدم كنيسة يعقوبية، وتحول الناس من تلك الاماكن إلى أماكن اخرى، وقد صرفت عليها أموال لا تحصى[١].

ومن ثم تحول اليها من قلعة الجبل وسكنها، وقد أقام محل تلك البساتين والاشجار المقطوعة أنواعاً مختلفة من الاشجار ثم قام ببناء ابنية فخمة فيها، لم يكن لها نظير في المدن المجاورة[٢].

ان بناء الروضة يثير عدة تساؤلات، فقد كان عهد الملك الصالح مليئاً بالاحداث والمخاطر وهو بحاجة ماسة الى الاموال لحفظ الامن في بلاده، على الاقل ضد التحديات الفرنجية هذا فضلاً عن وجود قلعة الجبل التي كان بامكانه اللجوء اليها هو ورجاله ومماليكه، وهو مطمئن على الجميع في داخلها، والسؤال الذي يتبادر الى الذهن، لماذا صرفت كل هذه الاموال في بناء قلعة الجزيرة؟ وعلى اغلب الظن انه كان قد فقد الثقة بعساكره ايام المحنة التي وقع فيها، لذلك اضطر الى الاعتماد على عنصر جديد من المماليك[٣] كان قد اشتراهم لحماية نفسه وكرسي مملكته من الاخطار الخارجية والداخلية كما لا يستبعد ان يكون عمله هذا اظهاراً لعظمته كملك لا يقل عن العظماء في السطوة والجبروت ولعله أراد أن يضفي على ملكه هالة من العظمة والابهة، باعتبار أن الأعمال العمرانية مرآة تعكس عظمة السلطان وقوته.

كانت قلعة الروضة معلماً مستقلاً بذاته، حيث احتوت على الاثمار والاشجار والازهار التي تثير الدهشة، كما وجدت فيها انواع مختلفة ونادرة من الحيوانات[٤]، وهو ما يثبت الذوق الرفيع للملك الصالح، واذا كان المنظر الجمالي للروضة قد اعجب الناس فان الجانب الامني فيها كان احكم وادهى حيث ادخل فيها كل ما يمكن إدخاله من الضرورات التي تحافظ على أمنها وسلامتها من جهة، فضلاً عن سلامة اهله ومماليكه من جهة اخرى، وقد حصن أمنها بإنشاء ستين برجاً على سورها[٥]، ويبدو ان

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٤٤" ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج٢ ص١١٠، المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٨٣. لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى: ابن تغري بردي، مجموعة أبحاث، ص١٦٤.

(٢) مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧٥.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥ ص٢٧٨.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٨٤، حتي: تاريخ العرب (مطول)، ج٢ ص٥٤٦.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، (القاهرة ١٩٦١) ص٣٦.

الملك الصالح كان يتوقع في كل لحظة هجوم الفرنجة عليه، لذلك فقد قام بشحن القلعة بكميات هائلة من الذخيرة والاسلحة[١] والمعدات الحربية[٢]، وأقام جسراً يربط الروضة بالبر المصري بلغ عرضه ثلاث قصبات[٣]، وخصه لنفسه دون غيره، لاسيما في حالة الركوب[٤]، وقد كان كفوءاً في مواجهة الاخطار، وقد اثبت كفاءته من خلال الوقوف بحزم ضدها[٥].

اتخذ الملك الصالح امر القلعة بجدية بالغة، ويظهر ذلك من خلال تعيينه وزيراً خاصاً لها، إذ عين لهذا الغرض (المحسن محي الدين بن ندا)[٦] وأمر باتخاذ إجراءات حازمة للحفاظ على الامن فيها، اذ منع الدخول والخروج من والى القلعة الا بدستور مع تحديد المدة بدقة، وعلى الحراس وأرباب النوب الالتزام بالواجبات بشكل دقيق[٧]، ويمنع الحراس من تبديل اماكنهم او تغيير نوبتهم الا بأمر، وعند غلق القلعة توضع المفاتيح في مكان مخصص من قبل الوالي، ويتسلمها بالختم كالعادة[٨].

ولم يدخر الملك الصالح نجم الدين وسعاً في سبيل إظهار جزيرة الروضة بالشكل المرموق، إذ جعلها تزهو بالابهة والجمال، وصارت في عهده جنة فردوس حقيقية، وبعد تسلم الملك المعز آيبك التركماني السلطة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م أمر بهدمها[٩] وأقام محلها مدرسة سميت باسمه، وهي: (المدرسة المعزية)[١٠] وقد أزال بذلك احدى المعالم البارزة للحضارة الايوبية، دون ذكر التبرير المناسب والذي ربما كان مجرد محاولة لطمس اثار الايوبيين.

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٨٣.

(٢) يساوي ستة اذرع و ما يعادل بباعين من رجل معتدل (حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٦٠٥).

(٣) قصبة يساوي ستة أذرع، أو ما يعادل بباعين من رجل معتدل، (حسن: الدولة الفاطمية، ص٦٠٥).

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٨٣.

(٥) للمزيد من المعلومات ينظر : أمن السلطان، ص

(٦) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج٢ ص١١٠"لمقريزي: السلوك، ج١ ص٣٨١، الخطط، ج٢ ص١٨٣. لم أقف على ترجمته على الرغم من تكرار محاولات البحث.

(٧) كان البوابون في الدول الاسلامية يعرفون كيفية الدخول والخروج من الابواب، هلال الصابي: رسوم دار الخلافة، بغداد ١٩٦٤، ص٨٥.

(٨) ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ص١٩٦-١٩٧.

(٩) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٨٤، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٨٠.

(١٠) الذهبي: دول الاسلام، ج٢ ص١٤٤، مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٨٠.

٤- القرافة:

جاءت التسمية نسبة إلى أحد بطون المعافر[(١)]، التي نزلت بها، وكانت مقبرة أهل مصر، مزدهرة بالابنية والمحلات الواسعة واسواقها عامرة، وتكثر فيها ترب الصالحين والاكابر[(٢)]. تحتل القرافة الكبرى منها والصغرى مساحة واسعة تمتد من سفح جبل المقطم إلى الفسطاط، وجزء من القاهرة، ممتداً إلى قلعة الجبل ثم الى بركة الحبش وما حولها[(٣)]، وعندما فتح عمرو بن العاص ديار مصر سنة (١٩هـ) في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) أراد المقوقس شراء القرافة منه، فاخبر الخليفة بالأمر، ولم يرضَ عمر بذلك، وأمر قائده ان يجعلها مقبرة لدفن الموتى[(٤)]، ويبدو أنها كانت مقبرة منذ القدم، إذ كانت فيها أضرحة عدد من الأنبياء والصالحين كاخوة يوسف وقبر آسية زوجة فرعون فضلاً عن قبور الصحابة والأئمة، فقد دفن فيها —على سبيل المثال- الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ/٧٦٧-٨١٩م)[(٥)].

حظيت القرافة لاسيما الصغرى منها باهتمام بالغ من لدن الملوك والسلاطين الأيوبيين، وكان شيركوه يزورها كثيراً[(٦)]، يبدو ان صلاح الدين كان أكثرهم اهتماماً بها، حيث انشأ مدرسة للشافعية إزاء مشهد الإمام الشافعي[(٧)] فاقت جميع مدارس ديار مصر، واحتوت على أربعة أروقة[(٨)]، فضلاً عن

---

(١) قبيلة عربية ينسب اليها كثير من عامتهم بمصر (ابن الاثير: اللباب في تهذيب الانساب) اعادت طبعه بالافسيت، بغداد (د.ن)، ج٣ ص٢٢٩.

(٢) للمزيد من المعلومات ينظر : رحلة ابن جبير، ص٢٠ فما بعد.

(٣) وهي من اجمل متنزهات مصر، مشرفة على النيل خلف القرافة (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١ ص٤٠١).

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٤٢٩" الحميري: الروض المعطار، ص٤٦٠.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣١٧.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١ ص١٦٢.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ص٣٣٩" ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٣٠" المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٨٦، العيني: السيف المهند، (القاهرة، ١٩٦٧) ص٢٠٠، لجنة التاريخ للمجلس الأعلى المؤرخ ابن تغري بردي، مجموعة أبحاث، ص١٦٣.

(٨) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص٣٦٠.

المشتملات والمرافق كالحمامات وأسند أمرها الى العالم والامام المعروف بالخبوشاني[(١)] وكان مخولاً من قبل السلطان في توفير جميع متطلبات المدرسة[(٢)]. ووقف عليها واردات جزيرة الفيل[(٣)].

ويبدو ان الأيوبيين ساروا على نهج الفاطميين في اتخاذ القرافتين[(٤)] مقبرة لموتاهم[(٥)]، إذ دفنوا أعداداً من ملوكهم في القرافة الصغرى منهم الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وكذلك ام الملك الكامل سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م)، الملك الصالح نجم الدين كان قد نقل إليها من المنصورة سنة (٦٤٧هـ/١٢٥٠م)[(٦)]، ودفن فيها ايضاً سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) القاضي الفاضل، الذي كان من كبار مستشاري صلاح الدين[(٧)]. ويعزى الى الملك الكامل بناء القبة على ضريح الشافعي، وأجرى إليها الماء من بركة الجيش الى حوض السبيل والسقاية على أبواب القبة المذكورة[(٨)] ترتب على الاهتمام المتزايد بالقرافة الصغرى التي دفن فيها ملوك وأبناء الأسرة الايوبية، وقد تحول الناس إليها لوجود الخدمات والأمن والاستقرار فيها، ونظراً لوجود مقابر ملوك وأبناء الأسرة الأيوبية في القرافة الصغرى استلزم ذلك منهم اهتماماً متزايداً وعناية خاصة بها حتى أخذت لأهميتها الجديدة هذه تنافس القرافة الكبرى[(٩)].

---

(١) ابو البركات محمد بن سعيد (٥١٠-٥٨٧هـ/١١١٦-١١٩١م) تولى مشيخة المدرسة الصلاحية، وكان شيخها وناظرها، ودفن في قبة مفردة تحت رجلي الامام الشافعي. (السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص ص٨٥-٨٦).

(٢) رحلة ابن جبير، ص٢١.

(٣) مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٧١، وهو موضع بين القاهرة ومصر تحيط به البساتين ويمتلأ بماء النيل على مدى البصر ثم ينشف عنه ويزرع، وهو من المتنزهات المهمة في مصر (الشامي: مدن مصر وقراها، ص٥٦).

(٤) القرافة الكبرى تقع في شرق الفسطاط، اما الصغرى فهي متصلة بالجبل (مبارك: الخطط التوفيقية، ج١ ص٦٧) واشتهرت الكبرى بالمباني والمنازل والاسواق وتقديم الخدمات الى الزائرين (الشامي: مدن مصر وقراها، ص٥٦).

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٤٦.

(٦) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٣٤.

(٧) ابن ساعي: الجامع المختصر، (بغداد ١٩٣٤) ج٩ ص٢٩.

(٨) العيني: السيف المهند، ص٢٠٠" ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٢٩، البدليسي: الشرفنامة، ص٩٩.

(٩) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٧١" المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٧٤.

يبدو ان الاهتمام بها قد جاء اثر تواجد قبور الفاطميين الذين جلبهم المعز معه ودفنهم في القرافة الكبرى، مما جعلها مزدحمة بالقبور وقلت الاراضي فيها، فاضطر الايوبيون الى التوجه الى الصغرى التي اكتسبت اهمية كبيرة تزايدت مع مرور الوقت، إذ اتخذها الناس ملجأً يلجأون إليه خوفاً من الفتن والأحداث.

يبدو أن هذه المقابر، لاسيما مقابر الملوك والسلاطين لم تكن بسيطة، بل وضع على كل قبر منه بناء فخم وكانت تزدحم بالزائرين بشكل لافت للنظر[1]، وخاصة في أيام المواسم، واستقطبت القرافتان أعداداً كبيرة من الزائرين، وقام الايوبيون بتقديم كافة الخدمات الضرورية إلى أولئك الزوار من الغرباء والعلماء والفقراء[2]، وقد عين لتلك القبور والاضرحة -التي تكونت من أبنية فخمة واسعة عجيبة البنيان- وفيها قَوَمة يسكنونها، ويقومون بصيانتها، وكانت لهم مرتبات شهرية[3]، وبلغ حجم هذه النفقات الشهرية ألفي دينار مصري، أي ما يعادل أربعة آلاف دينار مؤمنية[4].

ان التوسع والازدهار اللذين عمّا القرافتين ساهما بشكل فعال في استغلالها من قبل بعض الفئات والجماعات المعارضة أو المشاغبة للاختباء فيها[5]، مما استوجب الانتباه لهذا الأمر الذي يهدف إلى الإخلال بأمن البلاد، ويبدو ان السلطات الأيوبية قد رأت ضرورة درء الأخطار الأمنية في القرافتين، لاسيما ان وجود هذه الأضرحة يتطلب من الجهاز الامني اليقظة التامة، وعلى الرغم من نشر أعداد كبيرة من رجال الأمن فيها للحفاظ على أمنها وأمن القبور والأضرحة المتواجدة فيها، فان بعض الفئات كانت تستغل أيام المواسم لأحداث الشغب والبلبلة، كما حدثت أيام الدولة الفاطمية[6].

وازدهرت القرافتان وتوسعتا اكثر في العصر الأيوبي، وكان على السلطات إرسال العساكر إليها كلما دعا الأمر ذلك، وقد شكل حفظ الأمن فيهما عبئاً ثقيلاً على الدولة مما استدعى اتخاذ إجراءات اكثر فعالية لاستتباب الأمن فيها، لان هذه الاعداد الغفيرة من الزائرين بحاجةٍ ماسةٍ الى تقديم مختلف أنواع الخدمات إليها، وفي مقدمتها الأمنية.

---

(١) العمري: مسالك الابصار، ج٣ ص٢٠٤.

(٢) عاشور: صلاح الدين الايوبي، (القاهرة ١٩٦٥) ص٢٨٠.

(٣) رحلة ابن جبير: ص١٩، الحميري: الروض المعطار، ص٤٦٠.

(٤) ابن جبير: م.ن، ص٢٠.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الادباء، ج٢ ص١٨٦.

(٦) سرور: الدولة الفاطمية، ص١٢١.

ويبدو ان الحكومة في القاهرة قد رأت ضرورة ضمان الامن فيها بشكل دائم، عن طريق إقامة مركز للشرطة فيها، ويُعد هذا الاجراء شيئاً جديداً في تاريخ ديار مصر، لان الفاطميين قد اكتفوا بوجود مركز للشرطة في كل من القاهرة والفسطاط وهو ما كان يطلق عليهما بالشرطة العليا في القاهرة والسفلى في الفسطاط، اما فتح مركز للشرطة في القرافة فهو اجراء لم يسبق أحد الأيوبيين إليه، وعينوا على المركز صاحب شرطة وهو في الوقت نفسه يشغل منصب واليها، وهو من امرة عشرة، واعطوه صلاحية التحكم في هاتين القرافتين برعاية والي مصر وهكذا سيطر الايوبيون على الاوضاع الامنية في القرافتين واستطاعوا احتواء جميع محاولات الاخلال بالامن فيهما[1].

رابعاً: الاستحكامات الأمنية في مصر

لم تقتصر الاستحكامات الامنية على القاهرة وضواحيها فحسب، بل امتدت لتشمل مواقع خارجها، نظراً للارتباط الوثيق بين أمن القاهرة وأمن هذه المواقع التي تقع خارجها، والتي غالباً ما كانت تُستهدف لغرض الوصول الى القاهرة[2] لذلك فان دراستها امر ضروري لبيان اثرها على الامن في القاهرة، ومن هذه المواقع:

١- برج السلسلة في دمياط:

يتكون من سلاسل الحديد المحكمة الصنع والابراج المنيعة[3]، وقد أقيم في وسط النيل للاشراف على دمياط، وتمتد من جانبيه سلسلتان حديديتان تمتدان بعرض النيل لمنع المراكب من العبور في بحر الملح الى داخل ديار مصر[4]، ويعد من الاستحكامات الامنية المهمة جداً، حتى وصف بأنه قفل ديار مصر[5].

كانت دمياط من المدن الساحلية المهمة، وقد حاول الصليبيون مراراً احتلالها، وعندما كان صلاح الدين وزيراً للعاضد شن عليها الصليبيون حملة كبيرة، وتمكنوا من الاستيلاء عليها سنة

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٢٣.

(٢) المقريزي: الخطط، ج١ ص٢١٦.

(٣) عواد، كوركيس: المآصر، (بغداد ١٩٤٨) ص٣٩.

(٤) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص١٠٩" ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣ ص٢٥٨.

(٥) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٩٧" المقريزي: السلوك، ج١ ص١٩٤. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقم ١٧. زابوروف: الصليبيون في الشرق، (موسكو ١٩٨٦) ص٢٩٧.

(٥٦٥هـ/١١٦٩م)، لينطلقوا منها صوب عمق ديار مصر، وظلوا فيها قرابة خمسين يوماً وبفضل التكاتف والتعاون بين جميع الاطراف، لاسيما نور الدين الذي قام بشن غارات عديدة عليهم في بلاد الشام أزعجتهم كثيراً وأضعفت سيطرتهم في دمياط، كما ساند الخليفة العاضد وزيره صلاح الدين وقدم له مساعدات مالية هائلة كل هذه العوامل ساهمت وبشكل فعال في إفشال خطط الصليبيين وإجبارهم على الانسحاب منها[١].

ويبدو ان صلاح الدين كان يدرك المكانة الأمنية الكبيرة لدمياط، لذا فقد وجه إليها عناية خاصة لتقوية تحصيناتها الدفاعية، وترتيب المقاتلة فيها، وترميم سورها وأبراجها[٢]، وقد بلغ عرض السور حجماً بحيث يمكن لخمسة خيول الجري عليه في آن واحد[٣]، ثم عمل لها جسراً سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) وحفر حولها خندقاً، وقد بلغ مجمل النفقات التي أنفقتها السلطات عليها لغاية سنة ٥٧٧هـ/١١٨٢م ما يعادل مليون دينار مصري[٤].

ويبدو ان محاولات الفرنج وتطلعهم المستمر الى احتلال دمياط لم تنقطع، وقد تفهم الايوبيون اهدافهم بوضوح، وهم بالمقابل اتخذوا احتياطات أمنية عديدة لحفظها والحيلولة دون وقوعها بيد الفرنج، وقد قام الملك العادل باقامة مدينة قبالة دمياط سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م اقام فيها مع عساكره[٥]، شن الفرنج في نفس السنة هجوماً كبيراً عليها بنية الوصول الى القاهرة وقد صمدت المدينة طيلة اربعة اشهر الى ان تم إسقاط برج السلسلة فيها، وفي خضم هذه الاحداث الخطيرة التي شهدت سيطرة الفرنج على برج السلسلة، توفي الملك العادل وآل الامر الى ابنه الكامل، وبموت الملك العادل وسقوط البرج وحدوث الفتنة الداخلية وانهارت معنويات أبنائها فضعفت قدرة المدينة على الصمود، فلم يبق أمام

(١) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص ص١٠٥-١٠٦" ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٣" الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٦، المقريزي: أتعاظ، ج٢ ص٣١٦.

(٢) المقريزي: الخطط، ج١ ص٢١٥.

(٣) النويري:الالمام بالاعلام، ج١ ص١٧٠.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١ ص٢١٥.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، (بيروت ١٩٩٦) ص٤٦٤" ابو الفدا: المختصر في اخبار البشر، ج٣ ص١٢٢، تقويم البلدان، ص١٠٦" الذهبي: دول الاسلام، ج٢ ص١١٩.

الغزاة مانع من التوغل الى عمق الديار[١]، وفي غضون هذه الاحداث المتسارعة التي جنى الفرنج فائدة كبيرة منها فاحكموا قبضتهم على دمياط، ووضعوا السيف في اهلها، وقد تمكن الفرنج من الاحتفاظ بها الى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، ومما زاد في الأمر خطورةً ظهور التترفي الشرق، إذ أصبحت مملكة الاسلام بين فكي كماشة شرقاً وغرباً وتعرض أمنها لخطر جسيم وأوشكت شعلة الإسلام ان تنطفئ لولا رسوخ الايمان ورحمة الله في درء الاخطار عن الامة فضلاً عن الدور البارز الذي قام به الملك الكامل، وعزمه وثقته بنفسه، ثم ارسل الى جميع الملوك يستنجد بهم ويطالبهم بالحضور شخصياً او ارسال جيوشهم كحد ادنى بعد أن غادر معظم أهل ديار مصر بيوتهم هرباً وخوفاً من الأحداث الخطيرة[٢] .

لم تسلم القاهرة من تأثير وتداعيات هذه الاحداث التي اثرت تأثيراً بالغاً على أمنها وكانت الدافع الاول لاعلان النفير العام في القاهرة وديار مصر جميعها، وتحشيد ما يمكن تحشيده من القوات وارسالها الى ساحات القتال في دمياط[٣] لرد العدوان الذي كان يهدد امن القاهرة[٤] وقد بلغ الأمر حداً اضطرت السلطات جراءه فرض السخرة على كثير من الناس، وذلك بجر الآلات الحربية من داخل مصر الى بلدان اخرى[٥] .

وقد تلمس الجانب الإسلامي التفوق البحري الصليبي في المعارك التي وقعت بينهما، لذلك اصبح لزاماً على المسلمين اتخاذ التدابير اللازمة لمعالجة الموقف، فضلاً عن تقوية الاستحكامات الأمنية في المدن الساحلية وشحنها بالمقاتلين، وقد استفاد الأيوبيون من جريان النيل إذ قاموا بتغيير اتجاهه لأمور عسكرية، كما القوا فيه أواني فخارية تطفو على سطح الماء وتحتوي على مواد حارقة وأحرقت الكثير من سفنهم وإنزال خسائر فادحة بأسطولهم[٦] .

(١) دحلان: الفتوحات الاسلامية، ج٢ ص٩، القاهرة، ١٣٥٤هـ. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٧.

(٢) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص ص١٢٨-١٢٩" المقريزي: الخطط، ج١ ص ص٢١٧-٢١٩، عبد الجبار: عرض وثائقي لفترة صلاح الدين، العنوان سيدي www.canmedia.com

(٣) المقريزي: الخطط، ج١ ص٢١٨.

(٤) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص١٠٥.

(٥) تاريخ ابن الجزري، ص٢١٢.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٤٣. عبد الجبار: عرض وثائقي لفترة صلاح الدين، سيدي بعنوان: www.canmedia.com

٢- الجسور والقناطر:

يرى الكثيرون ان فائدة الجسور تنحصر في توفير الخدمات العامة، لكنها في الحقيقة لم تكن في كل الأحوال تخدم الغرض المذكور فقط، إذ كثيراً ما كانت الجسور تنشأ لأهداف عسكرية، وقد أقامت السلطات الحكومية العديد من الجسور لتلك الأهداف بعد دراسة مستفيضة، ومسح ميداني شامل للمنطقة وبواسطة تلك الجسور كان يتم حصر المياه لأغراض مدنية وعسكرية، وقد تمكنت القوات الايوبية سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م ان تستفيد من المياه المحصورة اثر فيضان النيل، إذ كانت تعزل قوات الصليبيين عن مدينة دمياط، مما حال دون وصول الإمدادات الضرورية إليهم[١].

وقد كان الايوبيون يقيمون الاستحكامات الامنية كلما دعت الضرورة الى ذلك ونظراً لقلق الفرنج من قيام اتحاد بين ديار مصر وبلاد الشام، فقد دأبوا على الاحتفاظ بقلعة الكرك والشوبك وبالمقابل حاول الايوبيون ترسيخ اقدامهم في هذه المنطقة، وقامت السلطات الايوبية في عصر الملك الكامل باقامة قلعة الكرك بعد ان استفادت من دير للرهبان هناك قامت بتحويله[٢] الى قلعة وجعله بمثابة نقطة أمنية في المنطقة فضلاً عن استخدامه كمخزن أمين لخزن الاموال وحفظ الاهل والاولاد، وتبرز اهمية الجسور والقناطر بشكل واضح من خلال تعيين متوليها من قبل السلطان شخصياً[٣]. وقد تمسك بها الايوبيون كثيراً لأنها تتحكم في أمن القاهرة وبلاد الشام واصبح من غير الممكن التنازل عنها[٤].

اقتضت الضرورات العسكرية قيام السلطات الأيوبية إقامة الاستحكامات الأمنية استجابة لتحديات الاعداء، ففي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م وبعد سقوط دمياط، وجدت السلطات ضرورة إقامة مدينة قبالة دمياط تكون مطرقة دائمة على رؤوس الفرنجة لإجبارهم على الانسحاب من دمياط في حالة احتلالهم لها، فتم بناء مدينة المنصورة التي أصبحت قاعدة عسكرية مليئة بالمقاتلين والأسلحة وجنت الحكومة الأيوبية منها فوائد كثيرة[٥].

---

(١) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص٣١٨.

(٢) غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، (الكرك ١٩٨٠) ص ص٦٢-٦٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٤١" العمري: المصطلح الشريف، ص٢٣٧.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٠٩" المقريزي: الخطط، ج١ ص٢١٨" العسلي: فن الحرب الاسلامي،(بيروت ١٩٨٨) ص ص ٢٢١-٢٢٤.

(٥) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٠٧.

ولا يخفى على أحد ما للمنافذ العامة في البلاد من تأثير على أمنها بشكل عام، إذ كان عيذاب منفذاً تجارياً هاماً لديار مصر تكمن اهميته الاقتصادية في ورود التجارة البحرية اليه[١]، فضلاً عن كونه الميناء الرئيسي للحجاج القادمين من الغرب إلى الحرمين الشريفين[٢]، وقد نسق الأيوبيون مع أهاليها من البجاة في عيذاب على عملية الحفاظ على أمن تلك الأنشطة الاقتصادية والدينية بشكل جيد، ووضع فيها الأيوبيون جنداً من القُوص لحمايتها، وكان واليها نائباً لوالي قوص، علماً أن والي قوص من أهم واعظم الولاة في ديار مصر[٣].

وقد وجهت العناية إلى كل المنافذ والنقاط الحساسة في الديار ك (قطيا) التي كانت منفذاً مهماً جداً لاستقبال السفراء وخروجهم بشكل رسمي من والى مصر فضلاً عن أهميتها الاقتصادية[٤].

وهكذا أصبحت عين الدولة الأيوبية ساهرة على كل شبر من ارض ديار مصر وحاولت رعايتها وحمايتها بشتى السبل والوسائل الممكنة، لخلق جو من الأمن والسلام والاستقرار فيها ليتمتع الأهالي بحياة رغيدة في ظل ملكهم.

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٣٦٥، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص١٢١" المقريزي: الخطط، ج١ ص٢٠٤.

(٢) رحلة ابن جبير: ص٤١، ابو الفدا: تقويم البلدان، ص١٢١" المقريزي: الخطط، ج١ ص٢٠٢.

(٣) العمري: المصطلح الشريف، ص٢٢١" ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤ ص١٠١.

(٤) العمري: م.ن، ص٢٢٤" ابو الفدا: تقويم البلدان، ص١٠٨، الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٩٧.

الفصل الثالث

أمن الدولة

أولاً: أمن السلطان الخاص

ثانياً: الأمن الفكري

ثالثاً: الأمن العسكري

رابعاً: أمن البريد

خامساً: أمن السواحل والأنهار والبحار

أقام الأيوبيون مجموعة من المؤسسات الأمنية للحفاظ على أمنهم الشخصي وحكومتهم الفتية بعد ان وجدوا انّهم بحاجة ماسة إلى حماية أمنية لعظم المخاطر التي أحدقت بهم، تمكنت هذه المؤسسات ان تساير الزمن لاسيما بعد تعاظم شأن الدولة وتوسع رقعتها، وقد تمكنت من أداء عملها بشكلٍ مرضي، ولكن ذلك لا يعني نجاحها الكلي، بسبب الأخطار الجسيمة والتحديات الخطيرة التي تعرضت لها أبناء الأسرة وملوكها من قبل خصومها ، وقد حصدت تلك التحديات وبطرقٍ شتى أرواح الكثيرين، وعلى الرغم من تواضع الإمكانيات فإنها أحرزت نجاحات عديدة وباهرة على المستوين الداخلي والخارجي في إفشال تلك المخططات والمحاولات الهادفة للنيل منهم، وقد تم تقسيم هذا الفصل الى مجموعة من المؤسسات حسب أهميتها منها :

أولاً: الأمن الخاص

ثانياً: الأمن الفكري

ثالثاً: الامن العسكري

رابعاً: امن البريد

خامساً: امن سواحل والأنهار والبحار

أولاً : امن السلطان الخاص

أنجبت الأسرة الأيوبية مجموعة من خيرة رجالات العصر كنجم الدين ايوب الذي تميز بحسن السياسة والتدبير، وكذلك أخاه شيركوه الذي اظهر مقدرة كبيرة في الامور العسكرية، وكان أحدهما يكمل الثاني، وتوثقت العلاقة بين الاسرة الزنكية والايوبية لدرجة ان نور الدين لم يكن يسمح لاحد بالجلوس في مجلسه دون اذن الا لنجم الدين[1]، وكان يستشيرهم في كل صغيرة وكبيرة[2]، وصاروا ظهراً قوياً للاسرة الزنكية[3].

(١) ابو شامة: الروضتين، ج١ ص ص١٠، ١٣٠.

وعلى الرغم من العلاقة الودية بين الطرفين، الا ان الظروف قد استلزمت ان تسلك الاسرة الايوبية بعض السياسات الوقتية التي تعارضت مع مصالح الزنكيين[1]، ولكن ما لبث ان تحقق بعد ذلك إخلاصهم في التعامل مع الزنكيين، ووجدوا ان أبناء الاسرة الايوبية لا يمكن الاستغناء عنهم، لاسيما بعد اشتداد مخاطر التحدي الصليبي على امن وسلامة المسلمين واراضيهم، وبالذات في ديار مصر التي انتابها الضعف اثر الصراعات الداخلية، حتى اوشكت ان تقع في قبضة الفرنجة، لذلك فان الزنكيين قد ايقنوا ضرورة توحيد شطري البلاد (الشام، ومصر)[2] وكان ارسال الجيوش الى ديار مصر امراً لا يخلو من مخاطر جسيمة ولم يجد نور الدين احداً من القادة يمكنه تحمل هذه المخاطر غير شيركوه الذي كان معروفاً بمهارته العسكرية الفائقة أهلته لتحمل هذه المسؤولية وقد وافق شيركوه على ذلك دون تردد أو خوف وبعد حملات ثلاثة تحمل خلالها شتى المخاطر تكلل مسعاه بالنجاح والسيطرة على ديار مصر[3].

احدث الايوبيون في ديار مصر تغيرات عديد شملت مختلف ميادين الحياة، ومن الطبيعي ان يواجهوا مخاطر جمة، استلزمت منهم اخذ الحيطة والحذر من انفسهم، مستفيدين من ذلك من نصوص القرآن الكريم: بقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم}[4]،ويبدو ان الأيوبيين كانوا ينحدرون من اسرٍ بسيطة من عامة الشعب، لذلك لم يسهبوا في سرد مآثر تاريخ اسرتهم، مما ساعدهم الى حدٍ بعيد في سلامة هذه الاسرة[5].

ولقد تلمس الايوبيون في ديار مصر حجم المخاوف التي تهددهم، وكانوا على دراية بمكائد الفاطميين وميلهم الى الغدر، وسعة حيلتهم في القتل والتنكيل والاذى، فاضطروا الى اخذ الحيطة والحذر منهم ، وعلى الرغم مما لاقاه شيركوه من المعاناة في حملاته على ديار مصر، فان العمر لم يطل به

(٢) ابو شامة: م.ن، ج١ ص١٥.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣ ص ص٤٣٧-٤٣٨، ابن العديم : زبدة الحلب، ص٣٤٠" ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص٣٠، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر: ج٣ ص٣٥، مع اختلاف النص، بيلي: حياة صلاح الدين، القاهرة ١٩٢٦، ص ص٦١، ٦٢ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص٢٠٤.

(٣) ابن واصل: م.ن، ج١ ص ص١٣٧، ١٤٨، ١٥٥" ابن الأثير: الكامل، ج٩ ص٨٤، تاريخ الزهاوي، ج٢ ص ص١٩١-١٩٢.

(٤) سورة النساء، الاية: ٧٠.

(٥) بيومي: قيام الدولة الايوبية، ص٩.

اذ فاجأته المنية بعد توليه الوزارة بمدة قصيرة لم تتجاوز الثلاثة اشهر، وحل محله ابن اخيه يوسف الذي كان مرافقاً له خلال حملاته على الديار، ولم يكن بأقل منه كفاءة في تدبير الامور، وحظى لدى نور الدين باحترام كبير وكان يكنيه بالامير الاسفسهلار[٦].

شعر صلاح الدين بضعف حالته الامنية، وهو في بلاد بعيدة عن اهله وذويه، لذلك وجد ان افضل سبيل لتقوية مركزه الامني هو في إحاطة نفسه بأهله وذويه، فأرسل إلى سيده نور الدين وطلب منه ان يرسل اليه والده واهله، فاستجاب لطلبه[١]، وخطى خطوة اخرى كان لها اثر فعال في تعزيز امنه، وذلك بارضاء اهله وأمرائه وكسب ودّهم بتوزيع دور وقصور الفاطميين عليهم[٢]، وقد تسلم والده قصر اللؤلؤة، وابن اخيه تقي الدين عمر منازل العز[٣] فلم يبخل بشيء عليهم، وكان يردد دائماً ويقول: (لم ابلغ ما بلغت الا بمداراتهم)[٤].

أثارت هذه الإجراءات حفيظة أمراء ومؤيدي الدولة الفاطمية، واظهروا معارضة شديدة، تارة باللسان واخرى بالسيف، استهدفت اعادة مجد دولتهم، واتبعوا في سبيل ذلك مختلف السبل للنيل من الايوبيين[٥].

ويبدوان الملوك والحكام اذا ما شعروا بالاخطار من حولهم، عمدوا كما أورد ابن الأزرق إلى الإكثار من العيون في النهار، والحرس في الليل[٦]، وقد كان حراس صلاح الدين هم من الاسدية، يقودهم أبو الهيجاء[٧]، وتكونت منهم فيما بعد نواة جند الحلقة[٨]، ومن مات منهم، كان النائب يعوض عنه بغيره[٩]، ويبدوان صلاح الدين قد فضل ان يكون فرقة اخرى لحراسته بدلاً من الاسدية

---

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩ ص٥٠. ويعني بذلك مقدم العسكر" القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص١٣.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩ ص١٠٢" ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ص١٨٥-١٨٦" الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩ ص٥٠.، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٧.

(2) Lanpool: A history of Egypt, p. 193.

(٣) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ق٢ ص ص٣٧٩-٣٨٠.

(٤) ابو شامة: ذيل النوادر، ص٢٤" الحنبليس: شفاء القلوب، ص٢٤" عاشور: صلاح الدين ص ص١٨٧، ٢٨٩.

(٥) العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة، المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢ ص ص٣٨٠-٣٨١، العيني: السيف المهند، ص١٩٦.

(٦) بدائع السلك، ص١٧١.

(٧) جب: صلاح الدين ص١٥٥" كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٣٠.

(٨) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٢٨" الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٠٠.

(٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٥٢.

عرفوا بالصلاحية[١٠]، وكان غالبيتهم من الكورد[١١]، وواجبهم الاساسي هو حماية السلطان من الاخطار، ولغرض السيطرة على الموقف والحفاظ على حياة السلطان، يكونون حلقة حول السلطان اينما وجد نهاراً، اما في الليل فكانوا يحرسون السلطان بشكل منتظم، وكانوا يتناوبون الحراسة مقعدين على بناكيم الرمل[١٢]، واتخذت هذه الاجراءات سفراً وحضراً، حول دهليزين[١]، وعادة كان حراس الدهليز من أرباب الوظائف من النقباء وغيرهم، ويطوف الزتة حول قصره مرتين ليلاً احداها في بدء النوم والاخرى عند الفجر[٢].

وكان نظام حراسة قصور الملوك والسلاطين منتظماً، اذ كان حراس القصر من الداخل خاضعين لنظام امني دقيق، وكان على الحارس الالتزام به، حيث كان لكل حرس مكاناً خاص، لا يحق له تغييره، وبلغت هذه الاجراءات من الضبط والربط درجة حتى لم يكن يسمح لأحدهم بالالتفاتة[٣]، ويبدوان حراس قلعة الجبل كان معظمهم من السودانين لنوبيين[٤].

ومن المعلوم ان الايوبيين استولوا على قصور الفاطميين، وأقاموا فيها، وقد بلغت تلك القصور منتهى الحصانة، اذ كانت طليقة من كافة الجوانب، وعين لحراستها عدداً كافٍ من الحراس تكونت من الرجالة والفراسان وبلغ عددهم الفاً[٥]، أما الاحتياطات الأمنية في الداخل، فيبدو أنها كانت في غاية الدقة، حيث وزعت في الكثير من الاماكن فسقيات مملوءة بالماء، لاطفاء الحرائق[٦].

---

(١٠) وهم من الكورد والترك، Tsygitak , The 1-q ta system of Egypt and syria under the Ayyubids, Arabic Journal for Humaintic, Vol. 10. No.38 1990, P. 351.

(١١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص١٦٨، وهم خليط من الجند والمتعممين، (القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص١٦).

(١٢) القلقشندي: م.ن، ج٤ ص٥١. والمقصود بها الساعة الرملية.

(١) القلقشندي: م.ن، ج٤ ص٨.

(٢) القلقشندي: م.ن، ج٤ ص٥٠.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١٦.

(٤)O'clery: The Pega Sus of Egypt. P.32.

(٥) خسرو: سفرنامة: ص٨٩. وفيه: كان خمسمئة منهم فرسان وخمسمئة من المشاة.

(٦) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٨٧.

اتخذ السلطان ايام المواكب والمناسبات، تدابير امنية تظهر عظمة السلطان وقوته الامنية، حيث كان يرافقه المماليك فضلاً عن خاصة حراسه، وكان حراس تلك المناسبات خليطاً من العناصر من مقدمي المماليك والاستادار، والخزائن والجنائب والهجن والاطباء والكحالين والجراحين[٧]، وتناط المسؤولية إلى أمير نقابة الجيوش[٨]، وهو واحد من الحجاب الصغار، ويقتصر واجبه على حراسة السلطان في المواكب والسفر[٩]، وعلى الرغم من الغاء الايوبيين بعض المراسيم التي وجدوها زائدة لكن نستطيع القول بانهم اتخذوا مراسيم ملوكية[١٠].

وفيما يتعلق بنوعية الحراس الذين يتم اختيارهم لهذا الغرض، نستشف من النصوص التاريخية بانهم اختاروا حراساً متميزين بالقوة والشجاعة والاقدام فمنهم: أياز الطويل الذي كان بمثابة الحارس الشخصي لصلاح الدين يحمل دبوساً يزن اكثر من عشرة ارطال من الحديد وعندما يضرب به فارساً يهشمه به[١]، وكذلك نجد من بين حراس الملك الصالح نجم الدين من تتجاوز اعطياته اعطيات عشرة جنود لشجاعتهم وبسالتهم[٢]، ولم تقتصر الحراسة على السلطان فقط، بل كان لكبار المسؤولين حراس ايضاً، وغالباً ما كان اختيار الحراس يقع على من تتوفر فيه الثقة والامانة فضلاً عن القوة والشجاعة[٣].

يتبين من خلال ما ذكر ان الملوك والسلاطين قد احاطوا انفسهم بسياج امني محكم، يتكون من عدد كبير من الحراس المدججين بانواع الاسلحة، حتى صار من الصعب النيل منهم، لذلك ظهرت طرق واساليب عديدة لخرق هذا الجدار الامني والتنكيل بهم، منها دس السم لغرض قتل الخصم، وقد صارت هذه الطريقة شائعة انذاك وقد احتاط الملوك لانفسهم، لئلا يقعوا ضحية لهذه المكيدة، وقد حاول الخصوم

(٧) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٥٠.

(٨) وفيها ثلاثة نفر، اكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء، وتارة يكون امير طبلخاناه وفي غالب الاوقات امير عشرة، ودونه اثنان من جند الحلقة، ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته (القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص١٩٣).

(٩) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٢٢.

(١٠) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٦٤.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٠٩.

(٢) المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢ ص٣٥٣.

(٣) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص ٤٠ ، البنداري: سناء البرق، ق١ ص٢٥٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٠٩.

دس السم في الاطعمة والاشربة المعدة لهم، لذلك فان المأكولات والمشروبات المعدة لهم كانت تخضع لرقابة امنية شديدة، اذ كانت خاضعة لفحص دقيق من قبل الاطباء الامناء المختصين[٤]، كما كان مطعم السلطان يرتبط بقصره مباشرة عن طريق سرداب، للحيلولة دون تعرض المأكولات والمشروبات المهيئة له في الطريق الى دس السم فيها[٥]، وقد تفنن الناس في هذه الحقبة في ادخال السم في الفواكه[٦]، وعلى الرغم من التطور الحاصل في الهجوم فان اساليب الردع كانت تسير معها خطوة بخطوة، وقد ظهر من الملوك من ذاع صيته في شدة اليقظة والحذر كالملك الصالح نجم الدين ايوب، وعلى الرغم من ذلك فانه تعرض لمؤامرة خطيرة، لم يتمكن من تشخيصها الا بعد فوات الاوان، إذ ان اعداءه عرفوا ميله الشديد الى قراءة القرآن، فأهدوا له مصحفاً في غاية الروعة والجمال وقد سمموا اوراقه، وحالما رأى هذا المصحف اشتاقت نفسه لقرأته، وافتتن به، وظل يقرأه ليلاً ونهاراً حتى أخذ يشعر بثقلٍ شديد نتيجة سريان السم في دمه إثر تقلبه الأوراق بأصابعه بعد ترطيبه بالفم، ولم يطل به العمر بسبب ذلك اذ توفي بعد مدة قصيرة، وقبل وفاته تمكن من التعرف على غريمه، فانتقم منه بطريقة مماثلة، اذ عرف شغفه الشديد بالسروج، فعمل له سرجاً مسموماً، وادرك بانه عندما يراه لن يستطيع ان يستغني عنه، وفعلاً وبعد وفاته استولى على السرج وهومسموم، وهكذا انتقم منه بعد وفاته[٧].

كان للملوك اطباء قد تميزوا فضلاً عن المهارة والكفاءة في ممارسة مهنتهم بالامانة والثقة، وقد اختص بالسلطان صلاح الدين عدد من الاطباء المشهورين منهم: ابو البيان بن المدور، الذي لقب بالسديد، وكان يهودياً، وخدم خلفاء الفاطميين وتواصل في خدمته لصلاح الدين، وكان محل ثقته في المعالجة، فضلاً عن أنه كان يعالج المرضى. وعندما بلغ سن الشيخوخة تعذر عليه فصد المرضى، خصص له صلاح الدين راتباً تقاعدياً منتظماتً بمبلغ (٢٤) ديناراً شهرياً، قام باستلامه لحين وفاته سنة ٥٨٠هـ[٢].

كانت شراسة العداوة والحقد والكراهية قد اظهرت رأسها بأساليب وأشكال شتى، وحتى الجوامع والمساجد لم تكن مكاناً امناً للخلفاء والملوك، وقد استغل اعداؤهم فريضة الصلاة للايقاع بهم، لذلك

(٤) العمري: المصطلح الشريف، ص١٤٣.

(٥) خسرو: سفرنامة، ص١٠٨.

(٦) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٧١.

(٧) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص ص٣٧٢-٣٧٣.

(٢) ابن ابي اصيبعة: عيون الابناء في طبقات الأطباء، ص٥٧٩ وما بعد.

فان الايوبيين قد اقتدوا بغيرهم في اتخاذ المقصورة لاداء الصلاة، وقد عمل صلاح الدين مقصورة كبيرة للصلاة في قلعة الجبل كانت مصنوعة من الحديد[٣].

تألق نجم صلاح الدين واسرته بفضل دعوته الى الوحدة السياسية والجهاد ضد الصليبيين، وبسبب هذه المبادئ السامية تعرض امنه الشخصي الى خطر جسيم، وتوحدت كلمة اعدائه ضده، على الرغم من تضارب مٌصالحهم لاجل النيل من السلطان واخراجه من الساحة السياسية، وبدأت الاسماعيلية الحشبشية قبل غيرها مهمة القيام بقتل السلطان، وتعاون معهم سعد الدين كمشتكين امير حلب، مقابل اموال كثيرة تدفع لمقدمهم سنان[٤]،وكانت الاسماعيلية تعتمد على الفدائيين من مقاتليها الذين وجدوا في انحاء المملكة الاسلامية، وقد كانوا يستغلون انشغال المسلمين بقتال اعدائهم ليغرزوا سيوفهم في ظهورهم، وبناءً على الاتفاق المذكور قامت مجموعة من الحشبشية سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م بمحاولة اغتيال السلطان وهو يحاصر مدينة حلب[٥]، وتمكنوا من التسلل الى داخل قواته، وبفضل يقظة العيون والمخبرين تم التعرف على هذه الفئة الضالة قبل البدء بالتنفيذ، وعندما علموا بافتضاح امرهم، استمروا في غيهم، وهم من فتاك الاسماعيلية[٦]، وحاولوا خرق الجدار الامني للسلطان اذ هجموا على الحراس واصابوا واحداً من كبار امراء السلطان، وتوفى متأثراً بجراحه[٧]، وحاول احدهم جاهداً الاجهاز على السلطان وقتله، الاّ انه قتل قبل ان يصل اليه، ونجم عن هذه العملية قتل عدد من حراس السلطان

---

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٦، واول من اتخذ المقصورة في الاسلام معاوية ابن ابي سفيان (٤١-٦٠هـ).

(٤) العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ورقة٦٥" الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨٦، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص٣٥٤، عرف بشيخ الجبل الذي توفى في سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م وقد قدر عدد اتباعه بستين ألف. Mayer: Thecrusades, P.123

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ص٣٦٧، ابن كثير:البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٢٥، سيد الاهل: ايام صلاح الدين ص٩٢.
Jonse Terry and Ereira Alan: Crusades, England 1996, p 111.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ق١ ص٣٢٨، نوري ، دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر و الشام و الجزيرة، (بغداد ١٩٧٦م) ص٣٧٨.

(٧) ابن واصل:مفَرج الكروب ج٢ ص٢٤، د.فوزي، فاروق عمر: مؤامرات الحشبشية الباطنية لاغتيال صلاح الدين الايوبي، مجلة المورد،العدد٤، سنة١٩٨٧ ص٨٧.

والقضاء على المهاجمين، وتخلص السلطان بفضل شجاعة ويقظة حراس جهازه الامني[١] وإخلاصهم له، من موتٍ أكيد.

وجد السلطان بان الرد على العدوان ضروري، اذ اوعز الى اخيه العادل القيام بمعاقبتهم وتمكن الاخير من مطاردتهم وإحراق عدد من المدن التابعة لهم، فضلاً عن قتل اعداد كبيرة منهم في تلك النواحي[٢].

ويبدوان الحشيشية تمسكوا بموقفهم واستمروا في عملياتهم الانتحارية بغية قتل السلطان، اذ عادت تلك الفئة مرة اخرى لتجرب حظها العاثر ففي سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م عندما كان السلطان مشغولاً بمحاصرة قلعة عزاز[٣]، ونظمت العملية هذه المرة بشكل ادق واضبط من سابقتها، ويبدوا انهم كانوا قد استفادوا من الفشل الاول، ولغرض خدعة الجهاز الامني والحراس العائدين للسلطان وتمويههم، فقد قام المهاجمون بارتداء الزي العسكري، وتسللوا كالعادة الى داخل الجيش، ولم يشعر بهم احد، واخذوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه وقتله، واستطاعت هذه المجموعة ان تصل الى السلطان وتهجم عليه وتطعنه بالسكين على رأسه ولولا الخوذة على رأسه لقتل[٤]، وقد ابدى السلطان شجاعة فائقة، اذ كتف المهاجم ودافع عن نفسه، ولولا وجود الحرس وسرعتهم في الحضور اليه لتأذى السلطان، لان المهاجم كان يضربه على الرغم من تكتيفه له، ويذكر ابن كثير بان احدهم قد مد السلطان على الارض واراد ذبحه[٥]. يبدوان العملية كانت منظمة هذه المرة، اذ لم يهاجم الفدائي الثاني لحين قتل الاول، وهكذا على التوالي هاجمه ثلاثة منهم حيث ولى الرابع هارباً بعد ما رأى ما انزل برفاقه، ولم يتمكن من الخلاص، فقتل[٦].

مر السلطان من جراء هذين الهجومين بامتحان قاسٍ، وايقن بضرورة اخذ الحيطة والحذر على كافة المستويات وحفزته هذه الاحداث لمراجعة نفسه، فحاول قصم ظهر الاسماعيلية، وبعد ان علم بان

---

(١) سبط ابن الجوزي:مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٢٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٢٥، المورد، العدد ٤ ص٨٧.

(٢) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٩٢، نوري: سياسة صلاح الدين ص٣٨٢.

(٣) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨٣، العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ص٦٧، نوري: سياسة صلاح الدين ص٣٧٨،

(٤) البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص٢١١، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٣٥، ابو شامة: الروضتين ،ج١ ص٢٥٨. تاريخ ابن الوردي، ج٢ ص٨٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٧، علي: خطط الشام، ج٢ ص٤٩، الباز العريني: الشرق الادنى ص٥٥، نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٨٥.

(٥) ابو شامة : الروضتين، ج١ ص٢٥٨، البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٨٨.

(٦) البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص٢١١، تاريخ ابن الوردي، ج٢ ص٨٤، وقد ورد في سبط ابن الجوزي عدد المهاجمين كانوا ثلاثة (مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٣٥).

الحلبيين من وراء هذه المؤامرات الخطيرة، عاود النزول عليها[٧]، ويبدوان العداء بينه وبين الحلبيين كان مستفحلاً حتى انهم قد اطلقوا سراح ارناط –رينالدي شاتيون- في وقت سابق، لكي يوجه ضربة عسكرية الى صلاح الدين، وقد تمكن من ذلك في موقعة الرملة سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م التي قتل فيها عدد كبير من المقاتلين، وكاد السلطان أن يهلك نفسه فيها، كما ان اخا السلطان بوري كان قد قتل في حصار حلب سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م متأثراً بجراحه[٨]، لذلك فان العلاقة بينه وبين الحلبيين قد ساءت لدرجة اضطر السلطان معها الى استخدام العنف ضدهم، لوقوفهم مع الاسماعيلية، وقام باتخاذ بعض الاجراءات التي رأها ضرورية لاستتباب

الأمن ومكافحة الشغب[١] تمثلت بمنع دخول وخروج احد الى حلب، كما استولى على أراضيهم ووزعها على أمرائه[١]، ثم بدأ بترك الاختلاط بعامة الناس، واذا اقتضى الحال مقابلة شخص ما حدد له موعد[٢]، وكان الداخل إليه يفتش بدقة، مع بقاء الحراس معينين في غرفته حتى لوكانت المقابلة سرية[٣]، ثم اخرج من بين عساكره الذين لا يعرفهم[٤]، واخذ ينصب سرادقه داخل سرادقات اخرى، من الخشب المغطى باللبد ويحرسها الحراس[٥]، وللمزيد من الحيطة والحذر كان يطرح الجير والرمل حول دهليزه[٦]، ويحرسه الف فارس، وكان يقوم في بعض الاحيان بالتأكد شخصياً من الخفارة وبيده

---

(٧) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٦٠، نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٨١.

(٨) الدواداري: م.ن ج٧ ص٦٢.

(١)Jonse Terry and Ereira Alan: Crusades, England 1996, p 111

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢٥٩" المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٦١، نوري: سياسة صلاح الدين ص١٩٣، بيومي: قيام الدولة الايوبية، ص ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٤٥، الغساني: المسجد المسبوك، ج٢ ص٢١٢، سيد الاهل: ايام صلاح الدين، ص٦١.

(٣) نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٨٤.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢٥٨" العمري: مسالك الابصار، ج٧، ورقة٦٨، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٩٢، علي: خطط الشام، ج٢ ص٤٩.

(٥) البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص٢١١، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٤٠.

(٦) نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٨٥.

الفانوس[٧] وبدأ بلبس العدة الكاملة من التجهيزات التي تقيه من الأخطار المحتملة كالمغفر والزرد والكزاغند[٨] الذي قلما فارقه في الركوب[٩].

يبدوأن الطرفين المتنازعين قد وجدا أن الصراع لا يحل مشاكلهم، وان المؤامرات لن تجدي نفعاً لذلك فلجأ الى وسيلة اكثر نفعاً وامناً لهم، فقام شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين صاحب حماة بمهمة الاصلاح بينهم[١٠].

أما فيما يتعلق بأمنه وهو يخوض المعارك، فكان يصطحب معه اولاده واخوته وخواص امرائه، وامراء القبائل الكورد في الحروب والمعارك[١١] وكان يطوف بنفسه على الأطلاب ويحثهم على القتال والمثابرة[١٢]، وقد استشهد الكثيرون من المقربين إليه[١٢].

ان الحفاظ على الامن الشخصي والاسري يتوقف على حسن التعامل مع المستجدات الجديدة، وافضل السياسات ما تراعى فيه المصلحة العامة على الخاصة، ويروى ان السلطان قد ابدى موقفاً متشدداً ازاء عدد من الامراء بحق سيده نور الدين، عندما اراد الاخير قصد ديار مصر، وسرعان ما اسعفه والده وصحح له موقفه هذا وكان موافقاً لامن الاسرة الايوبية، لان الدخول في صراع مع بلاد الشام لا يحقق إلا المخطط الصليبي، ويهدد الامن والاستقرار في كل من القاهرة وبلاد الشام[١]. علماً إن اقرب المقربين الى السلطان كان ينفي عن صلاح الدين وقوفه ضد سيده نور الدين قائلاً: "لا يجوز أن يقال شيء من ذلك"[٢]، وقصص التاريخ حافلة بذكر الكثير من المأسي عن الملوك والامراء الذين

---

(٧) قلعجي: صلاح الدين، ص ص٢٦٩-٢٧٠.

(٨) ابن العديم: زبدة الحلب، ص ص٣٧١-٣٧٢.

(٩) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٤٢، العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ص١١٢.

(١٠) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص٩٤، أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر: ج٣ ص٥٩، العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٢٩، علي: خطط الشام، ج٢ ص٥٠، نوري: سياسة صلاح الدين ص٣٨٥.

(١١) الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (النجف ١٩٦٨) ج١ ص٣٦٩.

(١٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٠٠، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٢٨.

(١٢) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨٨، العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة.

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٤٩، الباز العريني: الشرق الادنى، ص١١٢.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٧.

تسلموا للغرور فكانت عاقبته عليهم جليلة وسيئة، كما حصل للملك الكامل بن الملك العادل، فقد اجتمع حوله أكثر من ثمانية عشر ملكاً لدعمه ومساندته لانقاذ دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، غير انهم سرعان ما انفضوا من حوله بعد ان سمعوا منه ألفاظاً تنم عن غروره وكبريائه وعدم ايفائه بعهوده لهم[٣]. كما حصل امر مماثل لتورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين، حيث كان غائباً عن ديار مصر عندما توفي والده سنة (٦٤٧هـ/١٢٥٠م) واخفت زوجة ابيه شجرة الدر هذا النبأ، ولم تعلنه لحين وصول ابنه تورانشاه من صرخد، وقد ساعدها في ذلك عدد من امراء المماليك، وعند عودة تورانشاه وتسنمه مقاليد الحكم انكر على زوجة ابيه جميل صنعها ومن معها من الامراء فقام بإبعادهم عن مناصبهم وتعيين أمراءً ممن حضروا معه، فلم يرض ذلك الأمراء المبعدون فدبروا مؤامرة لقتله في قصة مشهورة[٤].

في الوقت نفسه اظهر عدد من الملوك والسلاطين الايوبيين كثيراً من الحلم والحكمة والدراية تجاه السياسة، يصعب معه كشف المآخذ عليهم، وبذلك حافظوا على الامن والسلام اينما كانوا. وقد اشتهر الملك العادل بالحذر الشديد فلا يقدم على اتخاذ قرار الا بعد الدراسة والتمحيص، واذا سمع ما يكره سكت، وكأنه لم يسمع[٥] واتصف بالدهاء والسياسة، وانتهج سياسة الملوك العظماء باعتبار (الكيد ابلغ من الأيد)[٦] ولقد هجاه الشاعر جعفر بن شمس الخلافة (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) مرة وأرسل قصيدة الهجائية إلى دار الوزارة بالقاهرة التي مطلعها:

يا ظالماً لقب بالعادل ... ويا ناقصاً لقب بالكامل

أهلكتما جميع الورى ... لا عشتما دهر إلى قابل

ولأجل الحفاظ على سمعة أسرته وأمنها داهنه العادل وأرضاه وشرط عليه أن لا يسمع قصيدته أحداً، وأن لا يطلع عليها شخص، لان الحفاظ على أمن الأسرة كان مهماً عنده[٧].

---

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٢٤٨.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٧٨٢" تاريخ ابن الوردي: ج٢ ص١٧٨" العيني: عقد الجمان، ج١، ص ص٢٣-٢٤.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٩٤.

(٦) الازرقي: بدائع السلك في طبائع الملك، ص١٧٠.

(٧) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٧٧، وكان يخاف من تشهير الشعراء به (الغساني: المسجد المسبوك، ج٢ ص٣٦٢).

خاف الناس من شدة العادل وبطشه وتفننوا في التنكيل به فتفنن هو بإبطال هذه المؤامرات الواحدة تلو الاخرى، ولاشك ان الفضل في ذلك يعود الى حذر ويقظة جهازه الامني، وانتاب الناس الخوف الشديد من الفرنج بعده، وتمكن من السيطرة على الأمور، إذ سلم ادارة الممالك الى أولاده وساهم معه وزيره ابن شكر[١]، وكان من سجاياه اخذ الأمور بجدية، وكلما داهمه خطر ما تهيأ له، حيث نقل سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م اهله وامواله واولاده الى قلعة الكرك[٢].

وقد سبق أن تناولنا ابنه الكامل بالحديث عنه وإبراز الجانب السلبي من صفاته، على الرغم من ذلك فانه يعد من أبرز الملوك العظماء، والفارق بينه وبين والده انه كان اقل سفكاً للدماء منه، وكان صبوراً هادئاً مع الاحداث، وعندما علم بتدبير عماد الدين احمد المعروف بالمشطوب الهكاري الكردي مؤامرة لعزله وإحلال أخيه الفائز محله تحلى بالصبر واظهر السيطرة على عقله[٣] وأورد ابن العديم بأنه ترك الجبهة حفظاً على أمنه لحين أن يتسنى له أن يخرج ابن المشطوب من البلاد الى الشام[٤]، وبفضل مساعدة الملك المعظم[٥]، وقد أبدى مهارة فائقة في التخلص من المناوئين له، لكي لا يعلم به المعارضون ويموه عليهم، واستخدم النصارى في قتلهم [٦]، وكان ذكياً وفضاً لم يفسح لأعدائه الجو المناسب للتحرك بحرية وامان، اذ لم يترك القاهرة خوفاً منهم[٧]، وحاول قدر المستطاع أن لا يقابل أعداءه وجهاً لوجه من أجل أن لا يسود القاهرة الفوضى والاضطراب.

ولم يكن اهتمام الايوبيين منصباً على الأمن الشخصي فحسب، بل حافظوا على سمعتهم ايضاً، فصلاح الدين –مثلاً- كان شديد الحرص على مراقبة أبنائه، وكان يمنعهم من مخالطة القيان[٨] وكان العادل لا يسمح بدخول خصي بالغ داره، وفي الوقت نفسه كان نزيهاً عفيفاً لا ينظر إلى غير حلاله[٩]،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص١٦٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٨٢.

(٣) المقريزي: م.ن ج١ ق١ ص١٩٦، قلعجي: صلاح الدين، ص٤٨٧.

(٤) زبدة الحلب، ص٤٦٣، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٩٩.

(٥) المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢ ص٣٤٣، السلوك، ج١ ق١ ص١٩٨.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٧٢١.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٢٢٠.

(٨) الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٢٤٧، علي: خطط الشام، ج٢ ص١٦.

(٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص١٦٧.

وإذا ثبت لهم سوء سيرة أحد أمرائهم وعمالهم فيما يخص الجانب الأخلاقي، فانهم لم يكونوا يغضون الطرف عنه حتى لوكان من اقرب المقربين اليهم، وعلى هذا الاساس عزل الكامل الملك المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد قرا ارسلان سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م بسبب قبح سيرته، وتعرضه لحرم الناس[10]، ويمكننا القول: إن الحرص الأيوبي كان نابعاً من تأثير الزنكيين عليهم، حيث كانوا حريصين جداً على حياة الأهالي لاسيما عوائل المقاتلين الذين توجهوا الى جبهات القتال، فلم يقبلوا من احد المساس بحياة عوائلهم، ومن خالف ذلك كان يتعرض لاشد العواقب[11]، كل ذلك كان كفيلاً بحفظ امنهم وامن الاهالي من الجوانب كافة.

وكذلك لم يغفلوا عن الاهتمام بهندامهم التي تعكس نوعاً من هيبتهم، وتميزوا عن الآخرين بالملابس الخاصة بهم، ومنهم من أخذ هذا الأمر بجدية بالغة، فالملك المسعود سلطان اليمن في إحدى زياراته للقاهرة وجد أن أحد الأمراء يلبس لباساً يشبه لباس الملوك، فنهاهم عن ذلك، وحذرهم من العودة الى فعل ذلك لكي يميز الملك عن أقرانه[1]. وحذا حذوه الملك الصالح نجم الدين ايضاً[2]، وفضلاً عن ذلك فانه عرف عنه أيضاً تحليه بالأخلاق الكريمة الفاضلة[3] وكان حريصاً على أداء حقوق الناس، فعندما أصابه المرض استدعى من له حق عليه ليسترده له، ورد للجميع مالهم[4] وقد اشار الجزري انه اخذ املاك الناس عند بنائه الروضة[5] ربما يكون ذلك سبباً لرد الحق الى الاخرين. والاهم من ذلك هو عدم تدخلهم في شؤون القضاء، حيث تركوا العدل يأخذ مجراه[6].

ومن أولويات أمن أسرتهم، حفاظهم على أصالتها، فلم يقبلوا بانتحال نسب الآخرين لهم، فعندما ادعى الملك العز إسماعيل بن سيف الاسلام طغتكين النسب الأموي، وقف العادل ضده وكذب

(١٠) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ص١٢-١٣" الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٠٨، تاريخ ابن الجزري، ص١٤٦.

(١١) علي: خطط الشام، ج٢ ص١٦.

(١) تاريخ ابن الفرات: ج٤ ق٢ ص٢٣٨

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٧٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٣٣.

(٤) المقريزي: م.ن ج١ ق٢ ص٤٠٤، قلعجي: صلاح الدين، ص٥٥٥.

(٥) تاريخ: ص١٧٩.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٢٨.

ادعاءه قائلاً: "لقد كَذَبَ إسماعيلُ ما نَحنُ مِن بَني أميةَ أصلاً"[7]، وقد حظي التأكيد على عراقة النسب عندهم بأهمية بالغة حيث كان يفرق بين ابن الأمة وابن الحرة بينهم[8].

يبدو أن اتخاذ الطريق القويم والسلوك السليم قد رفعا من منزلة هذه الاسرة، اذ بات وجودهم ذلك ضرورياً لاستتباب الأمن في البلاد، حتى إن المماليك في بداية حكمهم شعروا بحاجتهم الماسة وأدركوا انه لا يمكن التغلب على المصاعب التي تواجههم ولا إضفاء الشرعية على حكمهم إلا بالمشاركة معهم[9]، وقد حدث في اليمن ايضاً حالة مماثلة[10].

نستنتج من الاحداث السالفة الذكر ان الوجود الأيوبي اصبح واقعاً مقبولاً الى حد ما، لدى المصريين واليمانيين، اكثر من حكم المماليك الذين اعقبوهم.

ثانياً: الأمن الفكري

لا يقل الغزو الفكري خطراً عن العمل العسكري، بل كثيراً ما يكون الخطر الأول أشد واكثر تأثيراً من افتك الأسلحة واقواها، وقد شكلت الافكار الهدامة خطراً مباشراً على الدولة الايوبية، التي كانت ترصد تحركاتهم بصورة مستمرة، وبدقة بالغة، لكي تحد من خطورتهم[11] وقد كانت هذه المراقبة تشمل أيضاً بعض الطوائف الدينية المتطرفة التي خرجت عن الفكر الاسلامي القويم، كالنصيرية[1] مثلاً فضلاً عن المشكوكين في دينهم والذين يتهمون بالزندقة[2]. وقد اتخذت الدولة موقفاً صارماً وحازما من هؤلاء جميعاً، وتركت امر اصدار الاحكام عليهم الى القضاء، إذ يقوم المجلس القضائي باصدار احكام

(٧) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٣٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٥٣ابو شامة: ذيل الروضتين، ص١١، الذهبي: العبر، ج٣ ص ص١٠٧، ١٢١، تاريخ ابن الفرات ج٤ ق٢ ص٢٣٠، مع اختلاف النص.

(٨) الذهبي: العبر، ج٣ ص٢٦٦.

(٩) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص ص٣٦٩-٣٧٠.

(١٠) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٤٠٧.

(١١) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٥ ص١٣٨.

(١) النصيرية: وهم من غلاة الشيعة، يقولون: إن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص، وكانوا يقصدون شخص الإمام علي، فظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم، وأخذ بأيديهم" (الشهرستاني: الملل والنحل، ح٢، ص١٣٨).

(٢) العمري: المصطلح الشريف، ص ص١٩٦-١٩٧.

تتوافق مع الشريعة الاسلامية[٣]، وقد اتخذت السلطات الأمنية إجراءات حاسمة بحق السهروردي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م بعد أن ثبتت عليه فساد العقيدة [٤]، مما اضطر السلطان صلاح الدين الى الايعاز الى ابنه الظاهر بقتله [٥]،ليتم بعد ذلك إنزال العقوبة نفسها بتلميذه أيضاً للأسباب نفسها[٦].

على أن الفتوى لم تكن تنص على القتل في جميع الحالات، فقد تكتفي بالنفي أحياناً[٧]، وإن الأيوبيين كانوا يتبنون العقيدة الاسلامية، فانهم لم يتساهلوا مطلقاً مع الأفكار التي تهدد هذه الشريعة، والحقيقة ان كثيراً من الافكار الهدامة نشأت بعد اطلاع المسلمين على الأفكار الفلسفية للأمم والشعوب الاخرى، كاليونان والهند وغيرهما، إن الصراع بين الدين والفلسفة قد اشتد واصبح الفلاسفة مهددين من قبل السلطة، واضطر الملوك الى مسايرة الرأي العام، ومعاداة الفلاسفة وكان صلاح الدين يرى شخصياً إن هذه المذاهب الفلسفية تسبب صدعاً للوحدة الدينية الإسلامية وكان يكره الفلاسفة ورجالها ويرى أنها مفسدة للعقول. وقد أنكر كثير من العلماء الاشتغال بعلوم الفلسفة والمنطق[٨]، بل منهم من أفتى بتحريمها شرعاً، ولاسيما ان بعض هذه العلوم كان من شأنها أن توسع الهوة الموجودة أصلاً بين الجماعات الإسلامية وتعمقها. وقد مثلت الرافضة[٩] التي كانت أفكارها تدعو إلى التفكك والانقسام، وهو ما جعل خطرها كبيراً على أمن الدولة، وقد تتبعت السلطات هذه الجماعات وأحالت من ثبت عليه هذه التهمة الى المجالس القضائية، واختلفت العقوبة باختلاف طبيعة التهمة ودرجة خطورتها. وقد يكتفي المجلس بردع المتهم ومطالبته بكتابة تعهد خطي [١٠] في حين تصل العقوبة في

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص٣٠٦.

(٤) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص٣٠٣، الذهبي: العبر، ص ص٦، ١١٥" دول الاسلام، ج٢ ص٩٩، الكيالي: سامي: السهروردي، القاهرة ١٩٦٦، ص٣٨ وما بعد.

(٥) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٠٢، تاريخ ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص٥٧، بروكمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ص٣٥٩-٣٦٠.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٢٧.

(٧) ابو شامة: الروضتين، ج٢ ص٤٦.

(٨) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٦٥٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٢٧.

(٩) تعريف: يقولون بالوهية الأئمة و اباحوا محرمات الشريعة و اسقطوا وجوب فرائض الشريعة. (البغدادي: الفرق بين الفرق، (بيروت ١٩٧٧) ص

(١٠) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص١١٥.

أحيان أخرى الى القتل، ولم تكن العقوبات ملزمة للتنفيذ فقد اصدر المجلس القضائي حكماً يدين العاضد ويهدر دمه ولكن صلاح الدين لم يوافق على انزال العقوبة به نظراً للعلاقة الحميمة التي كانت تجمع بينهما، كما كان منصبه الذي هو خليفة المسلمين عقبةً حالت دون التنفيذ[١].

وقد تبين للسلطات الأيوبية ان أنصار الدولة السابقة عازمون على خلق الاضطرابات والبلبلة في القاهرة، لذلك فقد تركزت أنظار السلطة عليهم، ورصدت تحركاتهم، ولم يترك لهم المجال، كما قامت بسلسلة من الإجراءات كان أولها إلغاء عبارة (حيّ على خير العمل) من الأذان، وأمرت بذكر الخلفاء والأئمة [٢] كما قامت ببيع الكتب التي لا توافق مذهب السنة، وقد بلغ عدد الكتب المتعلقة بمذهبهم اكثر من مليوني مجلد، وفوضت هذه السلطات القاضي الفاضل حق التصرف بها وحسب ما تمليه المصلحة العامة[٣]، علماً أن السلطات أبقت على الكثير من الكتب التي ظلت متداولة بين الناس، وكانت خطوة ذكية منه لأنها حفظت هذه المصادر من الضياع.

تمكن صلاح الدين أن يوطد سلطانه، ويرسخ أقدامه، ودعي له على منابر بلاد اليمن والشام وفلسطين، التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية، وبناءً على أوامر سيده نور الدين وبإيعاز من مركز الخلافة العباسية أمر ان يخطب لبني العباس، الأمر الذي تردد فيه السلطان في البداية خوفاً من الفاطميين، لكن مع اصرار نور الدين على ذلك لم يجد بداً من القيام بالامر، وتم له ذلك في اول محرم ٥٦٧هـ/١١٧١م دون ان تثار قلاقل أمنية[٤]، والمقصود بذالك الرد الفعل الفوري، وكذلك قرر ضرب السكة باسم المستضيء بامر الله، وباسم الملك العادل نور الدين كل على وجه، وقلعت اسماء الفاطميين

(١) ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء، ص٥٨١، العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ص٥٢، تاريخ ابن الوردي: ج٢ ص٧٦، المقريزي: أتعاظ، ص٣١٦، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٦.

(٢) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٠٨، المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٧١، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٤، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٥.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٦" مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٥.

(٤) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص١١١، البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص١١٢، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٢٨٥، ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص٣٧٣، الذهبي: العبر، ج٣ ص٤٩، دول الاسلام، ج٢ ص٨٠، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٤٤، العيني: السيف المهند، ص١٩٧، دائرة المعارف الاسلامية، مادة الايوبيون، ج١٢ ص٢٠٨. Jonse Terry and Ereira Alan: Crusades, England 1996, p 105

المكتوبة على المناطق الفضية بمحاريب جوامع القاهرة[٥]، وعزل اهل العاضد واقاربه في مكان خاص لهم في القصر، ثم عين القاضي صدر الدين بن درباس الكوردي الشافعي قاضياً على مصر والقاهرة، وأمر الناس باتباع مذهبه[٦]. وكان لكل مذهب قاضٍ يتولى أموره وينشر تعاليمه[٧].

تميز عصر صلاح الدين بالصفة الدينية، وأصبحت المساجد والمدارس الدينية من مؤسساتها البارزة وتمتع رجالها بعلوالمكانة، وزاد عددهم يوماً بعد يوم. كان المذهب الشافعي يتناسب مع الوضع القائم[١]، ويوافق تعاليمه، حيث ينص على منع إقامة خطبة الجمعة في جامعين في بلد واحد، لذلك تقرر اقامة الخطبة في الجامع الحاكمي بدلاً من الأزهر، لسعته، وقد استمر الامر على حاله قرابة مائة عام[٢].

ثم بدأت حملة واسعة لبناء المدارس السنية، منها الصلاحية[٣] والقمحية[٤]، ومدرسة للمالكية والسيوفية لدراسة المذهب الحنفي. وكان لكل مدرسة أوقاف لإدارة أمورها[٥]. ولم تقتصر الدراسة على مذهب واحد، بل تنوعت وشملت كل المذاهب، فالمدرسة الصالحية التي ما تزال آثارها باقية قرب خان الخليلي تعد أول مدرسة لدراسة المذاهب السنية الأربعة مجتمعة[٦]، وكان أمر التعليم يناط الى علماء الشافعية الأكفّاء، وقد بني الخبوشاني (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م) مدرسة بجوار الامام الشافعي، تولى التدريس فيها بنفسه[٧]، وكذلك تولى القاضي ابو عمر وعثمان بن عيسى بن درباس التدريس في

---

(٥) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٩، العيني: السيف المهند، ص١٩٧.

(٦) ابن المستوفي: تاريخ اربل، ج٢ ص ص٣٧٠-٣٧١، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص٩٥.

(٧) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص٩٥" مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٥، وشمل ذلك سائر الأعمال.

(١) سلطان جبر: الدور السياسي للعلماء المسلمين ايام الحروب الصليبية، رسالة مكتوبة بالكومبيوتر، مقدمة الى مجلس كلية الاداب، جامعة الموصل لنيل درجة الدكتوراه، تاريخ اسلامي ١٩٩٩، ص١٥٦.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٨.

(٣) الحنبلي: شفاء القلوب، ص١٨٩، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص٢٠٢.

(٤) لان صلاح الدين أوقف عليها الفيوم تغل قمحاً، اذ كان يوزع على المدرسين والطلبة.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ص٥٤-٥٥.

(٦) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص٢٠٤ نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ).

(٧) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٥٥٧، ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٤ ص ص٢٣٩-٢٤٠، اليافعي: مرآة الجنان، (بيروت ١٩٧٠م) ج٣ ص٤٣٣.

المدرسة الهكارية بالقاهرة سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م[٨]. وقد ساهمت هذه المدارس في تخريج كوكبة من علماء السنة، الذين يحتاج إليهم النظام الجديد[٩]، ويشرط في كل من يدرس في تلك المدارس أن يكون سنياً، في حين أبعدت عن تلك المدارس تدريسيين من الشيعية الإسماعيلية، وكل من يميل إليهم وينصرهم[١٠]. حظيت هذه المدارس باهتمام خاص من لدن السلطات الحكومية التي كانت تراعي العاملين فيها باستمرار، وتعاقب بشدة كل من يخالف الأنظمة والمناهج المقررة[١١]، لان بعض العلماء الذين تستروا بالجبة حملوا أفكاراً هدامة[١٢]، فضلاً عن المدارس، وقد قام الملك الكامل بن الملك الصالح بفتح معهد بين القصرين لدراسة الحديث أيام سلطته في القاهرة[١٣].

ويبدو أن ظاهرة انتحال النسب كانت مستشرية بين الناس انذاك، لذلك وجدت السلطات ان مسألة القضاء على هذه الظاهرة تعد أمراً ضرورياً من الناحية الأمنية، وقد تم لهذا الغرض تشكيل لجنة خاصة سميت بـ (نقيب سادة الأشراف)[١] للتأكد من هذه الادعاءات الكاذبة. وتمثل هذه الفئة أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من فاطمة بنت الرسول، وتحدد واجبها في منع دخول غيرهم من الغرباء إلى نسبهم، وتعاون وتكاتف أعضاؤها فيما بينهم، وأن لا يفعلوا شيئاً إلا بعلم شيوخهم وموافقتهم[٢]. وقد قامت هذه اللجنة بواجبها خير قيام عن طريق تقديم معلومات مفيدة عن غلات الشيعة، ممن يظهرون افكاراً ويبطنون اخرى[٣]، مما ساعدت السلطات على الحد من خطرهم ومطاردهم

---

(٨) الاسنوي: طبقات الشافعية، ج١ ص١٤٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧ ص٢١٤.

(٩) مجلة العلوم، ج١١ ص١٨٥٣، نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص٨٩.

(١٠) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٧٣٨.

(١١) العمري: المصطلح الشريف، ص ص١٦٤-١٧٣، سلطان جبر: الدور السياسي، ص ص١٥٦ فما بعد.

(١٢) العمري: م. ن، ص١٧٣.

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ ص١٠٤، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص ص١٦٠-٢٠٤، المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني ايوب، (دمشق ١٩٧٠) ص٧٨" مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣٠. البدليسي: الشرفنامة، (بغداد، ١٩٥٣) ص٩٨.

(١) كان الفاطميون قد أوجدوا وظيفة مثل هذا (للمزيد من المعلومات ينظر الفصل الأول، الأمن الفكري، ص....).

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٩٦، القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٢٧٣-٤٨١، درر العقود الفريدة، ق١ ص٦٤، هامش رقم (٣).

(٣) العمري: المصطلح الشريف، ص ص١٦٨-١٦٩.

لا في القاهرة فحسب بل في كافة المدن المصرية، ففي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م قبض والي قوص على رجلين من اسنا[٤] كانا يدعوان للمذهب الباطني[٥].

يبدو ان الايوبيين لم يشعروا بأمان، وهم في القاهرة، خوفاً من نشاطات الباطنية في خارج ديار مصر، ولأجل استئصال شأفتهم والتخلص من خطرهم لجأت الدولة الى ارسال حملات عسكرية الى اليمن، لانهم باطنيون من دعاة المصريين فأمنت الجنوب[٦]، كما ارسلت حملة الى المغرب وذلك في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م لتأمين الجناح الغربي من خطرهم[٧].

لم تقتصر مكافحة الشغب وكبح جماح المشاغبين على العمل العسكري، بل استخدمت الدولة الايوبية كل السبل للوقوف بوجههم وإجهاض مخططاتهم، منها استعانتهم بعدد من العلماء الفطاحل لمناظرتهم والرد عليهم[٨]. ومن هؤلاء العلماء الباقلاني الذي صنف كتب كثيرة للرد عليهم ومن أجلها كتاب سماه (كشف الأسرار وهتك الأستار)[١] وأبو علي الفارسي (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) المعروف بالظهير للرد على شهاب الدين الطوسي (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م). ونظراً لنشاط أنصار الدولة الفاطمية وعملهم الدؤوب في للإخلال بالأمن، فان الايوبيين قد وقفوا لهم بالمرصاد، وقد واتت لهم فرصة للتعرف على جماعاتهم عندما توفى داود بن العاضد في السجن سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، وكانت الاسماعيلية تدعي بان والده أوصى اليه، التمس أنصاره ومؤيدوه من الملك الكامل السماح لهم بالنوح عليه، فاستجاب لهم، فخرجت جموعهم الغفيرة إلى شوارع القاهرة من الرجال والنساء تبكي عليه فانكشف المستترون أنفسهم بهذه الطريقة البارعة، فلما تكامل الجمع انقض عليهم الجنود، وامتلأت بهم السجون، وأجريت بحقهم المحاكمة وفر عدد منهم فاستولى على أموالهم وأملاكهم، وتمكن الكامل ان

---

(٤) مدينة باقصى الصعيد على شاطئ النيل (ياقوت: معجم البلدان، ج١ ص١٥٤).

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٧٦. احتضنت الحركات والتمردات المعارضة اعداد كبيرة من هؤلاء.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧٤. ابو شامة: الروضتين، ج١ ص٧٠. ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ص٢٣٥-٢٣٦، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص ص٥٦-٦٧. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢١٥. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٤٦.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ص٢٣٧-٢٣٨.

(٨) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨١.

(١) مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٥.

يتخلص من أكثرهم ولم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يظهر مذهبه[١]، وعند وفاة ابنه الثاني بدر الدين سليمان سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م لم يظهر منهم أحد، اذ اضمحل امرهم، ولم يبق لديهم امل في العودة الى مسرح الاحداث ثانية[٢]. لقد ساهم العلماء في تشخيص عناصر الفاطميين المناوئة للسلطة، وكشف العديد من التجمعات والمؤامرات المرتبة من قبلهم[٣]، لذلك كان الأيوبيون يقربوهم ويكسبون ودهم ويمنحوهم الأموال والمناصب لمساندتهم السلطة[٤].

وقد أدت الصراعات بين العلماء والفقهاء الى تدخل السلطات الأمنية لوضع حد للمتجاوزين منهم وعلى سبيل المثال فقد وضع الحافظ عبد الغني (ت ٦٠٠هـ/١٢٠٣م) تحت الإقامة الجبرية في داره سبعة أيام، وشدد عليه العلماء في مصر والقاهرة وحرضوا ابن شكر الوزير على قتله، غير أنه توفي قبل إنزال العقوبة به[٥].

ان عمل الامن الفكري مهمة شاقة وحساسة ودقيقة تحتاج الى الذكاء والمتابعة، وكانت للكتب والمصنفات دور كبير في تهيئة الجو المناسب للاخلال بالامن والتأثير على افكار الناس، وكان رجال الامن يقتفون مصدر تلك الكتب والمصنفات بدقة بالغة، وقد عين السلطات الحكومية الشرف بن الصوري (ت٦٦٣هـ) عريفاً في سوق الكتب بالقاهرة [٦]وربما كانت هي السبب في اقتحام دار القاضي الاشرف احمد بن القاضي الفاضل سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) ومصادرة محتويات مكتبته، والتي بلغت مجموعها ثمانية وستون الف مجلد[٦] ونعلم ان القاضي الفاضل كان واحداً من اقرب المقربين الى السلطان، لذلك فان مسألة مصادرة مكتبة ابنه لابد ان يتم بعد ادراك خطورة هذه الكتب على الامن في القاهرة.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٦٩، ان العملية التي قام بها الكامل وان حققت نجاحاً، ولكن كان اجدر به ان لا ينقض عليهم وهم يشيعون امامهم، بل يشخصهم وعناوينهم ثم يتولا امرهم اذ بدر منهم مخالفة.

(٢) ابن واصل: ج٥ ص ص٣٨١-٣٨٢، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٦٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٤٠٠.

(٤) الذهبي: م.ن ص ص٤١٥، ٤٥٠.

(٥) الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٤٥٦.

(٦) ابو شامة: الروضتين، ص٢٣٤.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٢٣٢.

وهناك مسألة اخرى لعبت دوراً بارزاً في الاخلال بالامن الفكري او السلامة الفكرية تمثلت في ترجمة البنود والوثائق التي كانت تترجم بين الصليبيين والمسلمين، حيث إن عدم فهم الجانب الإسلامي للغتهم يؤدي الى تفسير تلك البنود بما يخدم مصالحهم، لذلك كان من الضروري وجود مترجمين من ذوي الأمانة والدراية في جميع الاختصاصات لئلا يقع الجانب الإسلامي في مأزق[٧].

كانت الصراعات بين أهل السنة والشيعة تسببت في هدر طاقات مادية وبشرية كبيرة، واحدثت شرخاً واسعاً في المجتمع الاسلامي، يصعب ترميم صدعه، وقد جنى منه أعداء المسلمين فوائد كبيرة، إذ سها هذا الأمر عليهم مهمتهم في الصراع ضد المسلمين والتغلب عليهم في مواقع عديدة، وقد اضطر الايوبيون الى مواجهة تلك عن طريق توحيد الكلمة ورص الصفوف، وقد تكللت محاولاتهم بالنجاح، لكن ذلك لا يعني انهم نجحوا في ذلك نجاحاً كلياً، لان الصراع قد اخذ أبعاداً خطيرة ومتعددة، وحاول كل طرف أن يسلك مختلف السبل لمواجهة الطرف الآخر، ومن الصعوبة بمكان منع الأفكار من الانتشار، لأنها تخترق اكثر الجدران صلابة، وتفشل اكثر الخطط إحكاماً في إيقافها. حتى ان الاسرة الايوبية نفسها لم تسلم من الاختلاف في الآراء والمذاهب فيما بينها، إذ تشيع الملك عين الدين احمد بن السلطان صلاح الدين (ت٦٣٤هـ/١٢٣٧م)[١] وكذلك عارض الملك المعظم عيسى المذهب الشافعي، واختار الحنفية مذهباً له، وحاول والده إعادته الى المذهب[٢]، لكنه امتنع قائلاً: "يا خوندا اما ترغبون ان يكون فيكم رجل مسلم"[٣] وتشيع أيضاً الملك الافضل علي بن صلاح الدين، ووقعت له نتيجة ذلك مع اخوته حروب ومعارك، واخرجه عمه العادل ابوبكر وأخوه العزيز عثمان من دمشق[٤].

لقد ساهمت الصراعات المذهبية في تعميق الخلافات الأسرية وتوسيعها، وحالت دون توحيد الكلمة، وجمع الشمل، لان التمسك بالمبادئ أمر يصعب التخلي عنه في حين يسهل التخلي عن المصالح المادية والدنيوية.

---

(٧) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٣٩، سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٤٠.

(١) الذهبي: العبر، ج٣ ص٢١٨.

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٨٨، ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٨.

(٣) الدواداري: م.ن، ج٧ ص٢٨٨، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٢٤٤، درر العقود الفريدة، ق٢ ص٣٣٩.

(٤) الذهبي: تاريخ الاسلام، ص ص١٢٧-١٢٨.

ان مقاومة الافكار والتصدي لها كلفت الدولة الايوبية جهوداً مضنية واموالاً طائلة في المتابعة المستمرة والدائمة لتتبعها وقد اضطرت في الكثير من الاحيان الى استخدام العساكر والقوات للتصدي لها وابطال خطرها.

أما فيما يتعلق بافكار الطوائف غير الإسلامية فان السلطات منحتهم الحرية الكاملة، فكان لكل طائفة رئيس مسؤول عن جماعته، ويحكم بينهم على قواعد ملته[٥]، وقد خيرتهم الدولة في اختيار المعتقد الذي يرضونه عدا الكفر[٦]، وقد تم الاعتماد عليهم في الكثير من الشؤون الادارية، ومعظمهم ممن زاولوا الحرف والصناعات، وبرز من اليهود من اشتغل بالطب وإدارة البيمارستانات وصنع وتركيب الأدوية، حتى إن مهنة الطب كادت تنحصر فيهم لاقتصارها عليهم بشكل أساسي[٧].

ويبدو أن اهل الذمة قلما أخلوا بأمن البلاد أو قادوا المعارضة إذ توجهت أنظارهم إلى مزاولة الأعمال الحرفية، وضاق أمامهم مجال التفاعل السياسي في الدولة، ربما لقلة عددهم، او للصعوبات التي واجهتهم في الانخراط في القوات المسلحة، وعلى الرغم من إيثارهم السلم إلا أنهم لم يسلموا من المشاكل التي ألمت بالأهالي في القاهرة إذ عانوا ما عانى أهلها.

ثالثاً: الأمن العسكري

يقوم الجيش بضمان امن الدولة وتوفير الحماية لابنائها عن طريق اعداد قوة عسكرية منظمة، وقد اعطى الايوبيون (مؤسسة الجيش) منزلة رفيعة، حتى اصبح الانتساب إليها شرفاً عالياً، اذ كان أمراؤهم أنفسهم من أولى الكوادر العسكرية، كان السلطان يصطحب معه اولاده واخوته وخواص امرائه وامراء القبائل من الكورد في حروبه ومعاركه[٨]، وكانوا في مقدمة كل المعارك. حيث كان صلاح الدين قد قضى معظم حياته فوق صهوة جواده حتى وصف بأن: "سرجه هو مجلسه"[١] الذي لم يكد ينزل عنه حتى في أيام مرضه، إذ كان يقول: "متى ركبت يزول عني الألم"[٢]، وقد أشاد النبي

---

(٥) العمري: المصطلح الشريف، ص ص١٨١-١٨٦٥، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص ص١٨٣-١٨٤.

(٦) ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء، ص٥٨٢.

(٧) ابن ابي اصيبعة: م.ن، ص٥٤٥ فما بعد.

(٨) الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١ ص٣٦٩.

(١) رحلة ابن جبير : ص٢٤٣" نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص١٠٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٤.

ع بأمثاله قائلاً: "إن خير منازل الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله"[٣]، وقد أبدى في أيامه كلها تفانياً وإخلاصاً كبيرين لدينه فأطاعه الجنود والعساكر وانضموا تحت لوائه بملأ إرادتهم[٤].

استطاع الايوبيون ان ينظموا عساكرهم بشكل مثالي، اذ ادركوا صلاحية كل فئة او جماعة لصنف من اصناف الجيش، وكان العرب في جيشهم بمهارتهم في استخدام الرماح في المعارك وقد شكلوا غالبية صنف الرماح، وقد تعاملوا بدهاء وذكاء عسكري كبير في نقل قطاعاتهم من منطقة الى اخرى بغية الحفاظ على حياتهم وضمان سلامتهم، وقلما ساروا بعساكرهم في طريق دون ان يعرفوا مخاطره، وان دعا الامر فانهم يفضلون الطريق الطويل الآمن على غيره[٥]،كما حرصوا كثيراً على اظهار عساكرهم بالشكل والهندام المنتظم، ولم يكن يسمح لأحد من الجنود بنزع الدروع والمغافر والستر المبطنة لمقاومة قوس الفرنج[٦]. كما نشروا العيون والجواسيس في أقاليم الأرض، خاصة في المناطق المتاخمة للعدو، حتى في عمق ديارهم، لمعرفة كل ما يتعلق بعدد العدو وعُدده، ولم يكونوا يعلنون الحرب على أحد قبل أن يعرفوا معلومات دقيقة عن أوضاعه المختلفة[٧] وكانت تهيئة العساكر لخوض غمار الحرب تخضع لحسابات دقيقة في العدد والعدد[٨]، وفي إقامة التحصينات الحربية وتوفير المؤون الكافية لفترة القتال[٩]، وهم فضلاً عن كل ذلك لم يكونوا يتخذون قرار الحرب الا بعد استشارة كبار القادة والامراء المعنيين[١٠]، لان توحيد الكلمة ورص الصفوف كان له اثر فعال في تقوية الجبهة. واذا ما تتبعنا اعمالهم في الممالك والاقاليم التابعة لهم فان جل اهتمامهم كان قد تركز على تقوية الجبهة العسكرية وتهيئة كل المتطلبات الخاصة بها، وظهر بين صفوف عساكرهم من المبدعين والمخترعين ما ساهم الى حد كبير في

---

(٣) ابن جماعة الحموي: مستند الأجناد، ص٤٢.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٢٨.

(٥) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص٨٥، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٠.

(٦) نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص١٩٦.

(٧) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص٩٥.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص١٥٠.

(٩) لمزيد من المعلومات ينظر الفصل الثاني (الاستحكامات الامنية) ص...

(١٠) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص٩٥.

صلابة جبهتهم، ومن الاختراعات التي ساهمت في خدمة المجهود الحربي وزادت من قدراتهم العسكرية اكتشاف مواد تمنع الحريق، وقد أفادتهم هذه المواد كثيراً حيث كان يتم طلاء ملابسهم بها لمنع احتراقها[١١]. كما كانت المفارز الطبية مرافقة للجيش في حله وترحاله[١٢] وكذلك الحمامات والارزاق الجافة فضلاً عن المياه[١]، ولم يبخلوا على عساكرهم بالمال، ويبدو انهم كانوا يمنحون المقاتلين اموالاً لشراء ما يحتاجون اليه اوقات تجنيدهم للمعارك، فضلاً عن راتبهم الشهري، وقد اقاموا اسواقاً خاصة لعساكرهم لاقتناء البضائع التي يحتاجون اليها[٢]، وكانت هذه الاسواق تقع في اماكن خاصة يتجمع فيها العساكر لينطلقوا منها الى المكان المقصود[٣]. ومن الملاحظ ان صلاح الدين لم يكن يجبر الناس على الانخراط في المعارك بشكل قسري لاسيما الذين يعملون في الوظائف الادارية[٤] وربما يعود السبب في ذلك الى رغبته في الحفاظ على معنويات المقاتلين المرتفعة، لان وجود بعض العناصر التي لا ترغب في الحرب أو بمعنى آخر الذين هم ليسوا رجالاً لها قد يؤثر تأثيراً بالغاً على إضعاف معنويات المقاتلين، ويمكننا القول إن صلاح الدين كان يريد النوعية أكثر من الكمية[٥]، وقد طهر جيشه من المشكوكين والمتخاذلين، لاسيما بعد تعرضه لسلسلة من هجمات الإسماعيلية[٦]، ومما هو جدير بالذكر هنا ان الايوبيين اعتمدوا على انفسهم بشكل أساسي في تزويد عساكرهم بكل ما يحتاجونه بدءاً بالسلاح الخفيف الى المناجيق والاساطيل. وقد أثار ذلك رعباً في قلوب اعدائهم[٧]. فارتفعت المعنويات، وبهذا تم تأمين معظم احتياجات الجيش وتم إنقاذه من خطر الوقوع تحت رحمة طرف اخر، قد يفرض عليهم شروطاً تخل بأمن البلاد وسيادتها، إن الحفاظ على الأمن العسكري وحمايته من الأخطار كان من أولويات السلطات

---

(١١) حسين: الجيش الايوبي في عهد صلاح الدين، (بيروت ١٩٨٦) ص٢٩٦ نقلاً عن التبصرة ورقة ١٤٢ أ.

(١٢) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص٩٥.

(١) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢١٩، تاريخ ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص١٧٥.

(٢) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص٣٢، البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص٢٥٢، الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٩٧.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٣٠.

(٤) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص٣٢.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٦٤.

(٦) العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ص٦٨.

(٧) الصائغ: عصر الملك الكامل، ص ص١٤٣-١٤٦.

الحكومية، لان العسكر أو الجيش هو سور البلاد، لذلك فان حماية أسراره والحيلولة دون تسرب المعلومات عنه بأي شكل من الاشكال كان جد ضروري، وكانت الاسرار العسكرية التي تتعلق بعدد الجيش او نوعية عدده محصورة بالامناء من الامراء والقادة[٨]، ومثلهم صناع العدد والمواد العسكرية[٩].

وعلى الرغم من اتخاذ كافة الاحتياطات الكفيلة بالحفاظ على الامن العسكري إلا انه مع ذلك كانت تحصل بعض التسربات بين حين واخر، ففي سنة ٥٨٧هـ/١١٩٢م تمكن رجل حلبي من القيام بتسريب معلومات عسكرية تخص سر صناعة المناجيق، وكان لذلك اثر بالغ في الحاق ضرر كبير على المعسكر الايوبي[١٠].

ولم يغفل السلطان عن أدق احتياجات الجبهة، ونظراً لكونه مجاهداً في سبيل الله فانه تمسك بتهيئة الضرورات الدينية، منها مصاحبة جيشه لاعداد كبيرة من علماء الدين، إذ عينه في كل خيمة إماماً[١]، وقد تسلم كل منهم مسؤوليات دينية كالإمامة فضلاً عن حث المقاتلين على التحلي بالروح القتالية، وكان الإمام يسرد للمقاتلين قصصاً بطولية لأبطال مسلمين ساهمت كثيراً في رفع المعنويات، وهوفي الوقت نفسه مقاتل أسوة بالاخرين، ولغرض مراعاة كافة المذاهب السنية، فكان لكل مذهب قاضٍ يقوم بحل قضاياهم الشرعية وإفتائهم وفقاً لمذهبهم[١].

تعامل الأيوبيون مع المقاتلين لاسيما صلاح الدين على أساس أن "الملك أساسه الجند، فان قوي الاساس دام لبناء، وان ضعف الاساس سقط البناء، لا سلطان الا بجند"[٢]، وعلى هذا الأساس بنى السلطان علاقته مع الجند، فكانت صداقته حميمة معهم، فكان يسمع آراءهم ومقترحاتهم، وكأنه واحد منهم، وكان يداري الناس وهو القائل: "فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس"[١]، ولم تختلف عليه مع

(٨) النويري: نهاية الارب في فنون الادب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة (د.ت) ج٨ ص٢٠٠، القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص١٧.

(٩) حسين: الجيش الايوبي، ص٢٩٥، (بيروت ١٩٨٦) نقلاً عن التبصرة ورقة ١٤٠ أ.

(١٠) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٠٢.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٣٣، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٩٠.

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٣٧.

(٢) ابن الجماعة الحموي: مستند الاصفاد، ص٣٩.

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٣٨.

طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم[١]. وكان جنده مجاهدين في سبيل الله يتمنون الشهادة فيه، وعندما عجز المسلمون في حصار عكا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م عن حرق الابراج الصليبية أبدى شاب دمشقي عرف بعلي بن عريف النحاسين استعداده لتدمير الهدف، وقام فعلاً بتدميره، فأراد السلطان مكافئته، فاعتذر قائلاً: "إنما فعلته لله، ولا أريد مكافأةً إلا منه"[٣]، وقد تحلى المقاتلون بالإيمان والروح العسكرية العالية، وكانوا يؤثرون الموت على الذل، وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م أرسل المسلمون بسفينة من بيروت الى عكا، وكان على متنها اكثر من ستمائة وخمسين مقاتلاً، فاعترضها الانكلتير، ووقعت بين الطرفين موقعة كبيرة، أبدى خلالها المسلمون شجاعة مقاومة باسلة والحقوا بعدوهم أضراراً جسيمة، ولما اشتد عليهم طوق الحصار من كل جانب، وأيقنوا بالهلاك، اثروا الموت على الحياة واجمعوا على التضحية بالنفس بدلاً من الاستسلام للعدو إذ منعهم كبرياؤهم من مذلة الأسر وأهواله، فبدأو باحداث ثقوب في السفينة لدخول الماء إليها، ومن ثم غرقت مع كل من كان عليها من المقاتلين، عدا الذين خلصهم الأعداء للتمثيل بهم[٤].

ان الانتصارات التي حققها المسلمون في ساحات القتال، جاءت بفضل الاجراءات والتنظيمات الدقيقة للايوبيين، اذ لم تكن الحملات العسكرية تشن على العدو لم تكن العساكر في وضع يمكنها معه خوض المعارك في معظم الاحيان، ففي حالات التغير العام كان بمقدورهم ان يعرفوا أعداد المقاتلين التي يمكن تهيأتها استناداً الى اعداد اقطاعاتهم، حيث كان اقطاع عدد معلوم من العساكر[٥]، وبذلك تمت السيطرة على الاوضاع، واذا ما تقاعس أحد فعليه فيلزمه دفع خمس ماله، لدعم المجهود الحربي[٦].

قد يتطلب الوضع إعلان حالة الطوارئ، وتضطر الدولة معها الى اتخاذ اجراءات مناسبة، فعلى سبيل المثال في سنة ٦١٦هـ/١٢٢٠م عند حصار الفرنجة دمياط، احتاجت الدولة الى الاموال فطلبت من الاهالي دفع مستحقاتهم مقدماً بزمن معقول، وقد تطلب هذا الموقف النداء بالتبرع[٧].

(١) مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٧.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٠٤، تاريخ ابن خلدون، ج٥ ص٣٢١، قلعجي: صلاح الدين، ص٣٩٠.

(٤) ابن شداد: النوادر، ص ص١٦١-١٦٢" الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٩٧، تاريخ ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص٢٠٦- الحنبلي: الانس الجليل، ج١ ص٣٧٣.

(٥) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٠٥.

(٦) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٠٢، الشيال: تاريخ مصر الاسلامية، ج٢ ص٨٩.

(٧) الدواداري: م.ن، ج٧ ص٢٠٧.

اتبع صلاح الدين روح التسامح والعدالة مع الاعداء والاصدقاء، وقد بلغ منتهى التسامح والانسانية في معاملته لأسرى الصليبيين عند تحرير القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[١] وقد وهذا شبيه لروح الفروسية السائدة في العصور الوسطى، ولم ينتهك تلك الروح الا مضطراً لأسباب حتمتها ظروف الحرب على العكس من أعدائه.

رابعاً: امـــن البـــريد

تعد مؤسسة البريد، من كبريات المؤسسات التي تقوم بتامين خدمات مهمة وضرورية وتسعى في تأمين امن الدولة الخاص والعام. وهو وسيلة فعالة لنقل المعلومات من العيون ورجال الامن المنتشرين في كافة الارجاء، لذلك فان السلطات الحكومية لم تدخر وسعاً في توجيه عناية جليلة، لدعم هذه المؤسسة وتطويرها، وقد انصب الاهتمام على البريد الجوي الذي ينقل بواسطة الحمام فاستخدم ارقى أنواع الطيور، وقد تميز الحمام بميزات جيدة، لاسيما قطعه لمسافات طويلة بسرعة كبيرة[٢]، وادراكه بالعلامات والاشارات[٣]، وقد استخدم الحمام منذ عصر مبكر يعود إلى عهد ابقراط[٤]. وقد حظي الحمام باهتمام كبير لدرجة ان السلطات افردت له سجلات خاصة، وقد الف القاضي محي الدين بن عبد الظاهر (ت ٧٩١هـ/١٣٨٨م) كتاب (تمائم الحمائم)- وكان نور الدين كثير الشغف بالحمام[٥]، وقد اتخذ نوع الهوادي وسيلة لنقل البريد وكانت هذه الطيور تسمى بالمناسيب، لطيرانها لمسافات طويلة[٦] وقد احسن القاضي الفاضل عندما قال: "الطيور ملائكة الملوك"[٧].

---

(١) المجهول: الاستبصار في عجائب الامصار، ص١٠٦، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص ص٨٥، ٨٦، ١٠٢. وكان من عادته ان لا ينقض عهداً معهم حتى لا يتهموه بالغدر، (الحنبلي: الانس الجليل، ج١ ص٣٣٠).

(٢) الجاحظ: الحيوان، بيروت ١٩٨٨، ج٣ ص٢٢٠، ابن الاثير: الباهر، ص١٥٦.

(٣) الجاحظ: م.ن، ج٣ ص٢٦٣، حسين: جيش الايوبي، ص١٨١.

(٤) الجاحظ: م.ن، ج٣ ص٢٨٥.

(٥) العمري: المصطلح الشريف، ص٢٥٤، المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٣١.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٢٨٥، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص٢٨٣، العمري: مسالك الابصار، ج٢٧ ص٥٨، حسين: جيش الايوبي، ص١٨٠.

(٧) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص٢١٥، حسين: جيش الايوبي، ص١٨٠.

اهتم الايوبيون بالبريد لحاجتهم الماسة الى خدماته، وقد ربط صلاح الدين بلاده بشبكة محكمة من الخطوط البريدية الهوائية[٨]، وقد خرجت من قلعة الجبل مجموعة من الشبكات البريدية الى مختلف الاقاليم[٩]، وقد بلغت المسافة بين محطة واخرى ثلاثة عشر ميلاً، وكانت تلك المحطات تقع تحت حراسة دائمة ليل نهار، وقد استخدم حمام الهوادي والزاجل[١٠]، وتمكنت السلطات الايوبية من الاطلاع على اخر اخبار البلاد بسرعة كبيرة، وكانت المسافات الواقعة بينهم وبين الفرنج معمورة بالابراج وعلى كل منها اعداد من الحمام، وعند رصد أية حركة ترسل الاخبار بواسطتها، كما كان يتم بين فترة واخرى توعية الناس على عدم كشف الاسرار التي تخص الدولة للاعداء[١]، وهكذا كانت الاخبار تصل للايوبيين بشكل متواصل ساعة بساعة[٢].

لم يقتصر عمل البريد على نقل الاخبار السياسية فحسب، بل تعداه الى نقل كل ما يهم الدولة من الاخبار، حتى الاخبار اليومية التي تتعلق ببعض الجرائم والقتل والسرقة فانها كانت ترسل الى الجهات المعنية، لاتخاذ التدابير اللازمة بشأنها[٣].

وكان الحفاظ على امن البريد من الامور الضرورية التي يحرص عليها، حيث كان يكتب على تلك الرسائل التي ينقلها الحمام عبارة (سر الامور)[٤]، وقد تكتب الرسالة بنسختين، ترسل كل واحدة مع حمامة، خوفاً من حادث طارئ، وعند انطلاق الحمام يفسح المجال بينهما لمسافة قصيرة[٥]، وترسل تلك الرسائل فوراً اذا كان الامر يتعلق بخروج العدو وتحشداته[٦]، وقد اهتمت السلطات الحكومية اهتماماً كبيراً بهذه الشبكة البريدية، اذ كان لكل محطة بريدية هوائية مطار[٧] ومطير[٨]، وفي الحالات التي

---

(٨) للمزيد من المعلومات ينظر: العمري: المصطلح الشريف، ص٢٣٤.

(٩) المقريزي: الخطط، ج٢ ص ص٢١١، ٢٣١.

(١٠) عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، (بيروت ١٩٧٢) ص١٥٥.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص٢٨٣، ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص٢١٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٨٥.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٦١، المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢١١.

(٤) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٣٦، حسين: الجيش الايوبي، ص١٨٨.

(٥) ابن الاثير: الباهر، ص١٥٩.

(٦) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص١٥٠، البنداري: سناء البرق،ق٢ ص٣١٨.

(٧) القلقشندي صبح الاعشى، ج٤ ص٦١، المقريزي:الخطط، ج٢ ص٢٣١، كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة ص٩٢.

يتعذر استخدام الحمام فيها فان الاتصالات كانت تجري بطرق اخرى حسب الوضع القائم، قد يتطلب الأمر استخدام العوامين كما حدث ذلك في حصار عكا ٥٨٧هـ/١١٩١ [٩]، أو عن طريق استخدام الإشارات المتفق عليها[١٠]، ويمكن ارسال الرسالة برميها بواسطة النشاب كانت المسافة في مداه[١١].

وقد قدمت هذه الشبكة البريدية خدمات أمنية في غاية الأهمية للدولة الايوبية، وبواسطتها تمكنت من الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة، ووضعت لها الحلول المناسبة والاستعدادات الكفيلة بمواجهة المعضلات التي تعترضها، لاسيما تلك التي استهدفت النيل من امن الدولة.

خامساً: أمن السواحل والأنهار والبحار

ان الصراع الإسلامي الصليبي لم يقتصر على البر وحده بل جرى في البحر أيضاً، وقد أحرز الفرنجة انتصارات بحرية باهرة، لأنهم عرفوا أسرار البحار ومسالكها اكثر من المسلمين، فتحتم على المسلمين مجاراتهم في هذا المضمار، وحال تسلم صلاح الدين منصب وزارة العاضد الفاطمي،انتبه إلى الخلل الواضح والكبير في القوة البحرية، وتولى شخصياً مهمة الدفاع عن السواحل، وتمكن من مد نفوذه الى الجزء الشرقي من البحر المتوسط، وحاول ان يجعل قوته البحرية منافسة لقوة العدو[١].

رأى صلاح الدين ضرورة إنشاء قوة بحرية، وأمر في الحال إنشاء ديوان خاص بها، عرف بـ (ديوان الأسطول) وخول أخاه العادل مهمة القيام بتدبير أموره، وفوض أمر الديوان إلى الأمير صفي الدين بن علي بن شكر الذي اصبح مساعداً له[٢]، ولأجل أن يقوم الديوان بالنهوض بمهامه على اكمل وجه، وفر له موارد مادية ثابتة، منها:

أ- تخصيص خراج عدة نواحي.

---

(٨) الشخص المكلف باطلاقه، ويسميه القلقشندي البراج (صبح الاعشى: ج٤ ص٦١).

(٩) تاريخ ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص٥، الحنبلي: الانس الجليل، ج١ ص٣٦٣.

(١٠) المجهول: الاستبصار في عجائب الامصار، ص٩٨، تاريخ ابن الفرات مج٤ ج٢ ص ص١٩-٢٠، نيوباي: صلاح الدين وعصره ص١٨٩، حسين: جيش الايوبي ص١٧٦.

(١١) الحنبلي: شفاء القلوب ص٣٠٢.

(١) ايليسيف: الشرق الاسلامي ص٤٥٧، الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ص١٦٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٠٧، الخطط، ج٢ ص٨٥، زكي: الدول والامارات الكوردية، ص٢٣٤، ايليسيف: الشرق الاسلامي، ص٤٥٨..

ب- زيادة اقطاعاته.

ج- الزيادة في قيمة دينار الاسطول وصار ديناراً وربع بعد ان كان بنصف او بثمن الدينار[٣].

د) امتلاك المواد الأولية الداخلة في صناعة السفن كالغابات الموجودة في البلاد، واصبح من المتعذر على الناس الحصول على أخشابها لارتفاع قيمتها، إذ بلغ سعر عود الخشب مائة دينار[٤]، واتبع نفس الاجراءات في مصادر المعادن[٥]، وقام بكري نهر النيل من الرمال لتكون صالحة للملاحة[٦].

اتخذ الايوبيون اجراءات جريئة وحاسمة لانشاء قوة بحرية قادرة على الدفاع عن امن الدولة، علماً ان راكب البحر كان يواجه مخاطر جسيمة، اذ كان الرجال يواجهون خطر البحر نفسه فضلاً عن خطر العدو، مع عدم تمكن المقاتل البحري من الفرار، إلا مع أصحابه، لذا فقد كان الجهاد البحري عظيماً[٧]، وقد اثمرت الجهود المبذولة لتحسين مستوى القوة البحرية عن نتائج ايجابية ساهمت في استتباب الامن في القاهرة وعموم الديار، وسجلت انتصارات باهرة على القوة البحرية الفرنجية التي دخلت الى مياه البحر الاحمر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م بغية الوصول الى الحرمين الشريفين، اذ تمكن لؤلؤ الحاجب[٨] ان يتصدى لهم ويرد كيدهم[٩].

وقد دأب صلاح الدين في متابعة سير العمل في ديوان الأسطول، وقام ميدانياً بزيارة المدن الواقعة على خط المواجهة كالاسكندرية سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وامر بزيادة مخصصات واقطاعات البحارة، وزيادة عدد المراكب، وإصلاح ما يمكن إصلاحه منها[١٠]. وأصبحت منارة الإسكندرية مركزاً هاماً لرصد تحركات العدو البحرية، وتم اتخاذ اجراءات أمنية صارمة في الموانئ والأماكن الاستراتيجية

---

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٤٥.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٩٣.

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٤٨، حسين: الجيش الايوبي، ص٣٣٤.

(٦) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٢٤.

(٧) الازرقي: بدائع السلك، ص١٥٧.

(٨) كان ارمنياً من غلمان القصر، خدم صلاح الدين كمقدم للاسطول (الذهبي: العبر، ج٣ ص ص١٢٣-١٢٤).

(٩) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص ص٦٩-٧١، الفتح القسي، ص٣٤٠، رحلى ابن جبير:

(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢ ص٢٣٠، جب: صلاح الدين، ص١٤٢، الباز العريني: مصر في عصر الايوبيين، ص١٧٩.

كالبحر الاحمر الذي منع السفن الاجنبية من الدخول إليه[1]، فضلاً عن وضع برج السلسة عند فم نهر دمياط لمنع دخول المراكب اليها[2].

حقق الايوبييون نجاحاً ملحوظاً في القوة البحرية، وانتشرت المصانع على طول البلاد وعرضها، منها في المقس، دمياط، رشيد، الاسكندرية، قوص، الفسطاط، والمنصورة[3]، وتنوعت القطع حسب حاجة الدولة اليها، فالقطع الصغيرة كانت ترافق الكبيرة لحمايتها لاسيما السفن التجارية منها، وكانت ذات تأثير فعال على نموالتجارة وزيادة القوة الاقتصادية للدولة، كما استخدمت الصغيرة للهجمات السريعة الخاطفة[4]، في حين الكبيرة استخدمت لنقل السلع والبضائع او المؤون العسكرية الثقيلة وبكميات كبيرة[5]. ولعل اخر الانتصارات التي حققتها القوة البحرية تمثل بالانتصار الذي حققه الايوبيون سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م على الفرنجة وتمكنوا من الاستيلاء على ثمانين سفينة واثنتين وثلاثين قطعة أخرى[6].

وقد تنامت القوة البحرية الايوبية لدرجة انها اجبرت الاعداء على الانسحاب من الكثير من المواقع الحساسة، وساد الأمن والاستقرار في معظم المدن الساحلية بفضل يقظة القوة البحرية وفعاليتها.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص٢٥٨، ايليسيف: الشرق الاسلامي، ص٤٦٢.

(٢) عواد: المآصر، ص٣٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٣٣، الشيال: تاريخ مصر الاسلامية، ص١٣٤، زكي: الدول والامارات، ص٢٣٤..

(٤) المقريزي: م.ن، ج١ ق٢ ص٤٥.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٧٧.

(٦) المقريزي : الخطط ، ج٢ ص١٩٤" رنسيمان: الحروب الصليبية ، ج٣ ص ٤٦٣.

الفصل الرابع

الأمن العام

أولاً: الأمن الإداري

ثانياً: الأمن الاقتصادي

ثالثاً: الأمن الصحي

رابعاً: أمن الحج

خامساً: أمن السجناء والأسرى

أقام الأيوبيون مجموعة أخرى من المؤسسات الأمنية تولت بشكلٍ عام حماية الأهالي من الأخطار التي يتعرضون لها، حيث تمكنت هذه الدوائر من أداء واجبها بشكلٍ مناسب، كفلت إدامة الحياة بشكلٍ اعتيادي، عدا بعض الفترات التي عجزت تلك المؤسسات من أداء دورها، نظراً لشدة بعض الأزمات و ثقل وطأتها، مما جعلها لا تستطيع القيام بمهامها،وقد تم تقسيم هذا الفصل إلى عدة مؤسسات منها:

أولاً- الأمن الإداري

ثانياً- الأمن الاقتصادي

ثالثاً- الأمن الصحي

رابعاً- أمن الحج

خامساً- أمن السجناء والأسرى

أولاً: الأمن الإداري

تربع صلاح الدين على عرش الدولة الأيوبية سلطاناً، تحبه الرعية وتخافه الاعداء، وتحترمه، لعدله وحسن سياسته، فترسخ أمن دولته، وعلى الرغم من اختلاف العناصر التي كونت مملكة صلاح الدين وتعددها، فقد ساد فيها التآلف والتآخي، وقلما يطفو على السطح ما يعكر صفو هذا الجو[1]، ويعزى ذلك الى سيادة روح العدالة والتسامح، وقد أكد صلاح الدين على جنوحه للسلم وتأكيده عليه بقوله: "أما أنا فلأن أخطئ في العفو، أحب إلي من أن أصيب في العقوبة"[2]، وقد تبنت هذه الاسرة منذ البداية سياسة الحفاظ على الامن العام، وعدم التطاول على حقوق الاخرين، وإذا ما بدر منهم ما يخالف ذلك، فسرعان ما يرجعون الى جادة الصواب، وقد حفظ التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك، فعندما علم نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م بتطاول بعض أمراء شيركو على حقوق الأهالي وقد عرف عن جل

(١) مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة١٧" جب: صلاح الدين، ص١٤٤.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٢٤٤.

سلاطين هذه الحقبة حبهم للعدل وحفظه و منهم نور الدين زنكي الذي أخذ على نفسه محاربة الظلم وإنزال القصاص بحق المخالفين والمتطاولين على حقوق الآخرين وكان الاول قد اصر على فرض الامن وإنزال القصاص بحق المخالفين، وأقام دار العدل[1] لهذا الغرض، ولما علم شيركو ان هذا العمل موجه لامرائه تدارك الامر قبل استفحاله، وجمع أمرائه وهددهم واجبرهم بتصفية الحسابات مع الناس قبل اقامة دعوى ضد أي منهم، واضطر هؤلاء الى الامتثال لأوامره، ولم يحضر احد للمثول امام نور الدين للمحاكمة، وشكر الاخير فضل الله عليه، وحسم الموضوع دون الحاجة الى اصدار عقوبات بحق أحد[2]. وفي قصة اخرى وقعت دعوى قضائية ضد صلاح الدين، فامتثل لامر القضاء وعد نفسه فرداً أمامها[3]، وهكذا خضع جميع الأمراء لأمر القضاء[4].

أثبت الجيش الايوبي جدارة فائقة في سوح القتال، بفضل جملة من الأمور، منها / أولاً: الاعتماد على العناصر الكفوءة في ادارة دفته، كما كانت الجبهة الداخلية بحاجة ماسة الى التدبير على منوال الجبهة العسكرية، لان الاعداء قد تغلغلوا في داخل الدولة الأيوبية بأشكال شتى[5]، وقد انتبه الأيوبيون إلى ضرورة وضع إدارة تؤمن الأمن والاستقرار في القاهرة وعموم الديار، لذلك وجدوا ان افضل سبيل لذلك ثانياً: هو الاعتماد على العناصر المخلصة و الكفوءة، حتى يتم مسايرة الجبهة العسكرية على قدم المساواة مع الجبهة الداخلية في أمور البلاد[6]. اذ استعان صلاح الدين في بداية امره بعدد من عظماء عصره، وجعلهم ساعده الايمن وعضده الأقوى، وتجّمع في هؤلاء جميعاً صدق النية ونبل الهدف، والغاية الشريفة، وتركزت أهدافهم بشكل أساسي على نصرة الملة والدولة. وبذلك كون صلاح الدين جهازاً ادارياً قادراً على حفظ الأمن والسلام في القاهرة، تولى ادارته بنفسه، اذ كان يجلس كل يوم اثنين

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٠٩" ابن واصل: مفرج الكروب ، ج١ ص٢٦٨.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٨.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٠٩، المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٠٨.

(٤) سبط ابن الجوزي: م.ن، ج٨ ق١ ص٤٢٨، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٠٠، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٦٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص١٠.

(٥) للمزيد من المعلومات عن كيفية التغلغل ينظر الفصل الثالث الحركات والمؤامرات الداخلية، ص ---.

(٦) النويري: نهاية الادب، ج٨ ص٢٠٠ فما بعد.

وخميس للقضاء، وما استعان به أحد إلا استجاب له، وكان يفعل ذلك حضراً وسفراً[١]. وكان عادلاً، ورؤوفاً لا يعمل إلا بالشرع[٢]، واستعان بأولئك الذين وجد فيهم الالتزام بالشرع، والامانة والخلق القويم، ففي بداية تسلمه مقاليد الأمور في القاهرة، وجد ضرورة الحفاظ على أمن القصر، فاسند امرها الى قراقوش الخصي الأبيض (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) فقبض قراقوش على زمامه بكل امانة واخلاص ولم يسمح لاحد بادخال او إخراج أي شيء الا بأذنه[٣]، واختار ثلاثة رجال استفاد من علمهم وسياستهم، وشاورهم في كل كبيرة وصغيره وكان صدر السلطان يتسع للجميع، ورغب في الاستفادة من مختلف الكفاءات المخلصة، ويأتي في مقدمتهم القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م) الذي كان مشهوراً بجودة الاسلوب وحسن الكتابة[٤] وكان يعمل في ديوان الجيش أيام الصالح بن رزبك[٥]، وانتقل الى خدمة شيركو بعد تسلمه منصب الوزارة[٦]، ويبدو ان الايوبيين لم يمتنعوا من إسناد الأمر إلى موظفي الدولة الفاطمية السابقين، ماداموا يزاولون وظيفتهم بامانة واخلاص دون المساس بمصالح الدولة الجديدة. وقد تمكن السلطان صلاح الدين بحلمه وسعة صدره ان ينال ثقة الاخرين، ولم يخف اعجابه ببعضهم كالقاضي الفاضل مثلاً الذي أثنى عليه أمام حشد من أمرائه: "لا تظنوا ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل"[٧]، وقد ترسخت الثقة بينهما لدرجة ان صلاح الدين وزع دولته على أبنائه برأي القاضي الفاضل[٨]، واسند اليه السلطان ديوان الإنشاء[٩] والشخصية الأخرى الذي تألق نجمها في هذا العصر هو

---

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق وسر الخلائق، (القاهرة ١٩٦٨) ص ص٥٢-٥٣، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٧٠، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٦.

(٣) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص١٠٣، الغساني: المسجد المسبوك، ج٢ ص٢٧٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص١٧٦-١٧٧.

(٤) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١١٧. Mayer: The Crusades, P. 125

(٥) الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٢٤٥، المقريزي: أتعاظ، ج٣ ص٢٥٤.

(٦) الذهبي: م.ن، ص٢٥٠.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٤٧٢.

(٨) الحنبلي: شفاء القلوب، ص١١٦.

(٩) الغساني: العسجد المسبوك، ج٢ ص٢٥٧.

المؤرخ القدير العماد الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م الذي غلب على أسلوبه المحسنات اللفظية[١] وكذلك مؤرخه الخاص بهاء الدين ابن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م)[٢]. جرت هذه التغيرات الادارية دون الاخلال بالامن والاستقرار في القاهرة اذ ازيحت الدولة الفاطمية بانقلاب ابيض لم تسفك فيه الدماء[٣].

وجد الايوبيون أن استتباب الأمن والسلام في القاهرة منوط بوجود عناصر إدارية موالية لهم، وان الكادر القضائي اكثرهم تأثيراً في أمن البلاد، إذ لم يجدوا بداً من تبديلهم بالكوادر السنية، فاسندوا الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكوردي الشافعي (ت ٥٩٠هـ/١١٩٣م) منصب قاضي القضاة في ديار مصر[٤]. وقد أدى عمق الثقة بين الأجهزة الأمنية والإدارية الى متانة قوية في عملها[٥]، كما كان شخصية السلطان رافضة للانفراد بالسلطة خوفاً من الوقوع في مأزق أولاً، ولأنها كانت تحسب اعتبارات كثيرة للاخرين، فلم يكد يقض أمراً إلا بمشاورة معاونيه. وقد أفاد ذلك كثيراً[٦]، حيث إن المشاورة تفيد الحاكم والمحكوم على حد سواء[٧].

أدرك صلاح الدين انه بات في وضع يحتم عليه تحمل مسؤولية كبيرة، وقد عرف ثقلها جيداً، وقد صان الأمانة التي أخذها على عاتقه على اكمل وجه، ولم يكن يخاف في الحق لومة لائم، فلم يكن يبالي باسناد الوظائف المهمة حتى الى الكوادر التي كانت في الدولة الفاطمية لو تبين له ولاء الشخص لدولته ومبادئها السنية، وقد اسند الى القاضي الاثير ذي الرئاستين (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)[٨]،أي: كلاً

---

(١) الذي كان شافعياً، وكان مقدراً لدى نور الدين، واناط اليه وظيفة كتابة السر، ومن ثم صاحب صلاح الدين، وتوثقت العلاقة بينهما، وتبوأ مركزاً ادارياً ضاهت الوزارة، وكان يحل محل القاضي الفاضل في غيابه (العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص١٥، الذهبي: تاريخ الاسلام، ص ص٣١٩-٣٢١)

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤، حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، (بيروت ١٩٥٩) ج٢ ص٢٤١.

(٣) نوري: سياسة صلاح الدين ص١٠٤.

(٤) ابن المستوفي: تاريخ اربل، (بغداد ١٩٨٠) ج٢ ص ص٣٧٠-٣٧١، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٨٥، نوري: سياسة صلاح الدين ص١٠٣.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٣٨٢، القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣ ص١٤٤، جب: صلاح الدين، ص١٤٤، ١٩٨.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٠، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٥.

(٧) الازرقي: بدائع السلك، ص١٦.

(٨) ابو حامد بن محمد الكاتب في ديوان الإنشاء ايام العاضد (الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٢٦٥، الغساني: المسجد المسبوك، ج٢ ص٢٥٧).

من ديوان المال والجيش[١]، وعلى العكس من ذلك فقد كان حازماً تجاه الأمراء الذين يخالفون الشريعة ولا يثبتون جدارة في اعمالهم، ويتسببون في تدهور الامن والاستقرار[٢]، وقد احتفظت العناصر الكفوءة والقادرة على استتباب الامن والسلام بمناصبها لفترات طويلة كحسام الدين بن أبي علي الهذباني الذي استخدمه الكامل، ثم الملك الصالح نجم الدين، ثم الملك المعز ايبك التركماني، وكان قد اثبت ثقافة ادارية وحنكة سياسية في تسييس امور الدولة الخارجية والداخلية[٣]. وكانت ميزة الكفاءة هي الاساس في التوظيف، حتى لو لم يكن مسلماً بل كان بعضهم نصرانياً او يهودياً، وقد سمحوا للكتاب والموظفين السابقين بالعمل في الادارة الاسلامية للاستفادة من خبراتهم في الكتابة وجباية الضرائب، وتولوا مناصب ادارية مهمة ومنهم من أسلم، مثل الوزير الاسعد شرف الدين ابو القاسم هبة الله بن وهيب الفارسي النصراني الصعيدي الذي تبوأ مناصب ادارية حساسة، وعزل ثم اعيد، وبقي الى ايام المعز ايبك التركماني[٤].

يبدو ان الايوبيين كانوا يراعون في الموظف توفر الامن الفكري، فضلاً عن العمل في حدود لا تتعارض مع أحكام الإسلام، علماً بأنهم فقدوا الثقة بالفاطميين فقد حاولوا عدم إسناد الوظائف لهم ما وسع الأمر، فعلى الرغم من التأكيد على ضرورة توفير الشروط في المقدم للوظيفة، فان المناصب كانت تسلم في مراسيم خاصة تقام لهذا الغرض، يتم فيها تحليفهم بنسخ الإيمان مفصلاً، أمام الملأ خوفاً من انحرافهم للميول والاهواء، ويأخذون مهم الوعد بالسيرة الحسنة والاخلاص لملكتهم وحكومتهم، ويتبين من الحلف جزاء الناقض للعهد وما يترتب عليه من العواقب الوخيمة[٥]، وكانت الدولة تقدم امتيازات تناسب مكانة الشخص، حتى لا يكون في موقف يدفعه للمخالفة، آخذاً بنظر الاعتبار الحساب لأدق الأشياء[٦].

وضع صلاح الدين امن القاهرة فوق كل الاعتبارات، ولم يكن يرضى بتولية أحداً إلا إذا وجد فيه الثقة والكفاءة على حفظ أمنها، مع وضع مراقبة دقيقة على ذلك الشخص، لذا فهو لم يترك القاهرة

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١ ص٢٨١، ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص١٩١.

(٢) الحنبلي: شفاء القلوب، ص١٠١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٦٨، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٦٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٨٤، الخطط، ج٢ ص٩٠.

(٥) العمري: المصطلح الشريف، ص١٨٦.

(٦) وقد اسهب القلقشندي في بيان امتيازات الامراء والوزراء، ينظر القلقشندي صبح الاعشى، ج٤ ص ص٥٢، ٥٣، ٦٤.

الا انابه شخص فيها، خوفاً على أمنها، وقد استدعى ذلك استحداث منصب نائب السلطنة[١]، وكان صلاح الدين لم يفرق بين هذا وذاك، وكان اقدرهم واكثرهم كفاية هو المقدم عنده، ففي سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٥م رأى السلطان أن اخاه الملك العادل اجدر بمهام القاهرة من ابنه الافضل فلم يتورع في إسناد الأمر إليه[٢]، كان صلاح الدين قد تصرف بما يملي عليه الواقع، فاضطر إلى اخذ الناس بالشدة في كل ما من شأنه ان يمس بأسباب سلامة البلاد وأمنه، وكان يتبع مقولة: (تحّدث بنعومة وابق الهراوة في يدك) وقد استخدم الهرواة عند الضرورة بشكل اذهل مرافقيه ومستشاريه[٣]، ومن جهة أخرى كان عليه ان يرضي أمراء جيشه الذين بذلوا جهداً وتضحية كبيرة، لتحقيق تلك الأهداف التي تكللت بتأسيس الدولة الايوبية، فلم يجد بين يديه غير الاموال والكنوز والقصور التي كانت للفاطميين لكي يعطيها لقواده وأمرائه[٤]، وقد استغنى عن خدمات امراء الفاطميين وقوادهم لانهم لم يكونوا بمستوى يليق بتحمل مسؤولية ادارة الدولة الجديدة نتيجة الفرق الفكري والمذهبي وقد استحال عليهم التكّيف مع المستجدات الجديدة. والملاحظ في التاريخ الايوبي خصوصاً في عهد السلطان صلاح الدين هو تنديد الرأي العام بكل من يحاول المساس بامن البلاد مهما كانت مكانة ذلك الشخص أو رتبته، فمثلاً عندما حاول ابن اخيه تقي الدين عمر اظهار نوع من المعارضة، وعدم الخضوع لاوامر السلطان سنة ٥٨٢هـ/١١٨٤م تعرض لنقد لاذع من قبل امراء الجيش، وقد حاول ترك الصف والالتحاق بغلامه قراقوش التقوي في المغرب، وعندما رأى نفسه وحيداً تراجع عن موقفه، وترك القاهرة وسار الى دمشق[٥].

أثبتت الوقائع التاريخية ان صلاح الدين كان يهمه جداً امن القاهرة و الحفاظ عليه و انه اذا وجد ان اجراءاً ما يتعارض مع ذلك أعاد النظر فيه، فقد كان انسحابه من حصار الكرك سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م نتيجة ورود معلومات تخص امن القاهرة، دفعته الى ترك حضرها والعودة الى القاهرة

(١) حسن: النظم الاسلامية، (القاهرة ١٩٦٢) ص١٦٨. وكان النائب كالسلطان المختص له صلاحيات واسعة عدا اسناد ولاية المناصب الجليلة، وكان يقال له كافل الممالك او السلطان الثاني (السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٧٩).

(٢) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص٧٣.

(٣) نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٨٦.

(٤) Lane pool, Ahistory of Egypt p.193 .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ص٧٣-٧٤، الذهبي: العبر، ج٣ ص٩٤. وقد شك الدواداري من اقدام تقي الدين عن شق عصا الطاعة (كنز الدرر، ج٧ ص٩١).

خوفاً من المعارضة[1]، حتى انه تراجع عن قراره باداء فريضة الحج سنة ٥٨٨هـ/١١٩١م بعد ان اشار عليه مستشاروه ان ترك الفراغ في هذا الوقت بالذات لا يؤمن الاستقرار ويربك الامن العام، فلم يجد بداً من الامتثال لنصحهم[2].

كان صلاح الدين حريصاً جداً على عدم التبذير والاسراف من اموال المسلمين، وهو امر لا يستسيغه العامة ويخل بالامن، فعندما بنى له مسؤوله المالي قصراً في دمشق، دون اخذ استشارته قال: "ما يصنع بالدار من يتوقع الموت؟ وما خلق العبد الا للعبادة والسعي في تحصيل السعادة الابدية، وما جئنا الى دمشق بنية"[3]، ولم يقبل منه ذلك وأعفاه من منصبه[4].

لقد اشاد المؤرخون والبلدانيون باشاعة الامن والاستقرار في العصر الايوبي، لاسيما في عهد السلطان صلاح الدين[5]، وطاف ابن جبير أرجاء كثيرة من العالم الاسلامي وزار مصر وتحسس الامن فيها بنفسه وتطوافه بحرية وسلامة دلالة على سيادة الامن والاستقرار في القاهرة، وقد ذكر أنها: "في نهاية الترفيه واتساع الاموال"[6].

لقد خطى صلاح الدين خطوات هامة لفرض الامن، حيث حاول جاهداً تغيير الكوادر الادارية بصورة طبيعية مع ملاحظة ان ذلك لم يكن ليحصل الا اذا كان امراً تقتضيه المصلحة العليا لاستتباب الأمن العام[7].

وكان جهازه الأمني قد بلغ درجة من التطور اصبح من الميسور عليه الاطلاع على مجريات الاموركافة، وفي ابعد الأماكن التي تهمهم اذ وجدت عناصر حتى بين الحجاج أنفسهم، لمعرفة دقائق الأمور في طريقه وفي داخل الحرمين أيضاً[8] وبفضل يقظة الجهاز الأمني تمتع الناس بالأمن والاستقرار

---

(١) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص١٢١، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨١، نوري: سياسة صلاح الدين ص١١٢.

(٢) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٦١١، ابو شامة: الروضتين، ج٢ ص٢٠٥، الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢١٣، قلعجي: ايام صلاح الدين، ص٤٣٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٢٥٤.

(٤) ابن واصل: م.ن ج ص.

(٥) البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص٢٤٨

(٦) الرحلة، ص١٢، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، بيروت ١٩٧٧، ص٣٣٩.

(٧) الغساني: المسجد المسبوك، ج٢ ص ص١٩٧-١٩٨.

(٨) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٩٢.

حيث عاشوا حياة امنة مطمئنة لم يعيشوها من قبل[1]. كما كان يتم تدقيق هويات الداخلين والخارجين بشكل جيد، لاسيما في المنافذ الرئيسية كقطيا، وجرت هذه الأمور في عهد خلفاء صلاح الدين، وكان يتم التأكيد على منع دخول السلع والبضائع التي تتعارض استعمالها مع الشريعة الاسلامية، حيث كانت دولتهم تأخذ بها ويعطى بها[2]. ومع ذلك فان بعض التجاوزات كانت تحدث من وراء ظهره، لاسيما في النقاط و المنافذ البعيدة عن القاهرة، فكان الموظفون يتطاولون على الداخلين الى البلاد لاسيما التجار منهم[3]، وقد تركز اهتمام السلطان بشكلٍ خاص على ازالة مظاهر الفساد التي تخل بالأمن العام كالقمار وشرب الخمر والقيان[4]، والرقص ومجالس الغناء، وكان للمحتسب اليد الطولى في تشخيص هذه المظاهر وإزالتها[5] فضلاً عن ذلك فكان يقوم بدور تشخيص المناوئين للمذهب السني[6].

وكان السلطان يرى أموراً أخرى تتعلق بالأمن الاجتماعي، وإزالة المظاهر التي تتسبب في إلحاق الأضرار بالآخرين مثل الضرر بعلاقات الجيرة، كالتطلع على الاسطح الى الجيران، ومنع جلوس الرجال في طرق النساء[7]، وكان يتم تكثيف قوات الامن في الاماكن المزدحمة بالقاهرة، حيث كانت ساحة بين القصرين مسرحاً لحوادث كثيرة يقترفها المشاغبون والمهوسون للاعمال غير الأخلاقية، مما يصعب السيطرة عليها، لكثرة ازدحام القاهرة ليل نهار[8].

ولأجل تشخيص الفئات التي تقوم ببعض الاعمال المخالفة للقانون والمخلة بالامن العام، كان يلزم النصارى واليهود لبس ملابس معينة، لتمييزهم من المسلمين[9]، وكان على المسلمين مراعاة ذلك

---

(١) رحلة ابن جبير، ص٢٩، العمري: المصطلح الشريف، ص٢٢٤ .

(٢) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٦٥٦، ابو شامة: ذيل الروضتين، ص ص٨٩، ١١١، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٥٩٢.

(٣) رحلة ابن جبيرص٣٥، ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ص ص٢١٥-٢١٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج٨ ق١ ص ص٥٩٥-٥٩٧.

(٥) العمري: المصطلح الشريف، ص١٦٤.

(٦) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢٧، زيود: نظام الحسبة في الاسلام ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢٩-٣٠، (دمشق ١٩٩٨) ص ص١٥٤-١٥٥.

(٧) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، (بغداد ١٩٦٨) ص١٩.

(٨) المقريزي: الخطط، ج٢ ص ص٢٨-٢٩.

(٩) المقريزي: م.ن، ج١ ص٣٦٧، نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٢.

أيضاً، فكان لكل طائفة زي خاص، لا يسمح لأحد بلبس زي طائفة أخرى، أو ان ينتسب الى تلك الطائفة، كل ذلك لكي تتعرف السلطات على الناس بيسر وسهولة، وبذلك تم ضبط الطوائف[1].

لم تكن الغاية من الزام اليهود والنصارى بالامور المتقدمة وامتثالهما لأوامر الدولة تقليلاً لشأنهم او لدورهم، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا يتبؤاون مناصب إدارية عليا، وكانت لهم حرية كاملة في حكم انفسهم بشريعتهم[2]، وكذلك فانهم قلما سببوا للدولة أية مشاكل تذكر، لاسيما اليهود وقد تمتعوا بحياة رغيدة زمن الأيوبيين، مما شجع كثيراً منهم في ترك بلاد الفرنجة و قصد ديار مصر[3]، وبلغ عددهم في الاسكندرية مثلاً: ما يقرب من ثلاثة آلاف نسمة، وفي القاهرة ما يقرب ألف نسمة، وقد تمتعوا بحرية لم يروها في غيرها من البلدان، لاسيما الحرية الدينية ومنهم من تمكن ان يتقرب الى السلطان وقد جاء الى الديار (الراي ميمو تيديس) ومر بالمغرب وفلسطين، واستقر اخيراً في القاهرة عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م وكان فيلسوفاً وطبيباً وانتهى به الامر الى ان يصبح طبيب ابن صلاح الدين، بينما كان اخوه (ديفيد) تاجراً كبيراً ومات غرقاً مع سفينته، وقد امتهن معضمهم حرف وصناعات راقية، ولم تخش الدولة هؤلاء لان اعدادهم كانت قليلة[4]. كما انهم كانوا يمثلون عصب الحياة لاضطلاعهم بوظائف واعمال وحرف مهمة للمجتمع[5].

وكان الغرباء أيضاً يلقون في القاهرة الاهتمام والرعاية نفسها، وكانت مصر تكتظ بالغرباء، فخصص لهم السلطان أماكن خاصة يأوون اليها، كمسجد ابن طولون — الواقع بين مصر والقاهرة-، وأجرت لهم الأرزاق شهرياً، ونصبت أحدهم مسؤولاً عليهم، وعليهم العودة إليه في حل مشاكلهم، ولم يكن أحد يتدخل في شؤونهم الخاصة[6].

(١) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٨٨.

(٢) نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٢.

(٣) القفطي: تاريخ الحكماء، (القاهرة د.ت) ص٣١٨.

(٤) نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٢.

(٥) مجهول: الاستبصار في عجائب الامصار، ص٨٧.

(٦) رحلة ابن جبير، ص٢٥" القفطي: تاريخ الحكماء، ص٣١٨.

على الرغم من كون صلاح الدين قائداً عسكرياً متميزاً، فقد كان في الوقت نفسه ادارياً بارعاً، فقد أفادة من النمط الزنكي في الادارة والحكم وسار على نهجه[1] وساد في عصره الامن والسلام وتمتع الناس بالسعادة والرفاهية، وعلى الرغم من ذلك فان الأمن و الرفاهية السائدة في زمن بعض ملوكهم ساهمت في انتشار الفسق والفساد المنافية للشريعة الاسلامية، وقد غض بعض ملوكهم النظر عن هذه الظاهرة لانشغالهم بمعالجة الأوضاع الاقتصادية وما ترتب عليها، مع ذلك لم يكن للفقهاء سلطان يذكر غير التنديد[2].

أعقب صلاح الدين في الحكم ابنه العزيز عثمان (٥٨٩-٥٩٥هـ/١١٩٨م) الذي رأى ان الاعتماد على مماليك أبيه وسيلة فعالة لحفظ أمن القاهرة، لذلك بذل لهم العطاء وقربهم اليه اذ ساندوه في المحن والشدائد، وساهموا في إقرار الأمن العام[3]. وكان العزيز في منتهى العدل والإنصاف[4]، وعلى الرغم من نشوب صراع مرير بين أبناء الأسرة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين، إلا انه لم يصرفهم عن الاهتمام باستتباب الأمن والاستقرار في القاهرة، لأنها كانت تمثل مركز ثقل السياسة الأيوبية[5].

كان الكامل كثير الشبه بسلطان صلاح الدين في إدارة القاهرة حيث كان نائب والده فيها منذ ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م[6]، والمحافظة على أمنها لاسيما في تطبيق العدالة، إذ كان ذو دراية واطلاع واسع في الحكم والسياسة بما كان يتلقاه من المصادر المتعلقة بالأمور، حيث ألف له تاج الدين أبو عبد الله بن عمر بن حمويه (ت ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) كتاب (السياسة الملوكية) فضلاً عن كتب أخرى أفاد منها كثيراً[7]، ولم يكن يفرق بين هذا وذاك[8]. وقد امتثل الكامل بنفسه لأمر القضاء[9]، واعتمد في إدارة

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص١٠٣، القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٣.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٣١.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٤٤، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٨.

(٥) للمزيد ينظر الفصل الثالث.

(٦) ابو شامة : الروضتين ،ج٢ ص٢٣٧.

(٧) ابن كثير : البداية و النهاية ، ج١٣ ص١٢٥.

(٨) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٢٣٦-٣٢٧.

(٩) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٨٥.

دفة شؤونه على ذوي البصيرة والكفاءة من رجاله[1]، وكان يكره التبذير، ولم يكن يرضى بتدبير الأمور من وراء ظهره، وقد حدث سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ما لم يرضه ما قام به وزيره القاضي الأغر لذا اعتقله وشدد عليه[2]، وكان للكامل جهاز أمني في منتهى القوة و الكفاءة، مما ساهم في توصيل المعلومات والأخبار إليه بسرعة فائقة ودقة بالغة، فمثلاً: في سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م عند مرض غريمه الملك الظاهر ابن صلاح الدين جاءه نعيه قبل أي شخص آخر[3]، وكانت شؤون البريد سرية لدرجة، كانوا لا يسمحون لاحد بالاطلاع عليه خوفاً من تسرب المعلومات[4] وحال وصول خبر وفاة الظاهر، قام بإبلاغ ابن شداد قائلاً: "يا قاضي! صاحبك قد مات في ساعة كذا من يوم كذا"[5] وكان حساساً جداً ويرصد من يراقبه بذكاء بالغ[6]. ومن خصاله مواجهته للمشاكل بصبرٍ وتأنٍ لئلا تضطرب الأحوال الأمنية، وإذا ما تمكن من السيطرة على الأوضاع دون إراقة الدماء،وهو ما كان يتمناه، وقد واجه تحدي أخيه الفائز بعقلانية وتم التخلص منه بسهولة ويسر لأنه كان منافساً له باعتباره ولياً شرعياً للعهد[7]، وكان شديداً إذا تطلب الأمر ذلك، لاسيما مع معارضيه، اللذين يستهدفون الإخلال بأمن القاهرة، فكان لا يجعل من حله للمعضلات معضلات جديدة تواجهه[8]، واستخدم شدة بالغة في ٥٩٦هـ-٥٩٧هـ/١١٩٩-١٢٠٠م عندما ألمت بالأهالي مجاعة وصلت حداً سيئاً حتى قيل ان الناس أكلت بعضهم بعضاً، إذ لم يقف الملك الكامل إزاءها مكتوف اليدين، بل تصدى للمجرمين بكل قوة واقتدار واصدر أحكاماً عرفية صارمة جداً بحقهم[9].

وكان الكامل يفعل كل ما يراه مناسباً لضمان الاستقرار والامن العام في القاهرة ففي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م عقد معاهدة صلحٍ مع الفرنج على دمياط، بعد ان رأى ان الاهالي بحاجة الى الهدوء والراحة نتيجة إزعاج الفرنج المستمر لهم بحيث انهكهم القتال، وهو ما ارضى الجميع. ولمزيد من

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٣٨٤، الخطط، ج٢ ص٩٠.

(٢) المقريزي: م.ن، ج١ ق١ ص١٨١.

(٣) المقريزي: م.ن، ج١ ق١ ص١٨٥.

(٤) علي: خطط الشام، ج٢ ص١٦.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٨٥.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٧٢"ابو شامة: الروضتين ، ج٢ ص٢٣٨.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٣١، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٩٧.

(٨) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص ص٢٧٥-٢٧٨.

(٩) للمزيد ينظر الفصل الخامس (الكوارث).

والضمان وتحقيق الأمان بين الجانبين طلب من الفرنج الرهائن لحين تنفيذ البنود، فتم تبادل الرهائن بين الطرفين[1]، وفي الوقت نفسه فان الاهالي لم يرضوا عن إبرام الصلح مع الملك الالماني فردريك بربروسا وذلك بتسليم القدس اليه سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) وظلت بأيديهم لغاية (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)[2] سليماً، لدرجة ان الأهالي قد أقاموا المآتم[3].

لقد ساهم الامراء المخلصون في المحافظة على وحدة الديار وضمان أمنها العام، إذ تعاون الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ –وهو من الأمراء الكبار- في تسليم دفة الحكم الى الملك الصالح نجم الدين ايوب بعد ان وجد ان العادل الثاني دون المستوى المطلوب، وان الامان والاستتباب الامن لا يجتمعان الا بتسليم الامر الى الملك الصالح، وحثه على المجيء وعلى جناح السرعة لتسلم الامر، لملأ الفراغ الذي تركه وفاة الملك الكامل[4]. بعد تسلم الملك الصالح السلطنة في ديار مصر، بدأ بترسيخ قواعد الأمن فيها، وعلى الرغم من المحاولات الجادة لم يستطيع ترسيخ الامن لكثرت المشاكل التى تركها الملك العادل الثاني، حيث نشر في القاهرة أعداداً كبيرة من العيون ورجال الأمن ليطلعوه على كل صغيرة وكبيرة، وكانت الأخبار تأتيه من كل مكان من الديار، اذ وَكّل في كل مدينة من يثق به لينقل إليه الأخبار، وكان الأسعد بن غطيط –الذي سميت محلة باسمه في مصر- ينقل إليه أخبار مصر[5].

رأى السلطان الملك الصالح عند مجيئه بعد العادل الثاني، ان بيت المال خال من الأموال، وأدرك انه يحتاج المال لاستتباب الأمن والاستقرار في القاهرة، فقام بتشخيص المتسببين في سرقة ونهب أموال الدولة عن طريق التحقيق والاستجواب تمكن من استحصال كميات كبيرة من الأموال منهم وإرجاعها وزج بكثيرٍ منهم في السجن[6].

وكان حريصاً جداً على حياة الأهالي وأمنهم، وعلى الرغم من دعم الخوارزمية له في صراعه مع الشاميين والفرنجة، فانه لم يقبل منهم التطاول على حرية الأهالي وأمنهم، وقد زجرهم ومنعهم من

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ص٢٠٨-٢٠٩.

(٢)Mayer: The Crusades, P. 230

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، (القاهرة ١٩٦٥) مج ٤ج٤ ص٢٨٠، جب: صلاح الدين، ص٢٢٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥ ص١٧٤.

(٥) ابن دفماق: الانتصار لواسطة عقد الانصار، ق١ ص١٨. ربما هو بمثابة مدير الأمن فيها .

(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٢٩٨، الباز العريني: الشرق الادنى، ص١٣٩.

دخول القاهرة خوفاً على الأهالي[١]. وقد ضبط أمر مصر، وإذا أراد تصفية من لا يرغب فيهم، يقوم بسد المنافذ وتشتيت شمل المناهضين وإلقاء القبض عليهم دون ان يفسح المجال أمامهم بالهرب[٢].

حدث في زمنه تغير واسع في هيكل الدولة، إذ اعتمد على فئة عرفوا بالمماليك البحرية حيث اعتمد عليهم بعد ان وجد بان فرض الأمن في القاهرة يكمن في عدم الاعتماد على العناصر القديمة، لان تجربته التي خاضها معهم كانت مريرة و مؤلمة[٣]. ويمكننا القول ان عهد الملك الصالح يعد واحداً من ابرز الحقب التي ساد فيها الأمن والاستقرار[٤] وان عدم الاستقرار لاسيما ذلك الذي ينجم عن الحروب والمعارك، من شأنه ان يتسبب في انتشار الفوضى، وقد انتشر الفساد بعد ان رأى في تلك الأوضاع أرضاً خصبة له غير ان الأيوبيين كان له بالمرصاد، فقد كانوا لا يترددون في عزل الولاة المقصرين والعاجزين على تثبيت ركائز الأمن في القاهرة حيث كانوا يراقبون كبار الموظفين لديهم، لذلك حاولوا قدر الامكان تلافي القلاقل الامنية، فان ثبت على أحدهم ممارسة لا تليق بهم عاقبوه بما يستحقه، فقد صرف الملك الصالح نجم الدين الصاحب زين الدين يعقوب بن زبير، صاحب ديوان الإنشاء لحضوره حفلات الأغاني، وكان بمنزلة متولي كاتب السر، وقال: "هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا"[٥] ولأجل ديمومة العمل في دوائر الدولة و خاصة أيام الجمع والمناسبات، فقد كانوا يستعينون بالكتاب والموظفين النصرانيين لتقديم الخدمات إلى الأهالي وعدم توقف العمل لعدم تمكن المسلمين من الحضور[٦].

و كان للإعلام الأيوبي دوراً فعالاً في استتباب الأمن في القاهرة، حيث ان الحروب والمعارك التي تدار خارج القاهرة، تؤثر بشكل واضح على الأمن العام فيها، فعند تحقيق أي انتصار كانت الحكومة تعلن النبأ في اغلب الأحوال بإظهار مشاهد حية تثبت الانتصار في محاولة منه لرفع معنويات الاهالي، وتفنيد الإشاعات المغرضة، وكانوا في اغلب الأحيان يشهرون بالأسرى في شوارع القاهرة ومعهم

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٥٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٢٠.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٤٣، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٦٠.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٣٤٧.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٢٦.

(٦) المقريزي: م.ن ج.ص.

أسلحتهم ومعداتهم التي تم الاستيلاء عليها لكي يراها الناس بأعينهم، وكانت هذه الممارسات تعود بفائدة كبرى وكان الجهاز الإعلامي مكملاً لعمل الجهاز الأمني[١].

وقد استفاد الأيوبيون من بعض العناصر التي كانت تخل بالأمن العام عن طريق استخدامها كقوة حماية ومرابطة في الطرقات الخارجية، ولكي تأمن شرهم في الوقت نفسه هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت الدولة حريصة على توطين المواطنين في المناطق التي تقع بين مصر والقاهرة[٢]، والتي كانت مرتعاً لقطاع الطرق، وقد سدت الطريق أمام هؤلاء عن طريق جعل هذه المناطق مأهولة بالسكان، وهو ما عزز الأمن والاستقرار.

نلاحظ اضطراب الأوضاع الأمنية و تدهورها بين حين وآخر، لأسباب مختلفة، وعلى سبيل المثال نرى ان الأوضاع الأمنية قد تدهورت أيام تورانشاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بعد وفاة الملك الصالح حيث انه استهان بمماليك ابيه، وهددهم، ولم يتمكن من استغلال روح النصر الذي حققه في دمياط، بل أصابه الغرور فتعرض لمماليك أبيه، وأساء إليهم، مما جعلهم يفكرون في التخلص منه وهو ما تحقق لهم فعلاً بعد ان قتلوه في السنة نفسها[٣].

لم يستتب الأمن والاستقرار بعد زوال الحكم الايوبي بشكل مباشر، ومجيء شجر الدر نظراً لكثرة المعارضين، وميل الترك الى الانفراد بالحكم، اذ كانوا يرون ان الفرصة مواتية لهم ولابد من استغلالها لبسط نفوذهم، وانهاء الحكم الايوبي. وقد وجد المماليك ان زوال الايوبيين فرصة مناسبة للاعتداء على الناس، دون وجه حق، ففي سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م بدأ المعز ايبك بترسيخ اقدامه في الحكم، ويطيح بالمعارضين له وعلى رأسهم أقطاي الذي مما أدى إلى تفرق أصحابه شذر مذر، فكان منهم من التجأ الى الشام او الكرك او من طلب الأمان[٤]،وكان انفراده بالسلطنة سبباً لتطاول الجند على الاهالي بشكل واضح حيث أصبحت العناصر الفاسدة والمشاغبة هي التي تدير سياسة الدولة[٥].

---

(١) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص ص٣٧٣، ٣٧٧، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص٣٥٤.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١١٦.

(٣) للمزيد ينظر الفصل الثالث (الاستخلاف).

(٤) تاريخ ابن الجزري: ص٢٣٤، الدواداري: كنز الدرر، ج٨ ص٢٥.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٦٢" مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣٣.

نستخلص مما ذكر ان السبب الرئيسي الذي أدى إلى استقرار الأمن والسلام في العهد الأيوبي بشكل عام هو تعاون الشعب المصري معهم، وبذلك وجدت ثقة متبادلة بين الحاكم والمحكوم، وسادت الديار جو من السلام والطمأنينة وهو ما فقده الأهالي تماماً في العصر المملوكي لاسيما عند حقبة انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك.

ثانياً: الأمن الاقتصادي

نستخلص من خلال سير الأحداث في ديار مصر إن المشاكل التي واجهتها كانت ناجمة عن ثرائها الاقتصادي، فطمع فيها الطامعون، وتعرض لذلك أمنها وسيادتها إلى أخطار جسيمة أفقدها الأمن السلام ردحاً من الزمن.

أراد صلاح الدين في منشوره للشعب المصري سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م توضيح برنامج سياسته لغرض استتباب الأمن على جميع الأصعدة، فضلاً عن إسقاط الضرائب والمكوس، وأعلن ان التجارة حرة في ديار مصر، ولا يؤخذ من أحد من الصادر والوارد براً وبحراً[١].

أدرك الفرنجة أن الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين تعود أساساً إلى امتلاكه ديار مصر، واستخدام مواردها لإدامة عجلة معاركه[٢]، وتمكنت هذه الدولة الفتية ان تصد الهجمات الصليبية العنيفة وتردها على اعقابها، والملاحظ في هذه الحقبة ان الجهود قد انصبت لصرف الأموال للدفاع عن أمن البلاد وسيادتها[٣].

لقد اقتضت الضرورة المحافظة على المصالح الاقتصادية المتمثلة بالتجارة بين الأطراف المتحاربة[٤]، لتمويل جبهات القتال، وديمومة الحياة خاصة أوقات إبرام اتفاقيات الصلح بين الطرفين كالذي حدث في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م عندما اصبح الطرفان حرين في الدخول الى بلاد الاخر دون خوف أو وجل وأصبحتا (واحدة في الأمن والمسالمة)[٥]، وعلى الرغم من ذلك حدثت بعض الخروقات من هذا الطرف أو

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١ ص٢٠٥" الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩، ص٦١. نوري: ص ص١٠٨-١٠٩.

(٢) الشيال: تاريخ مصر الاسلامية، ص١٠٣، نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٤.

(٣) عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، (بيروت ١٩٧٢) ص١٣٢.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤ ص١١٣.

(٥) الحنبلي: الانس الجليل، ج١ ص٣٩٠.

ذاك، وعادت بالمضرة على الجانبين[١]، وكان الجانب الآخر هو السباق الى هذه الخروقات، حيث استولى أرناط -رينالد دي شاتيون- على قافلة تجارية سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م يرافقها عدد كبير من الرجال والنساء، وفضلاً عن استيلائه على أموالها قام بقتل العديد من المرافقين لها، واسر الباقين من الرجال والنساء، وزجهم في سجون تعيسة، وأساء معاملتهم ورفض الطلب برد الأموال والأنفس وقد أثار ذلك استياء صلاح الدين الذي نذر على نفسه قتله[٢].

ونستشف من الوقائع التاريخية ان الفرنج كان دأبهم الغدر، إلا ان الاعتداء على التجار كان يحدث من جانب الأيوبيين أيضاً، ففي سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م استولى الملك العادل على أموال عدد كبير من التجار في الاسكندرية بلغ عددهم ما يقارب من ثلاث آلاف تاجر، ومن بينهم اثنان من ملوكهم[٣]. وقد ساد جو من انعدام الثقة بين الطرفين، وكان المسلمون يدركون ميل أعدائهم الى نكث العهود والمواثيق وعدم احترامها[٤]، فاخذوا حذرهم من كيدهم، ونشروا الامناء والجواسيس في الطرقات لمعرفة تواجد الصليبيين في المسالك التي تمر بها قوافلهم التجارية، وقد استعانوا في هذه المسألة بالرعاة خاصة[٥]، حيث كانت القوافل يرافقها الحراس الشاميين داخل حدودهم حتى الحدود المصرية التي كانوا يتولون هم حمايتها في حدودهم، وقدمت العشائر الساكنة عبر الطرق التجارية مساعدة إلى السلطات الحكومية بقيامها بحراسة تلك القوافل المارة ضمن حدود قبائلها، ويبدو أن القوافل كانت تتعرض لهجمات قطاع الطرق فضلاً عن الصليبيين، وكانت السلطات الحكومية قد سنت معهم قوانين صارمة لوضع حد لهؤلاء الأعراب الذين يقطعون طرق القوافل ويسرقونها[٦].

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣ ص٦٠٦، جب: صلاح الدين، ص٢٠٤، حميدة: الحروب الصليبية، (بغداد ١٩٩٤) ج٣ ص١٨١.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٨٩" ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٧٤" رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٨١٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٧٣،علماً انه لم يرضح أسباب ذلك.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٣٨٩" ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٦٣" الغساني: المسجد المسبوك، ج٢ ص١٨٦ " ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٢٠" ابن شداد: النوادر، ص ص٢١٣-٢١٥" الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص٦٤.

(٥) الذهبي: دول الاسلام، ج٢ ص٨٨.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥ ص١٥٧، السلوك: ج١ ق١ ص٢٦٠، علي: خطط الشام، ج٢ ص٤٠.

يبدو أن السلطات الحكومية تمكنت من تأمين الطريق التجاري الآتي من العريش الى الفسطاط، وبذلك أمنت القوافل على ممتلكاتها[1].

كانت للمعاقل الصليبية المنشرة في أرجاء مختلفة من بلاد الشام والطرق المارة بينها وبين ديار مصر أثر بالغ في عرقلة مرور القوافل التجارية وانعدام أمنها، وكانت تلك المعاقل بمثابة مراكز استخدمت للإغارة على القوافل، لذلك قلما نرى قافلة تمر دون حراسة[2].

أثمرت تلك الإجراءات الأمنية إلى حد كبير في نشر الأمن، لاسيما على الطرق التجارية داخل ديار مصر، وقد أشاد ابن جبير بذلك قائلاً: "وسرنا في الصحراء نبيت فيها حيث جن علينا الليل، والقوافل العيذابية والقوصية صادرة واردة، والمفازة معمورة آمناً"[3]. أما الطرق المؤدية الى بلاد الشام، فلم يكن يسمح بالمرور فيها ليلاً، وكان يختتم لئلا يمر بها أحد، لأنها متكونة من الرمل، ويمكن التعرف بسهولة على آثار الاقدام فيها. وقد تولى أفراد القبائل حماية الطريق المار بقطيا[4] وقد أخذت تدابير أمنية دقيقة بين المنافذ الواقعة بين دار الإسلام ودار الحرب، وكان على المسؤولين في تلك الأماكن التدقيق في كل شيء حتى الرسالة التي تدخل الى دار الاسلام كانت يجب أن تقرأ[5].

فرضت المصالح التجارية على المسلمين والصليبيين التعامل مع الاحداث على وفق تلك المصالح، وقد اتبعت المدن التجارية الايطالية سياسة مصالحها الاقتصادية في موالاة هذا الطرق أو ذاك[6]، فالبيزيون ساندوا المسلمين ضد الصليبيين، وقدموا معلومات عسكرية أمنية مهمة تتعلق بنية فردريك بربروسا شن حملة عسكرية عليهم سنة ٥٨٧هـ/١١٩٠م[7] واقتضت المصلحة ان يعقد الطرفان – الإسلامي والصليبي- معاهدة سلام اعتباراً من ٦٠١هـ/١٢٠٤م لمدة عشر سنوات، ثم جددت ثانية

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٢٦٠، الصانع: عصر الملك الكامل، ص١٣.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٦٣، الحنبلي: شفاء القلوب، ص١١٨.

(٣) الرحلة: ص٣٨. وقد اشاد بذلك ايضاً نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٣.

(٤) العمري: المصطلح الشريف، ص٢٤٦، هامش رقم (٥).

(٥) أبو يوسف: كتاب الخراج، بولاق ١٣٩٦هـ، ص٢٠٦.

(٦) Mayer: The Crusades, p. 126

(٧) جب: صلاح الدين، ص١٤٦، الباز العريني: مصر في عصر الايوبيين، ص٢٠٣.

لغاية ٦١٤هـ/١٢١٧م[1]. توالى عقد الاتفاقيات التجارية بين الايوبيين في ديار مصر والمدن الايطالية، حيث عقد البنادقة اتفاقية حصلوا بموجبها على امتيازات سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م في الاسكندرية[2]، - ونظراً لكثرة التجارة والمعاملات فيها كانت تسمى (مخزن العالم)-، وكان ذلك لقاء منع قيام حملة صليبية ضد المسلمين، وقد كان الملك الكامل يغض النظر عن كثير من التجاوزات من جانب الايطاليين بسبب الحفاظ على المصالح التجارية والاستراتيجية[3]، وفي هذه الحقبة اصبح للتجار تأثير بالغ في القرار السياسي، لذلك حاول كل طرف سواء الإسلامي أو الصليبي على السواء كسبهم الى جانبهم، ففي هذه المرة مال الإيطاليون إلى الفرنجة، وهم اقرب إليهم، ففي معركة دمياط سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م بعد سقوطها بيد الفرنجة حصل الإيطاليون -الجنويون والبيازنة- على سوق وشارع فيها مكافئة لهم على تعاونهم معا الفرنجة[4].

يظهر لنا أن الطرق البحرية هي الأخرى قد حظيت بنصيب وافر من الرعاية الأمنية لدى السلطات الأيوبية منذ عهد مبكر، ففي وزارة العاضد سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م تمكن صلاح الدين من فرض سيطرته على أيلة المنفذ البحري الهام على خليج العقبة ، وشحنها بالرجال، وبذلك تم تأمين هذه المنطقة تجارياً وعسكرياً ودينياً لتأمين سير الحجاج لأداء فريضة الحج[5]، ولغرض أحكام السيطرة على البحر الاحمر، لأهميته الكبيرة، تم فرض الأمن على القسم الجنوبي فيه أيضاً وذلك باستيلاء أخيه تورانشاه على اليمن سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وبذلك اصبح البحر الأحمر تحت سيطرة الحكومة الأيوبية بشكل كامل تقريباً[6].

---

(١) قلعجي: صلاح الدين، ص٤٨١.

(٢) الشيال: تاريخ مصر الاسلامية

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٥ ص ص٩٢،٨٢، حسن: المماليك البحرية، ص ١٦٥-١٦٦.

(٤) العسلي: فن الحرب الاسلامي، ج٤ ص٢١٧.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٢٨٣، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٤. Mayer:The crusades,P 122.

(٦) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص٢٢٤، الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨٠، ابو الفدا: المختصر في اخبار البشر: ج٣ ص٥٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ص٢٤، ٦٩.

ترتب على هذه السياسات نمو التجارة، وعم الرخاء والازدهار معظم المدن المصرية، لاسيما القاهرة، وتوجه التجار الأجانب إليها، وبلغ عددهم ما يقارب من ثلاثمائة تاجر[١]، واكتظت الشوارع بالهنود واليمانيين والأحباش، فضلاً عن الحجاج المغاربة الذين كانوا يتخذون من مصر محطة ومعبراً لهم إلى الحرمين[٢]، وكانت الدولة قد وفرت لهم ما يحتاجونه من الخدمات، وسنت قوانين خاصة لحمايتهم[٣]، وانتشرت في أنحاء القاهرة الفنادق الضخمة، وكان بإمكان كل تاجر أن يخزن بضاعته في الطوابق السفلية، ويبيت هو في الطوابق العلوية الاخرى، فضلاً عن إمكانية إيداعه نقوده في إدارة الفندق مما أضفى أمانة كبيرة على حياة وأموال هؤلاء التجار[٤]، يبدو ان إدارة الفنادق قد أخذت على عاتقها إيداع أموال الآخرين، وصارت كالمصارف، وحتى أموال اليتامى كان يتم إيداعها في فندق مسرور بالقاهرة[٥] وكذلك تطورت العمليات التجارية من فتح وكالات تجارية كوكالة قوصون التجارية، وضمنت الدولة عدم استغلال أصحاب الخانات للتجار وتم تسعيرها وتوارثها[٦]. ولغرض تسهيل العمليات التجارية اكثر تم استخدام السفتجة آنذاك[٧]، واستطاعت السلطات الحكومية اتخاذ إجراءات كفيلة بوضع حد لاستغلال التجار والمحتكرين، فضلاً عن تقديم تسهيلات كثيرة لتخفيف أثار تلك الكوارث والأزمات التي ألمت بالبلاد[٨].

نشطت حركة اقتصادية في البلاد، وكانت إدارات الكمارك تقوم باستيفاء الرسوم على الأموال الواردة والصادرة التي كانت خاضعة للتفتيش والتدقيق في المدن والموانئ التجارية، وأصبحت تلك الموارد مورداً هاماً للدولة، وقد حدثت من جراء ذلك بعض الخروقات والتجاوزات على التجار، وحاولت الدولة

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣ ص١٥٠. يبدو المقصود بهم كبار التجار من الذين لهم وكالات تجارية.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٣٧.

(٣) الصائغ: عصر الملك الكامل، ص١٥٦.

(٤) نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٤، الصائغ: عصر الملك الكامل، ص ص١٤٨، ١٥١.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٩٢.

(٦) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٩٣، نيوبالي: صلاح الدين وعصره، ص٩٥.

(٧) خسرو: سفرنامة، ص١١٨، العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص١٤٠.

(٨) للمزيد ينظر الفصل الثالث الكوارث البشرية.

منع البضائع الممنوعة من الدخول أو الخروج[١] وأخضعت بعض المؤسسات لرقابة شديدة، كالأسواق، ودور الضرب. وباشرت بالاستماع إلى الشكاوي والظلامات، والأخذ على يد المقصر والظالم[٢].

وكان للمحتسب بصمات ظاهرة على ضبط الأمور الاقتصادية والتي كانت من صميم واجبه، ويمكن ايجاز عمل المحتسب في هذا الميدان في مراقبة المكاييل والموازيين ومنع المظاهر التي تتعارض مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣]، وكان يعاونه أشخاص آخرون في عمله عرفوا بالمعاونين والنقباء، وكان يجلس في جامع مصر والقاهرة[٤]. وكان المحتسب كالقاضي وقد عين صلاح الدين سنة ٥٦٥هـ/١١٦٨م القاضي عيسى الهكاري قاضياً في القاهرة، وكان السلطان يثق به كثيراً، ويمكن ان يكون هو المحتسب أيضاً[٥]، لان منصب المحتسب حساس وله علاقة بحياة عامة الناس، لذلك كان عليه التحلي بروح العدالة وتفضيل المصلحة العامة على الخاصة، ولا يتسنم هذا المنصب إلا من عرف بالأمانة وحاز على ثقة السلطان، وكالعادة فان محتسب القاهرة اعلى درجة ومرتبة من محتسبي مصر الآخرين، ويتولى الأول مسؤولية الوجه البحري، والثاني الوجه القبلي[٦]، وبلغت صلاحياته درجة محاسبة القاضي[٧]. وكان من واجبات والي الحرب او وكيل بيت المال المعمور الحق في ممارسة واجبات المحتسب في غيابه أو مساعدته[٨]، وكان من واجب المحتسب اطلاع السلطات الحكومية على أوضاع الأسواق بشكل عام[٩].

ومن مظاهر اهتمام الدولة بالقطاع الاقتصادي، ولاسيما أسواق القاهرة، إضاءة الأسواق ليل نهار، إذ كان على صاحب كل محل تعليق مصباح في دكانه طوال الليل، خصصت الحراس والخفراء

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ص٧-٨، عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص١٣٨.

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٥٥٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص٣٠٥، العمري: المصطلح الشريف، ص١٤٠، ابن تميمة: الحسبة في لاسلام، ص١٤.

(٤)Lapidus: ira m. Muslim cities in the later middile ages, London 1984, p. 99.

(٥) المقريزي: أتعاظ، ج٣ ص٣١٨.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤ ص٣٨.

(٧) السامرائي، كمال: دراسات في الحسبة والمحتسب عند العرب، (بغداد، ١٩٨٨) ص ص١١-١٢.

(٨) العمري: المصطلح الشريف، ص١٧٠، هامش رقم (١).

(٩) ابن تميمة: الحسبة، ص١٤.

لحراستها[١]. ومن نتائج هذا الاهتمام المتزايد نشوء أسواق كبيرة، منها باب الفتوح[٢]، دار التفاح[٣] وغيرها، وتم فرض أحكام صارمة على الغشاشين واللصوص، كما كان الفاطميون يفعلون ذلك إذ كان الكذاب يركب على جمل ويطاف به في الشوارع وبيده الجرس ينادي: "قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب"[٤]، ونتيجة لذلك قل ارتكاب المخالفات.

ولأجل معرفة الحالة الاقتصادية في أسواق القاهرة، فان الأسعار على المواد الغذائية كانت معياراً بارزاً لإدراك الوضع الاقتصادي، فقد اورد المقريزي قائمة بالاسعار في الحالات الاعتيادية، واذا ما تجاوزت ذلك فانها مؤشر للغلاء، وبحسب التجاوز يمكننا ان نحكم على شدة الغلاء وقلته[٥]، وهكذا تعتمد الحالة الأمنية سلباً وإيجاباً كثيراً على الأوضاع الاقتصادية وينعكس ذلك على الأمن العام.

ويمكن إجمال العوامل التي ساهمت في تدهور الأمن الاقتصادي بما يأتي:

أ- الصراعات الداخلية[٦].

ب- سوء استغلال الموارد:

إن الاستغلال الأمثل للموارد الاقتصادية في البلاد يكمن في استخدامها بشكل يعود بالفائدة على الجميع، وعلى سبيل المثال فان استخدام القمح لصناعة المزر الابيض، وكذلك استخدام العنب والتين لصناعة المشروبات فعاد بالفائدة الى قلة من الناس، في حين منع استخدامها في هذه الوجوه التي تتعارض مع شريعة الاسلام، سيما ان طرحها في الأسواق يقلل من ارتفاع أقيامها ويعود بفائدة على الأكثرية لاسيما الفقراء منهم، وقد يبرز اثر ذلك في الازمات الاقتصادية بشكل جلي، ونرى ان السلطات الامنية تنادي بمنع العصر لأنه محرم شرعاً[٧].

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢ ص١٠٧.

(٢) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٩٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٨٤.

(٤) خسرو: سفرنامة، ص١٠٥، العمري: المصطلح الشريف، ص١٦٣.

(٥) للمزيد من المعلومات ينظر القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص ص٥١٤-٥١٥.

(٦) تفاصيل ذلك في الفصل الثالث الصراعات الاسرية، ص .

(٧) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٣٦٨.

ج- تغيرات قيمة العملة:

أدى ارتفاع قيمة النقود الى ندرة وجودها في الاسواق، مما شجع الناس الى التحايل في قيمتها وكان ذلك عاملاً مساعداً لزيادة وجود العملات المزورة في الأسواق، وكان ذلك ذو تأثير فعال على إحداث أزمات اقتصادية حادة، ففي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م امر صلاح الدين بابطال العملات المتداولة في السوق، وأمر بسك دنانير ذهبية مصرية، ودراهم من الفضة، وإبطال دراهم السود، فهدأت الاوضاع الاقتصادية، وتحسنت أوضاع الناس[١].

وقد حدثت أزمة اقتصادية في بداية انفراد صلاح الدين بالسلطة في ديار مصر، بعد ان استولى على كميات هائلة من الذهب والفضة والكنوز الفاطمية، وأرسل كميات منها الى سيده نور الدين، وقسم كمية منها على الامراء والمقربين اليه، وقد أدى ذلك الى ندرة العملات في السوق، وقلة تداولها حتى وصلت الحالة درجةً قيل فيه: إن وجد لدى أحد دينار أحمر فان ذلك بمثابة ثروة[٢]، ومن الجدير بالذكر ان الدينار الفاطمي الذي عرف بالدينار الإسلامي (Sarant Besent) كان يضاهي في قوته الدينار الصليبي، والدنانير التي كانت تسك في بيت المقدس سميت بالدنانير (الصورية) وجلب ذهبها من السودان[٣].

لم يستقر الوضع الاقتصادي على وتيرة واحدة بسبب عدم ثبات قيمة العملات ونجم عنه تدهور امني واضح في القاهرة وغيرها من المدن، كما نرى بين حين وآخر ظهور عملة واختفاء اخرى لسبب من الاسباب، ففي سنة ٦١١هـ/١٢١٤م تداول الناس في القاهرة قراطيس السود العادلية، ثم ما لبث ان توقف ضربها واختفت من السوق[٤]، وفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م قامت السلطات الايوبية بضرب عملة الفلوس في القلعة، وأصبحت من النقود المتداولة، وبلغت قيمتها ستة عشر فلساً ودرهماً من نقد

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٩٩، ان زيادة وزن الدينار دلالة على غنى الدولة وقوة اقتصادها، حسن ابراهيم: الدولة الفاطمية، ص٦٠٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٤٦.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣، ص٦١٨.

(٤) ابو شامة: الروضتين، ج٢ ص٨٦، الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٨١.

مصر، ثم ضربت بعد ذلك الدراهم المستديرة المعروفة بالكاملية، وامر الناس ان يتعاملوا بها ثم سحب الدراهم المصرية القديمة وسبكت في القلعة من جديد[1].

د- التهريب:

عملية تهدف ألى الحاق الضرر بالامن الاقتصادي، عن طريق التعامل غير الرسمي بالمواد التي يتم إدخالها وإخراجها من والى البلاد، مما يحول دون تمكن السلطات المختصة من فرض الضرائب والرسوم المترتبة على البضائع، فضلاً عن دخول وخروج بعض السلع والمواد المحرمة، والتي تضر بالامن الاقتصادي. وقد لجأت بعض القبائل الى ممارسة هذه العملية، وكان ذلك جارياً حتى أيام الفاطميين[2]، على الرغم من مكافحتهم بقوة إلا أنها ظلت باقية على هذه الحال، وحتى أشد التهديدات التي نصت على القتل لم يوقف التهريب[3]، ولاجل وضع حد لها، وجدت السلطات الايوبية ان تقوم بترحيل القبائل التي تمتهن هذه المهنة الى مناطق اخرى[4].

شعرت السلطات الحكومية بتأثير التهريب على أمنها الاقتصادي، لذلك وجدت ضرورة احكام قبضتها على تسرب بعض المواد كالشب[5] والنطرون[6] والزمرد[7]، نظراً لكونها سلع استراتيجية، وذات تأثير واضح على الأمن الاقتصادي، ووضعت حراسة مشددة على مصادر هذه المواد[8]. في الوقت الذي عزم فيه السلطان على منع التهريب، فان المهربين استخدموا طرق ذكية وماكرة لإخفاء المواد المهربة[9].

ولا شك ان الطرف الفرنجي كان هو الآخر يعاني من الأزمة عينها، لذا اتخذ التدابير اللازمة لمنعها، ان السلع التي اراد التأكيد والمحافظة على عدم خروجها تمثلت بالأخشاب والمعادن لأنها تدخل في صناعة

---

(١) الدواداري: م.ن، ج٧ ص٢٧١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٤٦.

(٣)Mayer: the Crusades, P. 117

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٣٦٥، سيد الاهل: أيام صلاح الدين، ص٤٠.

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ص٣٠٧، ٣٢٩، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٧٦.

(٦) ابن مماتي: م.ن، ص٣٢٩، الصائغ: عصر الملك الكامل، ص١٥٥.

(٧) العمري: مسالك الابصار، ج٣ ورقة١٩٩.

(٨) مجهول: الاستبصار في عجائب الابصار، ص٨٦.

(٩) العمري: مسالك الابصار، ج٣ ورقة ١٩٨.

السفن وخاصة الحربية وصناعات أخرى، واللافت للنظر أن الكنيسة قد تدخلت الى جانب الدولة وحرمت المتاجرة بتلك المواد[1]، وتعرضت السفن الى تفتيش دقيق، وحدثت مشاجرات وخلافات بين الكنيسة والتجار احدثت شرخاً بين الاثنين وأعلنت الكنيسة ان هذا التعامل يتعارض مع الحماس الديني[2]، وحاول الفرنجة ان يضعوا عراقيل شتى أمام التجارة الإسلامية لإلحاق الأضرار بها، ولأجل ذلك قامت سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م بمنع المتاجرة مع الاسكندرية، وحولت مركز الثقل التجاري إلى عكا[3].

هـ- الضرائب:

كانت الضرائب تشكل مردوداً مالياً ضخماً للدولة الفاطمية، وانتشرت مراكز استيفاء الضرائب على طول البلاد وعرضها، وقلما قامت السلطات بمراعاة ظروف الناس ومعيشتهم[4]، إلا أن صلاح الدين شعر ان ذلك قد ولد تذمراً لدى الناس، لذلك حينما انفرد بالحكم ورسخ أقدامه فيه اصدر آمراً بالغاء كل الضرائب والرسوم التي لا تتفق مع شريعة الإسلام[5]. علماً بأن المكس في ديار مصر في عهد الفاطميين كان يؤخذ بنسبة ٤٥٪[6].

واجهت الدولة الأيوبية أزمات اقتصادية حادة، لذا علمت جاهدة في استخدام أساليب شتى في جباية الضرائب من الأهالي كالمصادرة[7] وصرف أموال اليتامى[8]، والإقراض من التجار وضمان المنكرات[9]، وتقديم تسهيلات تجارية لغرض التخلص من الازمات التي واجهتها، واثرت تلك الاساليب

---

(١) حميدة: الحروب الصليبية، ج٣ ص٦٠٩ نقلاً عن Cahen lll.p.330

(٢) رنسيمان: : الحروب الصليبية، ج٣ ص٥٩٩.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين، ج٢ ص٩٣.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١ ص٣٥٤، السلوك، ج١ ق١ ص٨٥ هامش رقم (٣).

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٧.

(٦) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص١٤٤، القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣ ص٥٢٠، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٥٥، ابن اياس: بدائع الزهور، ص٥٦، زكي: تاريخ الدول والامارات، ص٢٣٥.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص ص١٤٢، ٢٠٥.

(٨) المقريزي: م.ن، ج١ ق١ ص١١٩.

(٩) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٦٣٠، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٤٥.

في خلق جو من عدم الاستقرار في البلاد. فكر الايوبيون في انشاء مؤسسة لدراسة المعضلات الاقتصادية عرفت بـ(ديوان التحقيق) لمعالجة تلك الازمات التي واجهتهم وايجاد الحلول المناسبة لها[١] على الرغم من ذلك، كانت أسواق القاهرة مملوءة بالمواد والسلع المستوردة من مختلف البلدان، وازدهرت التجارة فيها، ويأتي الاوربيون في مقدمة الشعوب المستوردة من بلادهم لحاجتهم الماسة الى البضائع المصرية من الزجاج[٢] والزمرد والبلسان[٣]، وشكلت المبالغ التي تم استيفائها من الترانسيت على البضائع المارة من البحر الأحمر[٤] كميات ضخمة من المال، وقلما توقفت تجارة بعض المواد حتى في أشد أيام المعارك[٥].

يبدو أن الازمات الاقتصادية كانت وقتية ومرحلية، وحال زوالها تعود الرفاهية ومعها الأمن إلى الديار. وكان الثراء الاقتصادي عاملاً فعالاً في قيام الملوك بشراء المماليك[٦]، وفي حالات الازمات فان الملوك سلكوا مختلف السبل للحصول على الأموال كما مرت الإشارة اليه، وقد اتبع الملك الصالح نجم الدين ايوب طريقة اخرى لحل الازمة عندما استولى على مقاليد الامور، وذلك عندما قام بمحاسبة الموظفين السابقين وزجهم في السجون، وتمكن من جمع مبالغ كبيرة منهم، بلغت: سبعمائة وخمسين ألف دينار ومليون وثلاثمائة ألف درهم، واستبدلهم بإداريين عرفوا عنده بالامانة والكفاءة[٧].

نستشف من خلال سرد الأحداث السابقة ان العصر الايوبي شهد احداثاً اثرت على بنيته الاقتصادية، وقلما سنحت له الظروف لكي يفكر ويضع أسس لمشاريع اقتصادية بعيدة المدى لتعود بفائدة على الاهالي بشكل عام، حيث انها كانت مضطرة دائماً الى وضع حلول مؤقتة لازماتها الاقتصادية لتتماشى مع الظروف التي تمر بها.

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٣٧٨.

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣ ص٦٠٣، نقلاً عن Heyd pp.178,179,632.

(٣) العمري: مسالك الابصار، ج٣ ورقة ١٩٨-٢٠٠.

(٤) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣ ص٦٠٥، نقلاً عن Heyd pp.166,169.

(٥) رنسيمان: م.ن، ج٣ ص٦٠٤، نقلاً عن Rey: p.234.240.

(٦) الذهبي: دول الاسلام،ج٢ ص ص٩٢-٩٣، السلوك، ج١ ق١ ص٥٠، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢ ص١٦٠.

(٧) العيني: عقد الجمان، ج١ ص٦٨، المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٢٩٨، الباز العريني: مصر في عصر الايوبيين والمماليك، ص١٣٣.

ثالثاً: الأمن الصحي

يعد الجانب الصحي من الأمور التي تشغل تفكير السلطات الأمنية، حيث ان مكافحة الأوبئة والأمراض المعدية وتوفير العلاج اللازم للمرض من المهام الأساسية للدولة، هذا في حالة السلم، فما بالك في حالة الحرب، حيث تقوم الدولة فضلاً عن كل ما سبق بتوفير أماكن يقوم فيها علاج الجرحى، بعد اخلائهم من جبهات القتال، وقد ادرك صلاح الدين منذ وقت مبكر أهمية هذا الجانب وخطورته، فهيأ المستلزمات الكفيلة بتأمين هذا الجانب، فكان المارستان العتيق داخل القصر يعد من المراكز الصحية الهامة الذي يستقبل عامة الناس وخواصهم[١]، ويقوم بتوفير ما يحتاجون اليه من الاطباء والجراحين والمرضين والعمال والخدم، وقد اوقف عليه مبالغ سخية، اذ وقف عليه غلات جهات الفيوم[٢]، كما قام بإعادة الحياة الى بيمارستان الفسطاط القديم، وقام بافتتاحه مجدداً بعد ان خصص له مبلغ عشرين ألف دينار من ديوان الأحباس، وخصص له طبيباً ومشارفاً، وكان يقوم بنفسه بمتابعة عمله، وتوفرت شروط الصحة والنظافة فيه[٣]، وأثناء وجود الرحالة ابن جبير في القاهرة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م قام بزيارة إلى بيمارستان القاهرة فأسهب الحديث عن امتلاء خزائنه بالعقاقير، وترتيب أجنحة البيمارستان ونظافة الأسرّة التي ينام عليها المرضى، وكثرة الخدم والمرضين فضلاً عن توفير كميات كبيرة من الطعام والشراب التي تلائم حالة المريض الصحية، فضلاً عن توفير جناح خاص لمعالجة النساء، مع توفير جناح خاص لمعالجة المصابين بالامراض العقلية، وكل هذه الخدمات تقدم لخواص الناس وعامتهم، كما حظيت هذه البيمارستانات بمتابعة السلطان الشخصية نفسها[٤].

لقد كانت عناية السلطان بالامن الصحي دليلاً على وعيه وعقليته الفذة، وإحساسه بمشاعر رعيته ومشاركته إياه فيها، حيث استعان بالكفوئين ولم يكن يسمح لأحد بممارسة الطب ما لم يكن أهلاً لذلك، وبعد ان يقوم كادر متخصص بتجربته[٥]، وقد أدى هذا الاهتمام المتزايد الى ازدهار صناعة

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩، ص ص٥٩-٦٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٥٤.

(٢) المقريزي: الخطط، ج١ ص٤٠٧، ج٢ ص٢٣٣، زكي: تاريخ الدول والامارات الكردية، ص٢٣٥.

(٣) المقريزي: م.ن، ج٢ ص٢٣٣.

(٤) الرحلة: ص٢٤.

(٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤١٧.

الادوية المعقدة، فقد كان الشيخ السديد بن أبي البيان المولود في (٥٥٦هـ/١١٦٠م) أحد أطباء المركز، مشهوراً بصناعة الأدوية[١].

قامت القاهرة في هذه الفترة بتصدير كميات من الادوية الى العراق والشام[٢]، وهو ما يجعلنا نستنتج وجود معامل لصناعة الأدوية في القاهرة، إذ يصعب تصدير كميات هائلة من الأدوية دون توفر معامل خاصة لإنتاجها.

مارس الأطباء أعمالهم داخل المارستان الحكومي وفي خارجه أيضاً، وقد فتح بعضهم عيادات خارجية خاصة بهم، حيث كان الشيخ الموفق أبو العشائر هبة الله الملقب بشمس الرئاسة بن زين بن حسن الاسرائيلي، من الاطباء المحترفين في عدة مجالات، وهو فسطاطي المولد، وقد كانت له عيادة في سوق القناديل فضلاً عن ذلك كان قد تولى التدريس في مجال الطب، وكان له تلاميذ يدرسون عليه[٣].

لم يقتصر عمل الامن الصحي على فتح البيمارستانات وتوفير الاطباء فحسب، بل تجلى في مكافحة الأوبئة والامراض قبل استفحالها ايضاً، إن الوقاية -كما يقال- خير من العلاج، وحالما أدركت الحكومة أن هناك سبباً ما وراء انتشار الأوبئة عملت جاهدةً على منعه وإزالته. من ذلك أنها لما علمت بأن أسباب انتشار بعض الأوبئة والأمراض يعود الى تلوث بعض المأكولات والمشروبات، لذلك أمرت المحتسبين المسؤولين عن هذا الميدان إلى تكثيف عملهم لمنع بيع المأكولات غير الصالحة للأكل، وكالعادة فان المحتسبين ومعاونيهم كانوا يتقنون كيفية ضبط تلك الأطعمة والاشربة التي تتسبب في انتشار الأوبئة والأمراض وكانوا بالمرصاد لمن يثبت عليه الغش والتلاعب[٤].

كانت القاهرة تعاني من أزمة شحة مياه الشرب وذلك لبعدها عن نهر النيل[٥]، وقد اصبح ذلك فيما بعد مشكلة كبيرة للأهالي، وكان من الصعب الحصول عليها مع ملاحظة ان حاجة الانسان لا تقتصر على الشرب فقط، ولذلك فان الاهالي اضطروا للحصول على المياه كيفما كان، وقد اتبعوا في

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء، ص٥٧٩ فما بعد.

(٢) ابن أبي أصيبعة: م. ن، ص٥٨٤.

(٣) ابن ابي اصبيعة: عيون الانباء، ص ص٥٧٦-٥٧٧.

(٤) العمري: المصطلح الشريف، ص١٦٢.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، (القاهرة ١٩٦٠) ص٣٥.

ذلك شتى الوسائل كان معظمها بدائياً وخالياً من توفر الامن الصحي، فكانوا يجلبون المياه للحصول على اكبر قدر ممكن من الارباح، دون مراعاة نوعية المياه التي يجلبوها، ونظراً لارتفاع ثمن المياه الصالحة، فقد تعذر على الفقراء الحصول عليها، يبدو انهم اضطروا إلى استخدام المياه الراكدة أو المخزونة لمدة طويلة مما كان له ضرره البالغ في انتشار الأمراض بينهم[١]. يبدو ان المياه المخصصة للشرب كانت تخضع للفحص والاختبار، فإذا ثبت عدم صلاحيتها للشرب، استخدمت لاغراض اخرى، فعلى سبيل المثال: عندما حفر الأيوبيون بئراً في القلعة، واستمرت عملية الحفر الى ان تجاوزت المياه العذبة الى مياه آسنة ذات طعم ممجوج مائل الى الملوحة، اهملوه ولم يستخدموه للشرب[٢].

لم تكن المواد المعقمة متوفرة، ولم تعرف الطرق البسيطة المعروفة الان كغلي المياه، أو غيرها. أما طريقة توفير المياه للأهالي فيبدو أن الحكومة لم تستطع تأمين المياه لهم على حسابها الخاص، فكانت تنقل اليهم من النيل بواسطة الجِمال والبِغال، وأما البيوت الواقعة على النيل فكانت تحصل على الماء بواسطة سفن الشواني والدواليب، وقد تم تحقيق تقدم ملموس في هذا الميدان، إذ تطورت أساليب رفع المياه الى علو خمسمائة ذراع لإيصالها الى بيوت الامراء وكبار رجالات الدولة[٣].

كانت السلطات الأمنية تراقب عن كثب كل المظاهر التي لا تخدم الامن الصحي، حرصاً منها على حياة الاهالي، وكان التركيز على صنع تراكيب العقاقير الطبية دقيقاً، نظراً لخطورتها على صحة المرضى، وقد فرضت على العاملين في هذا الميدان الحصول على الاجازة لغرض ممارسة المهنة موقعة من قبل المتطبب[٤]، وتعادل إجازته إجازة ممارس مهنة الكيمياء، وهي من المعلوم التي لها صلة وثيقة بصناعة الأدوية، ومن اشهر الاطباء في هذا الميدان عبد المنعم الحياني، وكان له محل (عيادة) لممارسة الطب، وهو كيميائي في الوقت عينه[٥].

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ص٢٥٥.

(٢) كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص١٦٥.

(٣) كازانوفا: م.ن.ص.

(٤) العمري: المصطلح الشريف، ص١٦٢، سيد الأهل: ايام صلاح الدين، ص ص١٤١-١٤٢.

(٥) صفدي: الوافي بالوفيات، ج٢ ص٣٣، سيد الأهل: م. ن، ص ص١٤١-١٤٢.

تطورت الدراسات الطبية على المستويين النظري والعملي، وقد تطور الأخير بفضل علم التشريح، وقد جنى الأطباء منه فوائد فاقت ما وجدوه في الكتب بشكل نظري[1].

وقد تنوعت نشاطات الامن الصحي، وتداخل عملها مع العمل البلدي، اذ تم التنسيق من قبل المحتسب الصحي مع البلدي لغرض القيام ببعض الاعمال التي تهم الطرفين، وهناك امر اخر مشترك بين الطرفين، يتمثل في جعل البيئة صحية، فكان الايوبيون قد راعوا خلو الهواء من التلوث، حتى في بداية تخطيط القلعة، وجدوا ان افضل مكان لها هو فوق جبل المقطم[2]، وقد دأبوا على إبعاد الأعمال التي تؤدي الى تلوث البيئة فامرت السلطات الصحية بابعاد الاعمال التي تتخلف عنها نفايات وروائح وغبار، والزم اصحابها بابعادها من مركز السوق الى اماكن اخرى، كصناعة نحت الاحجار وصناعة الدباغة وصبغ الجلود الملونة داخل الأحياء السكنية[3]، كما خضع طراز الابنية لشروط صحية، وغالباً ما كانوا يبنون ابنيتهم في اماكن عالية، خوفاً من زيادة النيل[4] وزودوا بيوتهم بنظام صحي للتهوية بحيث تكون منافذ منازلهم مواجهة للرياح الشمالية الطيبة، وفي الدار باذهانج- فتحة كبيرة للتهوية لدخول الرياح[5]، وكانوا يستعينون بالمهندسين للبناء[6]. ومن نتائج هذه الإجراءات ظهور القاهرة بشكل جميل خال من المياه الراكدة والقذرة، التي كانت بؤرة لتجمع الحشرات والبعوض الناقلة للأمراض المعدية، ولا يستغرب ان يحمي الإنسان نفسه من تلك الأمراض بالطريقة التي يراها مناسبة، في الوقت الذي لم يكتشف الإنسان اللقاح ضدها، فالفرار منها كان أمراً شائعاً، فالملك المسعود بن الملك الكامل غادر اليمن مع أهله وذويه خوفاً من الوباء المنتشر هناك، وأنابه أحد الأمراء التركمان[7].

(١) ابن ساعي: الجامع المختصر، ج٩ ص٥٠.
(٢) زكي: قلعة صلاح الدين، ص٢.
(٣) مصطفى: المدن في الاسلام، (القاهرة ١٩٨٨) ج٢ ص٦١.
(٤) البغدادي: الافادة والاعتبار، ص١٤٠.
(٥) البغدادي: م.ن ص، مصطفى: المدن في الاسلام، ج٢ ص٥٥.
(٦) البغدادي: م.ن، ص١٤١.
(٧) تاريخ ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص٢٣٨.

كان من واجب والي الحرب الحذر من الأمراض المعدية[1]، واذا ما وجد اصابة شخص ما بتلك الامراض، وجب عزله خوفاً من انتشارها وانتقالها إلى الآخرين[2]. وقد قام الايوبيون بمكافحة كل ما يؤدي الى انتشار الاوبئة والامراض، التي قد تنتشر خلال المعارك، اثر ترك جثث القتلى في العراء ويتسبب تفسخها في انتشار الامراض، وقد اشار الاطباء بالابتعاد عن تلك الجهات[3].

اقتضت الضرورة ان تتعاون الشرطة مع الجهاز الصحي، لان التحقيقات استوجبت فحص الجثث التي تظهر عليها آثار الضرب، للتقرير الصحي في إثبات أو إعطاء معلومات الى جهاز الشرطة[4]، والذي لا يزال باقياً حتى أيامنا هذه حيث تؤخذ الجثث إلى المستشفيات (قسم الطب العدلي) لبيان أسباب الوفاة إذا دعت الحاجة. وكذلك فان السلطات الأيوبية لم تتخلى عن واجبها الرسمي في اشد الأيام صعوبة عندما مرت بالبلاد موجات عديدة من الأوبئة والمجاعات التي حلت بها في السنوات ٥٩٥-٥٩٧هـ/١١٩٥-١٢٠٠م وتوفى على أثرها أعداد هائلة من الناس، إذ لقي اكثر من ثلاثمائة ألف إنسان في القاهرة وحدها حتفهم، فأخذت السلطات على عاتقها مسؤولية دفن هذه الجثث المرمية في الشوارع لأسباب إنسانية ودينية وصحية، حتى لا تنبعث منها روائح كريهة، او تتسبب في المزيد من الكوارث[5].

وواصلت السلطات الامنية الصحية مهامها بنجاح في مكافحة كل المظاهر التي لها علاقة بالامن الصحي، اذ وضعت بعض الاماكن تحت المراقبة كالحمامات، وأوجبت على أصحابها ضرورة توفر الشروط الصحية، اذ كان يمنع فيها صبغ الجلد، كما منعت دخول الأبرص والمجذوم إليها[6]، والخدمات التي قدمها الامن الصحي كانت ذات سمة اجتماعية أيضاً، لان هناك بعض المواد كانت وما

(١) العمري: المصطلح الشريف، ص١٤٠.
(٢) المقريزي: الخطط، ج١ ص٢٦٨.
(٣) العسلي: فن الحرب الاسلامي، ج٤ ص ص١٥٢-١٥٣.
(٤) المسبحي: اخبار مصر، ج٢ ص٢٣٣.
(٥) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٤٩، تاريخ ابن الفرات، مج٤ ج٢ ص٢٠٨.
(٦) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٩" الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٢١٤.

تزال لها أضرار صحية واجتماعية كتناول الحشيشة مثلاً، اذ قاومت انتشار هذه المادة، وقامت سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م بحرق كميات كبيرة منها[1].

لم يقتصر عمل جهاز الامن الصحي على الاهتمام بالاهالي فقط، بل حظي الغرباء ايضاً بعناية صحية بالغة، اذ تم تخصيص مستشفى خاص بهم تقوم بتوفير كل ما يحتاجونه من العلاج الطبي فضلاً عن الاكل والشرب[2].

ومن المعلوم ان البغال والخيول والابقار والجمال وما الى ذلك كانت من الوسائل التي لا يمكن الاستغناء عنها في شتى جوانب الحياة، فان الحملات العسكرية لم تكن لتتم لولا الخيول والبغال، واذا ما انتشر الداء بين هذه الحيوانات وغيرها بشكل او باخر شكل ذلك ولا شك تهديداً خطيراً على الامن العام، فيتوقف نتيجة لذلك نشاط الانسان في اداء مهامه ايضاً الخاصة والعامة، لذلك فان الدولة لم تغفل عن توفير التأمين الصحي للحيوان ايضاً، وقد استوجب الامر معالجتها وخصصت لها بمارستان خاص بها عرف بـ(اصطبل بيمارستان)[3] وقد وجد البياطرة[4] لمعالجة الدواب السقيمة، والمصابة في المعارك.

حظيت الحيوانات بشكل عام باهتمام بالغ لدى كل المجتمعات بل ان بعضها عبد بعض هذه الحيوانات، وكانت رعايتها موجودة منذ القدم، وقد وجد آنذاك من كان يقوم بمعالجة الحيوانات ولكن على نطاق ضيق إلا أن الدول في الوقت الحاضر قد بلغت شأواً متطوراً في هذا المضمار، إذ تنوعت أساليب المعالجة للانسان والحيوان على حد سواء.

نستشف مما ذكر انه على الرغم من انشغال الدولة الايوبية بالحروب والجهاد بشكل مستمر، إلا أن كل ذلك لم يثن عزيمتها عن أداء واجبها بتقديم الخدمات الى الأهالي في كافة أرجاء الاقاليم، ولو نظرنا الى تلك الخدمات لوجدناها دقيقة بحيث لم تحرم منها اقل الشرائح في المجتمع، فحتى الحيوانات تحظى بنصيبها من الرعاية، والبيئة كذلك، إذ حاولوا قدر الإمكان حماية البيئة من التلوث، وإعطاء مدنهم منظراً جميلاً خالياً من المظاهر الشاذة ومنعوا إساءة الآخرين إلى الأمن الصحي بأي شكل من الأشكال.

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢ ص٢٥.

(٢) رحلة ابن جبير، ص١٥، عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص١٣٥.

(٣) الظاهري: زبدة كشف الممالك، (باريس ١٨٩٤) ص١٢٥.

(٤) الظاهري: م.ن، ص١٢٦.

رابعاً: أمن الحج

يعد الحج أحد الأركان الخمسة للإسلام الذي تمسك الأيوبيون بمبادئها، وجعلوا من الشرع أساساً لحكمهم، ولم يألوا جهداً في توفير كل التسهيلات المتاحة وتقديمها الى الحجاج وكان الايوبيون يعدون ذلك من الاولويات التي يجب الاهتمام بها. وكان طريق الحج احد الطرق التي كانت تتعرض دوماً للاخطار من مختلف الجوانب وأصبحت قوافل الحجاج لقمة سائغة لقطاع الطرق والقراصنة، وتزخر المصادر التاريخية بالكثير من تلك الاحداث التي تعرضت لها قوافل الحجاج من الأذى.

أما فيما يخص العصر الايوبي فأن أمن الحج كان استراتيجية أيوبية ثابتة في زمن ملوكهم كافة، وكان للحج علاقة وحيدة بالأوضاع الاقتصادية، لا سيما أن طرق الحج كانت نفسها طرق التجارة، واصبح لزاماً على الدولة الايوبية ان تخطو خطوات هامة لتأمين كليهما، وبعد سيطرة صلاح الدين على ابلة سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[1]. خطا خطوة جريئة لتأمين الطريق الذي يسلكه الحجاج من بلاد الشام الى ديار مصر وقد استخدم الصليبيون قلاعهم في هذه المنطقة للاعتداء على الحجاج[2]، ولم يمض وقت طويل حتى أرسل أخاه تورانشاه سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م الى اليمن، وتمكن من السيطرة عليها، وقد أتاح لهم ذلك السيطرة الكاملة على البحر الأحمر[3].

كان البحر الأحمر شريطاً ممتداً عبر إقليم استراتيجي من العالم الإسلامي وقد اكتظ بالسفن والمراكب التي تحمل الحجاج والبضائع، وقد تجرأ ارناط-رينالد دي شايتون- وهو أحد أمراء الفرنج على القيام بمغامرة خطيرة سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م[4] بغية السيطرة عليها، واستعان بالأعراب القاطنين في سيناء، بينما كان صلاح الدين مشغولاً بحروب الجهاد بعد أن نقل المراكب على ظهور الجمال الى ايلة، وتوغل الى عمق البلاد واستطاع الوصول الى ميناء عيذاب، فتصدت لهم القوات الايوبية بقيادة لؤلؤ

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ق١ ص ٢٨٣، الحنبلي: شفاء القلوب ص ٧٤.

(٢) تاريخ ابن جبير: ص ٤٤.

(٣) Mayer: The Crusades. زكي: قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة، ص ص ١٢١-١٢٢.

(٤) ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣" الحموي: التاريخ المنصوري، ص١٨٠" ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٦٣، المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ٥٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٤.

الحاجب وأنزلت بهم هزيمة نكراء، وأبيدوا عن بكرة أبيهم[1]. ثم فكر في وضع حد لتصرفات الأعراب فقام ببناء قلعة حصينة في عقر دارهم، سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م وانتهى منها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. واستطاع أن يحد من نشاطات اليهود.

لم تكن الاخطار المحدقة بأمن الحج قادمة كلها من الخارج، فحسب بل كانت بعض الأخطار تأتي من الداخل، وعن طريق بعض الأمراء الذين تحكموا بأمر الحج، وتصوروا بان الحج ومراسيمه تركة لهم آبائهم[2]. ومن أولئك الذين أشار اليهم ابن جبير أميرها مكثر[3] لقد استغل أمراء مكة انشغال صلاح الدين بالجهاد وقاموا بفرض ضرائب باهضة على الحجاج لم يتمكن من دفعها الا الاغنياء منهم[4] وكانت ديار مصر معبراً هاماً للحجاج القادمين من المغرب، ونظراً للعوائق التي وضعت من قبل أمرائها والمصاعب التي واجهت حجاجهم فقد رأى بعض فقهائهم لا سيما الأندلسيين منهم الإفتاء بإسقاط فريضة الحج لشدة ما ينزل بالحجاج من الظلم والتعسف[5]. فقد عز على صلاح الدين تعرض الحجاج لهذه المآسي سواء أكانت من جراء المعاملة السيئة التي كان أمراء مكة يعاملون بها، أو من الاعتداءات التي كانوا يتعرضون لها على يد قطاع الطرق، خاصة انه عرف عنه الحكمة والرزانة في التعامل مع القضايا وخاصةً تلك التي تهم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها، فوجد السلطان بان خير وسيلة يمكنه بها معالجة الوضع القائم تكمن في التقرب الى امراء مكة بالاحسان فتخفف بذلك العبء على الحجاج وفسح لهم المجال لأداء فريضة الحج على أكمل وجه، وقدم الى أمير مكة استعداده بتحمل تكاليف كافة الحجاج القادمين الى الحرمين الشريفين، وتعهد ان يحمل اليه مقابل ذلك غلات وأطعمة باسم ميرة مكة والمدينة، فتم بهذا العمل ازاحة اكبر معضلة كانت تواجه الحجاج، وتمنعهم أو

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج٩ ص١٥٧، تاريخ ابن جبير: ص ٣١، الدواداري: كنز الدرر ج٧ ص ٧١، القلقشندي: المصطلح الشريف ص ٢٣٧" نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص ١١١.

(٢) رحلة ابن جبير: ص ص ٤٨-٤٩.

(٣) يعرف بالامير مكثر الذي تولى اسرته مهام الاشراف على بيت الله الحرام وبعد وفاته سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، انتهت دولة بين هواشم ثم ملكها بنو قتادة وهم من آل ابي طالب، وجرى داخل اسرتهم صراعات من اجل امارة مكة. ابن الاثير: الكامل ج٩ ص٢٢٩، القلقشندي: صبح الاعشى ج٤ ص ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٤) رحلة ابن جبير: ص ٢٩.

(٥) م.ن : ص ٤٩.

تصعب عليهم أداء فرائضهم، وأمّن الحج للناس كافة[1]. وكان أهل عيذاب يقومون بإيصال الحجاج من أراضي مصر إلى الجهة المقابلة من البحر الاحمر، وكانوا يذيقون الحجاج الأمرين عند نقلهم ولعل مقولتهم: "علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح"[2] وهذا أكبر دليل على الخطورة الشديدة التي كان يتعرض لها الحجاج، حيث يتم تحميل أضعاف سعة المركب بغية جباية أكبر قدر ممكن من المال منهم، حتى إن أجرة نقل الحجاج لمرة واحدة كانت كافية لشراء مركبين أو أكثر من المراكب التي كانت تسمى عندهم بالجلاب، ولعل هذه المعاناة هي التي دفعت ابن جبير. الى القول بأن حال القادمين الى الحج بواسطة مراكب الروم كان احسن حالاً من هؤلاء[3].

تنوعت الاساليب التي اتبعها السلطان لغرض تأمين حياة الناس في كل الأماكن المقدسة الداخلة في نطاق حكمه، ومنها أنه عين لها قومة وخصصت لهم رواتب شهرية[4]، وكذلك استعان بالأدلاء من القبائل المرابطة لطرق مرور القوافل[5]، لكي يتم الوصول إليها وأداء المناسك والشعائر الدينية فيها بسهولة ويسر. وقام بتقسيم طريق الحج الى محطات، وجعل على كل منطقة جماعة من العرب (البدو) يقومون بالمرابطة لضمان أمن الحج[6]. في الوقت نفسه فقد دس بين الحجاج من يقوم بجمع المعلومات له، حتى يكون على اطلاع دقيق على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بأمن الحج وتحركات القوى المعادية من الفرنجة وغيرهم[7] فاستقرت لذلك أمور الحجاج، وتنعموا بنوع من الأمن والسلام، غير ان مكثراً أمير مكة كان يعاود أفعاله القديمة من ترويع الحجاج والتعدي عليهم كلما تأخر وصول الأموال والأطعمة المتفق عليها إليه[8] وقد أدرك الحجاج الجهد الكبير الذي يضطلع به صلاح الدين لذا ارتفع شأنه عندهم

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٣٨. رحلة ابن جبير، ص ٢٩.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٣.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٤٨، من الطريف في الامر ان هذه الصور المؤلمة بكل تفاصيلها تكرر في ايامنا هذه لكن ليس مع الحجاج، وانما مع المهاجرين بطرق غير قانونية الى بلدان اوروبا، حيث يتعرضون لاساليب بشعة من الاستغلال نشيه الى حد بعيد ما كان يتعرض اليه الحجاج قبل ما يناهز الف عام.

(٤) العماد الاصفهاني: اليرق الشامي ج ٣ ص ص٨٨-٨٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣٣.

(٥) المقريزي: البيان والاعراب ص ٢٦.

(٦) القلقشندي: صح الاعشى ج٤ ص ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ق١ ص ٣٩٢.

(٨) رحلة ابن جبير ص ص ٤٨-٤٩، القلقشندي: صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٧٦.

كثيراً ثم رفع علمه في عرفات، وهو أمر كان محصوراً بالخليفة وحده[1]،وقد تكرر ذلك أيام سيطرة ملوك بني أيوب على اليمن والحرمين الشريفين، حيث تم رفع علم الملك الكامل قبل علم الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) دون أن تلقي أية معارضة[2].

وقد ساهمت هذه الإجراءات في تسهيل حل جميع المعضلات التي كانت تواجه الحجاج، ومن ثم فقد ثبت الأمن والاستقرار، واصبح بمقدور الجميع أداء هذه الفريضة بكل سهولة ويسر، إذ عدها الأيوبيون من أولويات حكمهم ولعل من ابسط هذه المظاهر استقباله شخصياً للحجاج[3]، بيد لم يحظ بالفرصة لأداء هذه الفريضة لانشغاله باستمرار بأمور الدولة الجسام كان يصعب عليه تركها والذهاب لأداء فريضة الحج[4].

يبدو أن الأيوبيين لم يلتزموا بعد وفاة صلاح الدين بالاتفاق الذي كان قد عقده مع أمراء مكة، ففي سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م قام الملك المسعود أقسس بن الكامل صاحب اليمن بالاستيلاء على الحرمين، وقتل جماعة من أمرائها ونصب رايته، وقد واستنكر الخليفة عمله هذا وعاتب الكامل على ذلك، وعلى الرغم من معارضة الملك الكامل لهذه الممارسة بقي الأمر على حاله لحين وفاة الأقسس سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م[5].

وفيما يتعلق بكسوة الكعبة، كانت من مهام الخليفة، ويتولاها الخلفاء على التتالي، وكان الفاطميون يكسونها بأقمشة بيضاء، في حين كان العباسيون يكسونها بالسواد وهو ما ظل عليه الأمر عندما تولى الايوبيون ذلك، وهم بمثابة نواب الخليفة العباسي وكانوا يكسونها في مراسيم مهيبة للغاية[6].

أما فيما يتعلق الامر بأمن الحجاج الصليبيين، فكان ذلك مؤشراً على عظمة السلطان وسعة تفكيره ورفاهة حسه احترامه للمشاعر الدينية على اختلافها، فبعد إتمام الصلح مع الانكلتير(ريتشارد

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٠٥.

(٢) ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٢، تاريخ ابن الفرات مج ٥ ج١ ص ٢٣٨" الدواداري: كنز الدرر ج ٧ ص ٢٥٢، المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢ ص٩٠، السلوك ج١ ق٢ ص٢٧٣.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩، ص٥٩.

(٤) العماد الاصفهاني: الفتح القسي ص ٦١١، ابن الاثير: الكامل ج٩ ص ٢٢٢، ابن شداد: النوادر ص ٢٤٢، الحموي: تاريخ المنصوري ص ٢١٣، قلعجي: صلاح الدين ص ٤٣٢" ابو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٣٢.

(٥) القلقشندي: صبح الاعشى ج٤ ص ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٦) القلقشندي م.ن ج٤ ص ص ٥٨-٥٩، الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٢.

قلب الأسد) سنة ٥٨٧هـ/١١٩٠م[1]، بات الطرفان في حرية كاملة للدخول الى أرض الآخر او الخروج منه، وعم الامن والسلام الجميع، واستبشر المسلمون والنصارى بذلك خيراً على حد سواء، ونشطت الحركة التجارية وانهالت على القدس موجات الحجاج النصارى ، وكانت السلطات تبغي ان يحج هؤلاء بكل حرية دون أن يمس أحد منهم بسوء، اذ ضبطت الطرفات التي يسلكونها، ووضع عليها الحراس والخفراء حفظاً لأمنهم، إلى حين عودتهم، لكي يطّلعوا بأنفسهم على حقيقة الأمر، ومن ثم يخبروا مواطنيهم لكي يأمن المسلمون من شرهم[2]، ليتأكد لهم بان المزاعم الصليبية بمعاناة الحجاج النصارى على أيدي المسلمين ليس إلا كذب وافتراء وخدعة لهم، ولأجل تحريضهم لنجدة القدس[3].

يبدو ان معاملة السلطان للحجاج النصارى الى بيت المقدس باعتباره مسقط رأس السيد المسيح(ع)، قد أوغر صدر ملكهم وأدهشه وطلب من السلطان أن لا يسمح لأحد منهم إلا الذين يحملون الإجازات الرسمية لأدائه. وقد علم الحجاج بذلك، غير أن السلطان لم يلتفت إلى قول الملك بل عمل على العكس مما أراده، فزاد في إكرامهم وعمل على مساعدتهم ومباسطتهم وبلغهم إنكار ملكهم، وكان السلطان يعرف جيداً ان بين هؤلاء الحجاج ملوك وامراء متنكرون، لكنه كان يغض النظر عن ذلك احتراماً لموسم الحج وقدسيته واعتذر للملك بانه لا يريد ان يمنع أولئك الذين قطعوا كل هذه المسافة لأداء الحج، وزيارة الاماكن المقدسة عندهم[4]، على الرغم من تعدد الاهداف من زيارة بيت المقدس، لان الملوك ومعهم الكنيسة قد حرضوا كل الفئات في المجتمع لاداء فريضة الحج حتى يتسنى لهم استغلالهم لاهدافهم الخاصة[5]. كاستخدامهم لأغراض السلب والنهب والاعتداء على القوافل التجارية[6]. بعد تجنيدهم في صفوف عساكرهم مقابل أموال تدفع لهم[7].

---

(١) أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر ج٣ ص٨٠.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٦

(٣) محمد عبد الجبار: عرض وثائقي لفترة صلاح الدين، ديسك www.canmedia.com

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٦.

(٥) زابوروف: الصليبيون في الشرق، (موسكو ١٩٨٦) ص ٢٣٦.

(٦) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٧١.

(٧) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٥٥. مؤنس: نور الدين، ص٢٨٧.

ولم يغب عن بال السلطان حق النصارى في الحج إلى القدس، باعتبارها مسقط رأس السيد المسيح (عليه السلام)، وكان قد عاش فيها ردحاً من الزمن، وإنها بمثابة الحرمين الشريفين للمسلمين، وقد اصبح ذلك غريزة فطرية عندهم[١].

نستنتج من خلال ما ذكر إن الفرق بين الأداء الاسلامي والنصارى للحج كان قد أختلف كلياً، حيث أن الحاج الاسلامي يقطع مسافات طويلة، ويصرف أموال هائلة فضلاً عن تحمله مخاطر جسيمة لأجل اداء ركن من اركان دينه دون المساس بهذه الفريضة، في حين أن الحجاج الصليبيين هم من مختلف الفئات الاجتماعية كالمسلمين، ولهم أهداف متعددة فضلاً عن الحج، كالحصول على الكنوز او الترحال من بلدانهم والمكوث في بلاد الاسلام، وقد ساندتهم الكنيسة والدولة على حد سواء.

خامساً: أمن السجناء والأسرى

كانت السجون في الدولة الايوبية على نوعين، أحدهما: مخصص للامراء والمماليك كخزانة البنود[٢] التي أصبحت فيما بعد منازل لأسرى الفرنج[٣]، وثانيها: لأصحاب الجرائم أو الذين يرغب السلطان بمعاقبتهم وتمثل بخزانة الشمائل[٤]. وقد حاول الايوبيون طمس الكثير من معالم الدولة الفاطمية عن طريق هدم أو تحويل بعض الرموز التي كانت تعبر عن الظلم والاضطهاد كالحبس المعروف بـ(المعونة) والذي تم تحويله الى مدرسة دينية للشافعية[٥]، يبدو ان الأيوبين قد قاموا بهذه الأجراءات بغية أرضاء الأهالي، لأن حال السجن والسجناء لم تكون بأحسن من سابقهم.

وعلى الرغم من وجود السجون الرسمية، الا ان أنواعاً أخرى منها ظهرت طبقاً لمقتضيات الظروف، وقد تستخدم هذه الأماكن للحجز فقط، فعندما تمت إزالة الخلافة الفاطمية ٥٦٧هـ/١١٧١م،

(١)O'clery: The Pegasas book of Egypt p.33

(٢) القلقشندي: صبح الاعشى ج٣ ص٤٠٤، المقريزي: الخطط ج١ ص ص ٤٢٣، ٤٦٣.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الادباء، ج٣ ص ٣٠ هامش رقم (١).

(٤) بناه شمائل والي القاهرة، وسمي باسمة (الدواداري: كنز الدرر ج٧ ص٢٠١ هامش رقم (١)، المقريزي: الخطط ج٢ ص١٨٨.

(٥) البنداري: سناء البرق الشامي، ق١ ص١٠٧، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٢٨٣، العمري: مسالك الابصار ج٢٧ ورقة ٥٥.

أودع جميع أفراد الأسرة الفاطمية مع أُسَرِهِم في مكان خاص في دار المظفر بحارة البراجوان، كانت تعرف بدار الضيافة، ووفرت لهم كل مستلزمات الحياة وقد ظلوا في هذا الدار حتى سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م، وكان أقسى ما فعل بهم في البداية هو التفريق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا[١]، لان التوصل بينهما لم يكن متفقاً مع أمن الدولة، رغم أنه يتنافى مع الشرع الاسلامي الحنيف، والحقيقة إن ذلك كان أمراً طبيعياً حيث لم توجد آنذاك سجون عائلية يتم فيها حبس العائلة مع بعضها في غرفة واحدة، ولا شك أن هذا الأمر غير موجود في العصر الحالي أيضاً.

وكانت الأمور تسير بشكل طبيعي لغاية سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، حين تم نقل جماعة منهم الى صرخد ليلا[٢]، ويمكن تفسير ذلك الاجراء بوجود نشاطات سياسية للمسجونين مع جماعات وأنصار موالية لهم في القاهرة، فاقتضت الضرورة الامنية ابعادهم.

حاول بعض الفقهاء تحريض السلطان صلاح الدين على قتل الخليفة العاضد، فلم ينصاع السلطان لطلبهم، وعزف عن فعل ذلك[٣] على الرغم من فتاوى الفقهاء بجواز قتله لانحلال عقيدته، غير أن السلطان أبى أن يقتل خليفته، كما كانت تربطه به علاقة وثيقة في السابق، فضلاً عن نهي الاسلام بقتل الخليفة لأنه يخلف رسول الله.

يبدو أن النشاطات السياسية التي استهدفت الاخلال بأمن البلاد لم تنقطع من قبل اعداء الدولة الايوبية، وقد جرت اتصالات اخرى بين المحجوزين وانصارهم في الخارج فعندما تولى الكامل بن العادل نيابة القاهرة وتحول الى قلعة الجبل سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م قام بنقل أولاد العاضد سنة ٦٠٨هـ/١٢١٢م الى القلعة، وكانوا ٦٣ شخصاً، وشدد عليهم الرقابة الامنية، ووضع القيود في أرجلهم، وكان ذلك بايعاز من والي القاهرة فخر الدين بن الطونبا ابو شعرة بن الدويك[٤]. حيث كان من واجبات والي

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٨٢، المقريزي: الخطط ج١ ص ٣٨٤.

(٢) المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ١١١.

(٣) العمري: مسالك الابصار ج٢٧ ورقة ٥٢، تاريخ ابن الوردي: ج٢ ص٧٦، المقريزي: الخطط ج١ ص ٢١٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص٧.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ١٧٥، الخطط، ج١ ص ٣٨٤.

الحرب، أي (والي المدينة) تفقد السجون والسجناء، ومن صلاحياته اتخاذ ما يراه مناسباً تماشياً مع أمن الدولة[1] وقد تم نقلهم مرة أخرى من قلعة الجبل سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م الى مكان آخر[2].

ان تأسيس دولة وترسيخ كيانها لا يتم إلا باستخدام كل السبل الكفيلة بتحقيق الامن والاستقرار فيها، ويعد استخدام الشدة من الطرق التي لا بديل لها للحصول على المعلومات التي تتعلق بأمن الدولة، وبعد ان أزيلت الخلافة الفاطمية، صارت أسرارها وكنوزها من أملاك الدولة الجديدة، غير أن بعض أسرارها بقيت غامضة ولم يتعرف عليها أحد، وقد كان الغلمان العاملون في القصر على علم بكثير من المعلومات التي تؤدي الى كشف الكثير من المخابئ، فلم يبق أمام السلطات الأيوبية والحالة هذه إلا اللجوء الى الاساليب البدائية القاسية لارغام هؤلاء على الادلاء بالمعلومات المتوفرة عندهم، وقد استخدمت في سبيل ذلك وسائل لم تسفر عن تحقيق النتائج المرجوة لأنها كانت بدائية، وسرعان ما تراجع السلطان عن عمله هذا لطيب قلبه، وخوفه من الله تعالى[3].

اما فيما يتعلق بالاوضاع السائدة في السجون، فالمعلومات المتوفرة تلقي الضوء بشكل أساسي على العهود التي اعقبت صلاح الدين، لا سيما بعد اشتداد الصراع الأسرى بين الايوبيين. حيث كانت الأوضاع مزرية ومفتقدة لابسط شروط الانسانية، حيث امتلأت السجون بأعداد كبيرة من السجناء الذين وجهت لهم تهم مختلفة، ففي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م حُبس القاضي نجم الدين ابي البركات عبد الرحمن بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون في بيته حتى الموت ويسد الباب عليه ومنع الطعام والشراب عنه، بتهمة ميله الى أولاد صلاح الدين، ثم شفع له فخففت عقوبته واكتفي بنفيه إلى حماة[4]، ومن هذه القصة نستنتج ان عقوبة العلماء كانت مقتصرة على الحجز في البيت او المسجد غالباً لمكانتهم الكبيرة لدى الناس والسلطة، ولم يزج بهم تحت أي ظرف في سجون العامة مع الاخرين. وكان في جامع الازهر مكان خاص لسجن العلماء والفقهاء[5]. وقد تقتضي الضرورة بحبس المتهم

---

(١) العمري: المصطلح الشريف، ص١٤٠.

(٢) دون تحديد المكان. ينظر: المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ١٦٥.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج٣ ص ٣٩٦، القلقشندي: مآثر الانافة: ج١ ص ١٢٠، المقريزي: الخطط ج١ ص ٤٤٧.

(٤) تاريخ ابن الفرات: مج ٤ ج ٢ ص ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٥) الذهبي: تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٦٦.

انفرادياً يحول دون اختلاطه بالآخرين[1] كما قد يبعد السجين الى مكان بعيد ومحصن، حسب خطورته ونوع التهمة الموجهة إليه وتأثيرها على أمن البلاد. وقد كانت الدولة تحرص كل الحرص على الحيلولة دون اتصال هؤلاء المسجونين بأنصارهم او أعوانهم في الخارج، كما فعل الملك العادل الذي ألقى بابني صلاح الدين المعز والمؤيد في سجن الكرك الذي بقيا فيه حتى سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م[2]، كما تم نقل سليمان شاه بن تقي الدين من اليمن الى القاهرة تحت حراسة مشددة مع زوجته بنت سيف الإسلام حيث اعتقل هناك[3].

يبدو انه لم يكن بالإمكان زج كل المعارضين والمناوئين للسلطة في السجون، بل اقتصر على أكثرهم خطورة بل قد يتطلب الأمر نفيهم إلى أماكن بعيدة، من ذلك قيام الملك الكامل بأمر وزيره ابن شكر ان ينفي جميع الأمراء الذين مالوا إلى أخيه الفائز في الجيزة ودمياط الى التوجه أينما شاءوا، فكان ان توجه جميعهم الى الشام[4]، وقد لجأ الى حيلة أخرى، حيث أرسل عدداً منهم إلى أماكن بعيدة بحجة ثقته بهم[5]، كان عصر الملك الكامل قلقاً يفتقر الى الامن والاستقرار وبدأ الناس يخافون على أنفسهم، لان مجرد الشك في شخص كان كافياً لاعتقاله، أو نفيه، أو الاستيلاء على أمواله، وإذا ما اختفى أحد المطلوبين فإن أمواله تصادر[6]، وكثرت عمليات المطاردة للمطلوبين وقد زاد عدد السجناء لدرجة عجزت معه السجون عن استيعابهم لكثرتها، لذلك لجأ إلى استخدام البدائل، فما أن وجدت قاعة في القاهرة حتى يتم تحويلها الى سجن، وبلغت الأحوال الأمنية درجة من السوء لم يجرؤ الكامل نفسه على الخروج من القاهرة خوفاً من أخيه المعظم الذي هدده بأخذه عن طريق عساكره[7]، وقد وصل به الشك حداً جعله يزج بوزيره في السجن لتبقى الدولة بلا وزارة[8].

---

(١) تاريخ ابن الفرات: مج ٤ ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) تاريخ ابن الجزري: ص ٢٠٩.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٨٩.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ٢١٢.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج٥ ص٢٧٥.

(٦) العيني: عقد الجمان ج١ ص ٣٢، المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ٢٤٤.

(٧) المقريزي: السلوك ج١ ق ١ ص ص٢٢٠، ٢٢٢.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص١٥٧.

ولعل انتشار السجون كان دليلاً يؤكد عدم استقرار الوضع الأمني وانتشار الفوضى التي وصلت حداً استخدمت معه القاعات والاصطبلات[١] والأبراج[٢] والخيم[٣] والبيوت والمساجد والجباب التي لم يعرف السجناء فيها الليل من النهار[٤]، وكان السجناء يتكونون من المتهمين والأبرياء من ثبت عليه تهمة أو رتبت له تهمة، وقلما عومل السجناء معاملة إنسانية تليق بهم، لا سيما في الأوقات والأزمات التي مرت بها ديار مصر، ففي سنوات القحط ٥٩٥-٥٩٧/١١٩٨-١٢٠٠م[٥]، عانى الأهالي من قسوة الحياة التي وصلت حداً جعلت بعض يأكل صغاره، ومن الطبيعي ان تنعكس هذه الحالة على المساجين أيضاً داخل السجون إذ تساوى السجناء والطلقاء وقد اضطروا إلى أكل بعضهم بعضاً داخل السجن[٦].

وفضلاً عن سوء الاوضاع المعاشية والصحية، وعدم وجود الطعام الكافي، فقد كانت السجون مكتظة بالقمل ومن نتائج هذه الأوضاع المزرية انتشار أنواع مختلفة من الأمراض داخل السجن، لا سيما النفسية منها، وقد عانى السجناء من قلة النوم وكثرة السهر[٧]، مما دفعت بعضهم إلى الانتحار للتخلص من بؤس الحياة وقساوتها، ومن هؤلاء: السجين سهم الدين عيسى والي القاهرة الذي شنق نفسه سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م على الرغم من أنه كان معتقلاً بدار الوزارة[٨]. وقد كان عصر الملك الصالح نجم الدين حافلاً بالأحداث المريرة كسابقه، فلم يكن يتجاسر على السؤال عن السجناء الذين قد يبقون مدة طويلة دون محاكمة[٩]، وقد بلغ عدد الذين توفوا في السجون ما يناهز الخمسة الاف عدا من قتل أو غرق من جماعة الأشرفية[١٠].

---

(١) المقريزي: الخطط ج١ ص ٤٩٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج٥ ص٣٨٢، المقريزي: الخطط ج١ ص ٣٨٤.

(٣) الدواداري: كنـز الدرر ج٧ ص ٣٣٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ج٥ ص٣٨٢، المقريزي: الخطط ج١ ص ٣٨٤.

(٥) ابن ساعي: الجامع المختصر ج٩ ص٤٩.

(٦) سبط ابن الجوزي: ج٨ ق١ ص٧١٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهر ج٦ ص ٣٢٢.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب ج٥ ص٣٨٢، تاريخ ابن الجزري: ص ٢٠٠.

(٨) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ق١ ص ٧٥٥.

(٩) سبط ابن الجوزي: م.ن ج٨ ق ١ ص ٧٤٤، ابن تغري بردي: م.ن ج٦ ص ٣٣٣.

(١٠) المقريزي: السلوك ج١ ق٢ ص٣٤١.

ولم تكن معاملة الاسرى بأحسن حالاً من معاملة السجناء، فقد أصبحت ديار مصر ملجأ لهم لبعدها عن الشام، وبكثرة الحاجة إليهم من القيام بالأعمال العمرانية[١]، إن استمرار المعارك بين المسلمين والصليبيين وطبيعة هذه المعارك ساهم وبشكل فعال في وجود أعداد هائلة من الأسرى لدى الطرفين ثم استغلالهم أبشع استقلال وأصبحوا ضحية للكراهية الناجمة عن تلك الحروب، ولم يكن حال جميع الأسرى واحداً، بل كان يختلف من أسير إلى اخر، فالذين كانوا يتقنون الحرف والصناعات أو من طبقة عالية كانوا يستخدمون في المشاريع التي تخدم المجهود الحربي أي أنهم قلما يقتلون[٢]، أما الذين لا حرفة لهم، فكانوا يباعون في السوق كعبيد أو يتم شنقه إذا لم يستطع ذويه من دفع فديته[٣] ولا شك ان كثرة العبيد في السوق يقلل من أقيامهم حتى هبط سعر العبيد إلى سعر نعل[٤]، أما الملوك والأمراء والقادة فقد استثنوا من القتل مقابل افتداءه بأموال هائلة، كما تم استخدامهم كورقة ضغط سياسية، وكان صلاح الدين يقول: "الملوك لا تقتل الملوك"[٥] اما قتل ارناط-رينالد دي شابتون- فقد كان أمراً خاصاً، لقد خضعت معاملة الأسرى لظروف كثيرة، اعتمدت في غالبها على طبيعة معاملة الطرف الآخر وكان الأسرى في البداية يعاملون معاملة إنسانية، حيث كان يعطون الفرسان منهم في الشتاء فرواً وبلوزاً قبل إرسال الى السجن، أما الجنود العاديون فكان يتم إطعامهم ثم إرسالهم إلى سوق النخاسة لبيعهم، غير أن أوضاعهم ساءت بعد حادثة عكا ٥٨٧هـ/١١٩١م حيث كان صلاح الدين لا يبقيهم أحياء[٦]، وقد كان الفرنجة هم البادئين بإساءة معاملة الأسرى حيث اتخذوا إجراءات قاسية مع أسرى المسلمين لا تتفق مع أبسط القيم والشرائع السماوية أو الإنسانية، إذ فتكوا بالأسرى جميعاً دون تمييز بين السن والجنس[٧] الأمر الذي اضطر المسلمين إلى مجاراتهم في ذلك من باب التعامل

---

(١) الدواداري: كنـز الدرر ج٧ ص ص ٣١٥-٣١٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٦.

(٣) العماد الاصفهاني: البرق الشامي، ج٣ ص ١٢٦، الذهبي: دول الاسلام ج٢ ص ٩٥. تاريخ ابن الفرات مج٤ ج٢ ص ٢٩. الشاعر محمد فتحي: أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدي، (نينوى ١٩٨٩) ص ٢٤.

(٤) الحنبلي: شفاء القلوب ص ١٢٢.

(٥) الدواداري: كنـز الدرر ج٧ ص ٥٤.

(٦) نيوباي: صلاح الدين وعصره، ص ص١٩٤-١٩٥.

(٧) ابن الاثير: الكامل، ج٩ ص . . . حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج٢ ص ٢٢٩" نيوباي: صلاح الدين وعصره ص ١٩٤.

بالمثل. فقد أقدم الفرنجة على قتل أسرى عكا، دون رحمة أو شفقة، متجاهلين الاتفاق المبرم بين الملك ريتشارد والسلطان صلاح الدين، على الرغم من انهم أعطوا الأسرى وعداً ملكياً بالعفو عنهم إذا ما سلموا أنفسهم ولم يقاوموا، لكنهم وبدلاً من السماح لهم بالانصراف بسلام أنزلوا بهم مجزرة مروعة[1] وبإلقاء نظرة سريعة على سيرة صلاح الدين يتبين انه كان رجلاً ذا مبدأ ومعروفاً بالصدق والأمانة والوفاء حتى مع أعدائه، فالهدنة مثلاً عنده هي هدنة ولا يوجد دليل تاريخي يثبت أنه نقض اتفاقاً ولو لمرة واحدة ما دام الطرف الآخر ملتزم به[2]، وقد تجلت طيبته ومروءته مع أهالي القدس، بعد تحريرها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حيث أعطاهم ما اتفق عليه معهم، دون نقصان[3] وكان لهذه المعاملة أثرها المباشر في استسلام العديد من المدن والحصون له[4] بعد أن أمنوا على أرواحهم وأموالهم[5].

ولم يكن قانون الأسر ينطبق على جميع الاسرى، وهناك من لا يمكن ان يعامل كالأسير خاصة أولئك الذين كانوا يقومون بإيذاء المسلمين ويحاربونهم بشكل غير إنساني، فعقوبة هؤلاء في الإسلام هي القتل، كما تنص عليه الآية الكريمة: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً، ان يقتلوا ويصلبوا او تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم} [6]، ويشمل حكم هذه الآية كل من كان على شاكلة أرناط، كالداوية[7]

---

(١) الحموي: تاريخ المنصوري ص ص١-٢. مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١٠٦" بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥٧.

(٢) مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٧.

(٣) العمري: مسالك الابصار ج٢٧ ورقة ٩٧، قلعجي: صلاح الدين ص ٣٢٧.

(٤) الذهبي: دول الاسلام ج٢ ص ٩٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ٧٦" رنسيمان: الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٦٦.

(٦) سورة المائدة الاية ٣٣.

(٧) هم صنف من الرجال النصارى شديدوا التطرف شاركوا في الحروب الصليبية بعد ان قدموا من اوروبا متطوعين واخذوا على عاتقهم نشر المسيحية، ولا طاعة لأحد عليهم، وقد غالى بعضهم حتى انه حرم على نفسه النكاح. أي انهم قصروا حياتهم على محاربة المسلمين وقتلهم: (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص ٢٧٦، تاريخ ابن الفرات: مج٤، ج٢، ص ص ١٨-١٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦، ص٣٣).

والاسبتارية[1]، وكان أمر قتل هؤلاء يناط الى أهل الصلاح والتقوى من المسلمين[2] بعد إصدار الفتوى من الفقهاء -وكان التمثيل بأسرى المسلمين من الأطفال والشيوخ وتعريضهم لأشد أنواع العذاب وأبشعها يزيد من محبة القائد العسكري الصليبي وكانوا يمارسون ذلك أمام عساكرهم وأهاليهم حتى ينالوا رضاهم، وكان ذلك يدل على شجاعة القائد وإخلاصه-[3]، لان عدم قتلهم كان سيشكل خطراً جسيماً على أرواح المسلمين وأمنهم، اذ كانوا لا يرحمون أحداً ولا يراعون في مسلم إلاً ولا ذمة[4] وكان المسلمون يضعون القيود والسلاسل في أيدي وأرجل الأسرى، لعدم وجود السجون التي تستطيع أن تستوعب أعدادهم جميعاً، لحين تدارك الأمر ويتم تحويلهم الى المعكسرات الخلفية ليقوموا بأعمال أخرى كما سبقت الإشارة، حيث كانت كثرة الأسرى تشكل مصاعب جسيمة وقد وقع في معركة دمياط سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م اكثر من مائة ألف أسير في أيدي السلمين كان من بينهم ريد فرانس ملك فرنسا فأحسن المسلمون معاملته على اعتباره ملكاً، أما الآخرون فقد أجبر الجانب الاسلامي على قتلهم جميعاً.

وقد اسند تورانشاه أمر قتلهم إلى الأمير سيف الدين يوسف بن الطودي الذي كان قد جاء معه من بلاد المشرق، فكان الأخير يقتل في كل ليلة ما بين ٣٠٠-٤٠٠ أسير يضرب أعناقهم ومن ثم يرمي جثتهم في البحر، حتى ابادهم عن بكرة أبيهم[5].

في الحقيقة أن موضوع معاملة الأسرى من الأمور التي تحز في النفس إذ لا يستطيع أحد أن يجد سبباً مقنعاً يسوغ لقتل وإزهاق هذه الأرواح التي يعد قتلها خرقاً لتعاليم الإسلام والمسيحية على حد سواء. فتعاليم الإسلام يؤكد على ضرورة معاملة الأسرى معاملة حسنة ولعل ما فعله الرسولε بأسرى بدر يعد خير دليل على ذلك. كما تنص النصرانية على وجوب نفي القتل أصلاً، والأمر الغريب في هذه المسألة ان الأمراء والقادة الملوك الذين كانوا يصدرون الأوامر بإنزال هذه الأحكام غير الإنسانية كانوا

---

(١) وهم أيضاً جماعة مماثلة للداوية، لعبت دوراً هاماً في الحروب الصليبية (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣ ص ٤١٨، هامش رقم (٦).

(٢) العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج٤ ص ١٤٣.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية ج٣ ص ١٣٤.

(٤) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ص ص ٨١٦، ٨٢٥.

(٥) المقريزي: السلوك ج١ ص ٣٥٦.

يلاقون معاملة حسنة إذا ما وقعوا في الأسر. أما الجنود البسطاء الذين لا حيلة لهم ولا قوة فكانوا يقتلون بطريقة بشعة، وأمر آخر يلفت النظر وهو ان كثيراً من القادة أو الملوك إذا ما تعرض لضغط ما أو ثار غضبه لأمر ما عمد إلى الأسرى تقتيلاً وتعذيباً ليشفى غليله دون وازع ورادع من الضمير.

الفصل الخامس

أسباب تدهور الأمن في مصر

أولاً: الكوارث
ثانياً: الاستخلاف والصراعات الأسرية والنتائج المنبثقة عنها
ثالثاً: المؤامرات وحركات التمرد

لعل الصراع على السلطة الذي حدث بعد وفاة شيركوه سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م، يكون من أهم العوامل التي ساهمت في تدهور الأوضاع الأمنية، حيث عارض عدد من الأمراء الذين رافقوه تولية صلاح الدين إذ كانوا يرون أنهم أحق بالوزارة منه، على الرغم من أن اختياره وقع من قبل الخليفة العاضد نفسه، ويعد عين الدولة الياروقي من أبرز المعارضين، وقد ترك القاهرة بعد تولي صلاح الدين السلطة فيها، وتوجه إلى الشام فأنكر عليه نور الدين عمله هذا، وعده انشقاقاً عن الصف، وخروجاً على إرادته، وهو ما لا يرضيه بطبيعة الحال، ويعود الفضل إلى عيسى الهكاري في توحيد الصف، وإقناع المعارضين بالتخلي عن مواقفهم، على الرغم من كثرتهم بادئ الأمر، فقد قام بالاتصال بهم وحاول إقناعهم الواحد تلو الآخر، وقد تحقق له النجاح ومع أكثرهم، فثبت صلاح الدين أقدامه وتولى الوزارة، حتى أن الكثيرين كانوا ينعتونه باسفهسالار[1] لعلو منزلته وحب نور الدين له[2].

ويبدو أن صلاح الدين كان يتوقع هذه المعارضة، فاتبع سياسية اتسمت بالحكمة والدهاء، فأغلب المعارضين له كانوا من أفراد أسرته، بله إن الكثيرين منهم هم إخوته[3]، فأخوه تورانشاه صرح له بطموحه في السلطة، محتجاً بأنه أكبر منه سناً[4]، كما كان ابن أخيه تقي الدين عمر يرى نفسه أحق منه بالسلطة[5]، هذا فضلاً عن كثير من أمراء الترك، ولم يعرف عن السلطان لجوءه إلى العنف والشدة في مجابهة خصومه من أبناء أسرته بل كان يؤثر المصالحة والإرضاء، وله مواقف مشهورة في ذلك، ويبدو أنه كان يؤثر مصلحة المسلمين على سائر المصالح، فكان يتجنب التعامل بالقوة ما أمكنه ذلك طالما لم

---

(١) كلمة الفارسية تعني مقدم العساكر (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٣، هامش رقم (٢)). Time: December, No. 33, p 122.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١٧٣" العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة ٥٠-٥١، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٤٧.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٥١.

(٤) ابن الأثير: الباهر، ص١٤٣" العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة٧٢، ٧٤.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ص٧٣-٧٤، الذهبي: العبر، ج٣، ص٩٤.

يتعارض عدم استعمالها مع الإخلال بأمن الديار وسلامتها، وقد ساهمت عدة عوامل في الإخلال بالأمن والاستقرار في القاهرة ونوجز هنا الحديث عن أهمها وهي:

أولاً- الكـــوارث

لقد كان من أسباب تدهور الأوضاع الأمنية وسوئها فضلاً عما تقدم حدوث كوارث عديدة بعضها طبيعية، والأخرى منها بشرية : كان لها دور مؤثر في حياة الناس وعدم استقرارهم ، سنتناولها:

١- الطبيعية

أ- النيل

ب- الزلازل

ج- الأمراض والآفات الزراعية

٢- البشرية

١- الكوارث الطبيعية

أ- نهر النيل:

من المعلوم أن النيل قد تَحَكَم إلى حد كبير في حياة المصريين، وقد انعكست آثاره على الأوضاع الأمنية بشكل بارز سلباً وإيجاباً، ويعد هذا النهر المصدر الأساس في نشوء حضارة هذه الديار منذ اقدم العصور وحتى اليوم، ونظراً لأهميته هذه فإن بعض المؤرخين لم يغفلوا ذكره، ومن بينهم الدواداري في كتابه كنز الدرر وجامع الغرر، الذي بدأ بتدوين الأحداث وجعل النيل وزيادته ونقصانه بداية للدخول إلى الأحداث السنوية ثم يتناول بعد ذلك الأحداث الأخرى.

ونهر النيل واحداً من أعظم أنهار العالم[١]،ويمتاز أنه يفيض عند نضوب سائر الأنهار[٢] ويروي كل البلاد خلال خمسة عشر يوماً، ويترك بعد ذلك ترسبات تزيد من خصوبة التربة، وقد كانت معرفة زيادته ونقصانه أمراً يشغل بال الحكام والسلاطين باستمرار، لذا فقد تم بناء مقياس خاص رسمت عليه القياسات، لبيان الزيادة و النقصان فيه بدقة بالغة[٣]، ويقال أن أول من تولى أمر المقياس في الإسلام

(١) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٦٦.

(٢) البغدادي: م،ن، ص٦٧.

(٣) للمزيد من المعلومات ينظر: ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص ص١١٤-١١٥.

هو ابن الرداد (ت ٢٤٩هـ/٨٥٩م)[١] وعلى ضوء هذا المقياس تتحدد سياسة الدولة، ولاسيما الاقتصادية منها، ونظراً لأهمية معرفة هذه المعلومات فقد كانت القاهرة واقعة تحت رحمته الذي نشير إلى الزيادة والنقصان حيث كانت هذه الأخبار تتحكم بشكل مباشر وفعال في أمنها واستقرارها[٢].

ولذا قامت السلطات بتعيين متولٍ خاص له، وقد كان أبو القاسم هبة الله بن ابي الرداد (ت ٦٠٠هـ/١٢٠٣م) هو المتولي في الوقت الذي كان فيه خطيباً في جامع الجزيرة[٣].كانت وظيفته من الوظائف التي كان يتقاضى أصحابها رواتب عالية[٤]، وقد اتبعت الحكومات في ديار مصر نفس السياسة القديمة والتي كان معمولاً بها منذ فتح مصر سنة ٢٠هـ/٦٤٠م[٥] حيث لم تكن السلطات تجبى الضرائب من الأهالي في حالة الزيادة والنقصان المتفق عليها بالشكل الآتي: إذا بلغ منسوب النيل أربعة عشر ذراعاً كانت الضرائب لا تجبى من الأهالي، أما إذا بلغ المنسوب خمسة عشر فكانت الضرائب تجبى على قدرها، أما إذا كان المنسوب ستة عشر فإن الضرائب تجبى بكاملها لأن الماء تصل إلى جميع أنحاء البلاد، وإذا زاد عن ذلك وتسبب في كارثة ناجمة عن الفيضانات فإن الضرائب لا تجبى من الأهالي أيضاً، لذا فإن النيل كان –كما مرَّ بنا- من أكثر العوامل تحكماً في الأوضاع الأمنية[٦]، لذلك فإن إعلان القياس كان يحاط بسرية تامة ذلك ، ولا يمكن لأحد الاطلاع عليه باستثناء أكابر الدولة وأعيانها، إلى أن يبلغ ستة عشر ذراعاً بعدها يعلن ذلك في احتفال مهيب[٧]، ويتم في العادة إعلان الزيادة عصراً، وقد أولت السلطات الحكومية كل هذه الأهمية والسرية بالزيادة و النقصان لئلا تتسرب المعلومات فيستغل تلك الظروف لمنافع التجار والمحتكرين[٨].

(١)المسبحي: تاريخ مصر، ص٥٩، هامش رقم (٤). العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٤.

(٢) بروفيسور دوب: مجلة الدراسات الإسلامية لسنة ١٥" العددان: ٤٩-٥٠، ص ص٦٥-٦٧، نقلاً عن المجلة الملكية والجغرافية المصرية، ص٢٦، عدد ٢٥، سنة ١٩٢٥.

(٣) الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص١٥٦.

(٤) خسرو: سفرنامه، ص ص٨١-٨٢.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، (بيروت ١٩٨٣) ص٢١.

(٦)الحموي: الروض المعطار، ص١٨٣. تاريخ الرهاوي: ج٢، ص٣٢. المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٨٦.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٩. الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٨٧.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ص٣٢٤-٣٢٥.

كان عدم وفاء النيل سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م سبباً في حصول واحدة من أشد المجاعات فتكاً ودماراً بالأهالي، إذ أعقب ذلك ارتفاع في الأسعار، حتى بلغ أردب القمح ثمانين درهماً، كما بلغ ثمنه من الشعير والفول أربعين درهماً، ثم اشتدت الضائقة المالية أكثر إلى أن بلغ سعر الأردب من القمح –مثلاً- مائة درهم[١]. وصاحب هذه الكوارث انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة التي حصدت أرواح أعداد هائلة من الأهالي، وتركت وراءَها الكثير من الخراب بعدما اضطر الأهالي إلى الفرار من مدنهم إلى مختلف البلدان كالشام والمغرب والحجاز واليمن[٢]، والغريب في ذلك أن أعداداً كبيرة منهم ربما الذين لم يستطيعوا الوصول إلى البلدان البعيدة قد لجأوا إلى القاهرة آملين أن يجدوا فيها ما يسد الرمق، واضطر الناس إلى أكل الجيف والميتة و حتى الكلاب ، ومما زاد الطين بلة أن العام الجديد ٥٩٧هـ/١٢٠٠م لم يكن بأفضل من سابقه، حيث ظل منسوب المياه دون زيادة فزاد اليأس بين الناس ليزيد من شراستهم، في الحصول على الأكل وبلغ بهم الجوع حداً أقدموا معه على أكل صغارهم، وتم العثور على العديد منهم، وقد تعرضوا للشواء والطبخ، وعلى الرغم من شدة وطأة هذه الكارثة الرهيبة، فإن السلطات الحكومية والأجهزة التابعة لها كالأمن بمؤسساته المختلفة لم تأل جهداً في منع الناس من ارتكاب الجرائم وأكل بعضهم بعضاً، حيث اضطر صاحب الشرطة في القاهرة وبقية المدن إلى إصدار أوامر شديدة تنص على قتل القاتل[٣]، وكانت للنساء اليد الطولى في ارتكاب هذه الجرائم، وقد وردت الأخبار أن عدد الذين أنزلت بهم هذه العقوبة أكثر من ثلاثين إمرأة[٤] ثبت عليهن قيامهن بشوي صغارهن، ويبدو أن هذه الشدة والصرامة من قبل السلطات لم تجدِ نفعاً، لأن ارتكاب مثل هذه الجرائم كان قد صار أمراً مألوفاً [٥].

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص ص١٣٩، ١٤٧.

(٢) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٢٣. ابن ساعي: الجامع المختصر، ج٩، ص ص٤٧-٤٩. الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٤٩. الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص ص١٠٥-١٠٦. المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٧٠.

(٣) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص١٦٢. الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٤٩. الذهبي: العبر، ج٣، ص ص١١٤-١١٧. عنان: مصر الإسلامية، ص ص١٣٨-١٣٩.

(٤) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص١٦٣.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١١٥. المقريزي: كشف الغمة، ص٦٢. السلوك، ج١، ق١، ص١٥٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ص١٧٣-١٧٤.

إن الظروف السيئة قد تخلق مناخاً جيداً للعناصر المفسدة والمشاغبة لاستغلال الوضع لصالحهم، بيد أن السلطات لم تقف آزاءهم مكتوفة الأيدي بل قامت بوضع حد لهذه الجرائم التي حاربتها بلا هوادة وبما يتلاءم وأحكام الشريعة[١] وقد مات من مصر والقاهرة أعداد كبيرة من الأهالي، فقد بلغ عددهم في القاهرة فقط –على سبيل المثال- أكثر من مائة وأحد عشر ألف إنسان خلال اثنين وعشرين شهراً، أما في مصر فكان العدد أكثر بكثير، وقد قام الملك العادل بدفن أكثر من مائتي ألف جثة، وتضطرب المصادر التاريخية وهي تذكر أعداد الموتى ولعل المبالغة تكون العامل المشترك بينهما جميعاً، إذ كان من الصعوبة بمكان معرفة عدد الموتى بصورةٍ كاملة[٢]، ومن خلال عدد الموتى في القاهرة ومصر يظهر لنا بجلاء أن الأوضاع الأمنية والصحية والاقتصادية في القاهرة كانت أخف من مصر.

وعلى الرغم من ثقل الوطأة على كاهل الدولة، وقلة الإمكانيات فإنها لم تتوان عن القيام ببعض الواجبات التي تحمل سمة الإنسانية، فضلاً عن صفتها الشرعية كدفن الموتى وقد تعاون الأهالي في القيام بهذا الأمر المهم[٣] خوفاً من تلوث البيئة بشكل أوسع، وكان قد تغير طعم الماء، وانتشر الطاعون، وتوجه المزيد من الأهالي إلى المناطق المجاورة وكذلك إلى القاهرة، وقد حاولت السلطات الحكومية تدارك الأمر وألزمت بعض الميسورين بمعونة المحتاجين، كما قام الملك العادل بإعالة أكثر من ستة آلاف فقير يومياً على حسابه الخاص، كما فرض أحكام مماثلة على عدد من الأمراء وبشكل يتلائم و ظروفهم الاقتصادية[٤]، فضلاً عن اتخاذها خطوات مقابلة لزيادة النشاط الاقتصادي، وتشجيع الاستيراد لاسيما المواد الغذائية، وقد قامت السلطات بدعم القطاع الاقتصادي وحاولت الحصول على النقد بواسطة بيع بعض المواد المهمة لديها كمادة البلسان[٥].

تخللت هذه الأوضاع المأساوية استغلال الطبقات الغنية للفقيرة، بشتى الأشكال وظهرت نتائجها الاجتماعية الوخيمة بعد زوال هذه الأزمة، بحصر النتائج حيث تسببت الأزمة الاقتصادية في مشاكل

---

(١) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص١٦٣.

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٤٨" الذهبي: العبر، ج٣، ص١١٧" المقريزي: كشف الغمة، ص٦٢.

(٣) الذهبي: العبر، ج٣، ص١١٧" المقريزي: كشف الغمة، ص٦٢.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٤٨" المقريزي: كشف الغمة، ص ص٦٣-٦٤.

(٥) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٨٠" ابن الساعي: الجامع المختصر،ج٩ ص ص٤٧-٤٨.

اجتماعية خطيرة بقيت آثارها السلبية ولعل موجات العنف والاضطرابات الأمنية في القاهرة كانت واحدة من نتائجها[1].

ب- الــزلازل:

لقد أحدثت الزلازل عدداً من الكوارث المرعبة حصدت عدد كبير من الأرواح، فضلاً عن تهديمها للدور والبنايات مما تسبب في إرباك الوضع الأمني للدولة، وقد تعرضت البلاد لجملة من الهزات الأرضية تفاوتت في شدتها، وبالتالي شدة إضرارها بأمنها ففي السنوات ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م،[2] ٥٨١هـ/١١٨٥[3]م، ٥٨٧هـ/١١٩١م[4]، ٥٩٢هـ/١١٩٥م[5]، ٥٩٧هـ/١٢٠٠م[6]، ٦٠٨هـ/١٢١١م[7]، حدثت زلازل أختلفت في تأثيرها وقوتها وقد قدر الدواداري مدة استمرار أحد الزلازل زمن قراءة سورة الكهف[8].

وقد شلت هذه الزلازل النشاط البشري بكافة أشكاله، فضلاً عن الأضرار الأخرى، وتوقفت الكثير من الخدمات العامة، كبناء الجسور والمساجد لفقدان الإمكانيات المادية والبشرية فضلاً عن قلة المواشي والدواب التي تدخل كوسائل تساهم إلى حد بعيد في تسهيل عملية البناء[9].

ج- الأوبئة والآفات الزراعية:

لعل الطاعون كان واحداً من أخطر الأزمات التي تعرضت لها ديار مصر، إذ يعد سبباً مباشراً في انتشار القحط وحصد أرواح كثير من الناس، فقد تسبب في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م في قتل أكثر من

(١) المقريزي: كشف الغمة، ص٦٥.

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧ ص١٤٩" الذهبي: دول الإسلام،ج٢ ص١٠٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٩٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص١٠٨.

(٥) المقريزي: م. ن، ج١، ق١، ص١٣٨.

(٦) المقريزي: م. ن، ج١، ق١، ص١٣٩.

(٧) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٥٧.

(٨) الدواداري: م. ن، ج٧، ص١٥٠. وهذا يتنافى مع الحقائق العلمية إذ يقدر علماء الأرض مدة أقوى الزلازل ببضع ثوان معدودة لا تتجاوزها إلى الدقائق وقد يكون في كلام الدواداري مبالغة كبيرة.

(٩) المقريزي: كشف الغمة، ص ص٦٢-٦٣.

سبعة عشر ألف إنسان في مدة يسيرة[1]، ولم يكن الطاعون وحده، فقد تعرضت القاهرة لأنواع مختلفة من الأوبئة والأمراض الفتاكة، كالحمى المحرفة والموت الفجائي وغيرها[2].

وقد تسببت الحمى سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م في شحة كبيرة في الأدوية والعقاقير الطبية[3] مما زاد في أسعارها إلى حد وقف الأهالي معه عاجزين عن شرائها فما كان منهم إلا أن[4] أوصدوا أبوابهم على أنفسهم وبدأوا ينتظرون الموت بكل سكينة واستسلام[5]، وبلغ معدل الوفيات في مصر والقاهرة مائتي نفس يومياً، وعجز الناس عن تكفين كثير من الموتى[6].

ولم تقتصر الأوبئة والأمراض على الأهالي، بل تعدت إلى الحيوانات والمواشي والمزروعات ففي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م، تفشى مرض أشبه بالطاعون بين الأبقار والجمال والحمير، قضى على أعداد كبيرة منها[7]، وفي عام ٥٨١هـ/ ١١٨٤م حل بالمدينة وباء الطيور وقضى على الدجاج في مصر والقاهرة[8].

كما تعرضت المزروعات لكوارث طبيعية أيضاً ألحقت بها أضراراً فادحة، فقد تسببت الفئران ٥٦٧هـ/١١٧١م في تلف العديد من المحاصيل الزراعية كما حصل الأمر نفسه في عام ٥٧٧هـ/ ١١٩٠م وكان يصاحب كل ذلك زيادة الأسعار وتفشي الجوع[9] والأمراض فضلاً عن فقدان الأمن والاستقرار وكانت الأعوام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م قد حملت أيضاً العديد من الكوارث[10].

(١) المقريزي: كشف الغمة، ص ص٦٢-٦٣.

(٢) المقريزي: السلوك،ج١ ق١ ،ص٩١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٤٥.

(٤) المقريزي: م. ن، ج١، ق١، ص١٣١.

(٥) المقريزي: م. ن

(٦) المقريزي: م. ن، ج١، ق١، ص١٣٠.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٠٨.

(٨) المقريزي: م. ن، ج١، ق١، ص٩١.

(٩) مصطفى: المدن في الإسلام، ج٢، ص٤١.

(١٠) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٤٥، ٤٦، ٧١.

والحقيقة أن الأمراض والأوبئة كانت تلاحق أهالي مصر والقاهرة باستمرار وكأنها تبحث عنهم ففي سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م تعرضوا لوباء شديد أعقبه آخر في العام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م وكان أكثر ضراوة من سابقه استمر مدة ثلاثة أشهر، مات خلاله أكثر من أثني عشر ألف إنسان[١]. و من مخاطر تلك الكوارث حدوث هجرة جماعية للأهالي و أضطروا القبول حتى بالعبودية لقاء لقمة العيش[٢].

وقد نجمت عنْ هذه الكوارث بأشكالها المختلفة أضرار بليغة، حيث شلت حركة الحياة في جوانبها المختلفة، ولم يكن خطرها يقف عند حصد أرواح الناس والحيوانات، أو الإضرار بالمزروعات فحسب، بل كا١ن تهديداً خطيراً على أمن الدولة، لأنها كانت تستنزف كل طاقات الدولة وإمكانياتها لدرئها، وتقليل أضرارها فضلاً عن إبقائها للإمكانيات البشرية والمادية التي كانت عاجزة عن الوقوف بوجهها،و من البديهي إذاً نتيجة ذلك حدوث أعمال السلب والنهب، فضلاً عن انتشار العديد من الكوارث الاجتماعية،

إن الكلام يطول عن تفاصيل هذه الكوارث وتأثيراتها على البلد بجميع الأصعدة، لكننا وبما أن الأمن هو مادة الرسالة فسنكتفي بالإشارة إليه موضحين ما تعرض له من أخطار نتيجة ذلك إذ وجدت السلطات الحكومية صعوبة بالغة في السيطرة على الأوضاع، واعتمدة إمكانياتها للحد من الأضرار، عن طريق مكافحة الأوبئة والآفات أو عن طريق تقديم المساعدات إلى الأهالي من جهة أخرى، أو فرض تشريعات واختلافها من وقت لآخر حسب ما تمليه المصلحة العامة، وقد تسببت هذه الكوارث في مقتل عدد هائل من الجنود، ففي الوباء الذي انتشر عام ٥٨١هـ/١١٨٤م توفي الكثير من الجنود، مما أضعف إمكانيات الدولة فاستغلت هذه الأوضاع وشكلت تهديداً مباشراً على أمن البلاد[٣].

ولعل ما فعله الملك الكامل من إبرام اتفاق مع الفرنجة تنازل فيه عن القدس للصليبيين كان محاولة منه في تفادي احتلال صليبي كامل لديار مصر والقاهرة نظراً لضعف الإمكانيات البشرية بهما[٤]، وشبيهُ

(١) المقريزي: م،ن، ج١ ق١ ص٢٥٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين،ج١ ص٢٠.

(٣) ابليسيف: الشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ص٤٦٣.

(٤) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج٣ ص١١١، الباز العريني، الشرق الأدنى، ص١٢٣.

بما حصل في عهد أنور السادات ١٩٧٧-١٩٧٩، حين زار القدس ثم عقد أتفاقية (كمب ديفيد) مع إسرائيل وأستعاد شبه جزيرة سيناء[١].

٢- الكوارث البشرية:

فالكوارث البشرية هي التي تقوم بها بعض الحكومات لأغراض عسكرية تكتيكية بحتة، كتدمير بعض المدن، وتشريد أهلها خشية وقوعها بيد الأعداء واستخدامها من قبلهم كقاعدة عسكرية لإلحاق الضرر بالدولة، كالذي حدث لمدينة فسطاط سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م عندما هاجمها الملك مري، وخوفاً من وقوعها بيده قام شاور السعدي وزير الخليفة العاضد بإحراقها وتشريد أهاليها[١]،وتعد من الحوادث المروعة الذي لاتزال آثاره باقية الى اليوم في الأراضي الرملية بمصر القديمة[٢]، وقد تقوم الدولة بتدمير بعض النواحي التابعة لها بغية اجتثاث جذور بعض العناصر التي قد تتسبب في زعزعة الأمن والاستقرار في البلاد، كما فعل صلاح الدين عندما قام بإحراق محلة المنصورة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وسكانها من السودان، إذ وجد السلطان أن أفضل سبيل لاستئصال شأفتهم هو إحراق المحلة التي تأويهم، ليمنع عليهم خط العودة، ثم قام بمطاردة فلولهم، وألحق بهم أضراراً وخسائر بشرية كبيرة، وأقفلت عليهم الدروب والسكك في القاهرة، وطارد فلولهم المتبقية فما كان منهم إلا أن ولّوا وجوههم صوب الجيزة وطلبوا الأمان على أنفسهم وأمنهم السلطان مع ذلك دون أن يأمنهم على أموالهم وممتلكاتهم، ليتم بعد ذلك حرق المنصورة وتسويتها بالأرض[٣].

تسببت الأزمات داخل المدن، لاسيما إذا صاحبت ذلك أعمال عنف في إحداث أضرار جسيمة بمصالح الآخرين، لأن توسع حلقة أعمال العنف ينتج عنها تشعبات معقدة،يصعب ضمان الأمن، وهو ما يعرض الأبرياء من الأهالي إلى أخطار جسيمة قد تصل إلى حد القتل فضلاً عن السلب والنهب والحريق، وقد تؤدي هذه الأوضاع إلى قيام المشاغبين واللصوص باستغلالها لصالحهم وهذا ما يولد بلبلة وانعداماً للأمن داخل المدينة وقد عانى الأهالي في القاهرة الأمرين من هذه الأوضاع.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ٩٩. سعداوي: تاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص١٤.

(٢)سعداوي: تاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص١٤.

(٣) للمزيد من المعلومات ينظر تمرد مؤتمن الخلافة،ص....

مرت مدينة القاهرة بظروف غاية في الصعوبة أطمع فيها الأعداء وكرسوا جهودهم للوصول إليها، وهناك مثل مصري يقول: (من جاور السعيد سعد ومن جاور الحداد اكتوى بناره) وهذا المثل ينطبق تماماً على القاهرة وضواحيها، حيث كان تعرضها لأي خطر سبباً مباشراً لإلحاق الأذى بها مباشرة، فما أن يختل الأمن أو يتعرض الاستقرار للخطر في أي ضاحية من القاهرة حتى يلجأ أهلها جماعات وفرادى إلى القاهرة التي كانت في الغالب عاجزة عن استيعاب هذه الأعداد الغفيرة من الناس، الذين كانوا ينتشرون في كل مكان تقريباً.

ولعل ما حصل من إحراق لمدينة فسطاط من قبل الوزير شاور السعدي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م[١] خير دليل على ذلك، حيث اضطر الأهالي اللجوء إلى مدينة القاهرة، فاكتظت شوارعها ومساجدها وحاراتها وحتى حماماتها بالناس، مما أحدث عبئاً ثقيلاً على الوضع الأمني فيها، لم تكن السلطات الأمنية معه من ضمان الأمن وأصبح الوضع ثقيلاً على هذه السلطات[٢]، ويمكن اعتبار هذه السياسة قريبة من المصطلح السياسي الحديث (الأرض المحروقة)، ولكن الظروف التي عاشتها الدولة الأيوبية، وأحاطت بها اضطرتها إلى اللجوء إلى هذه الوسائل للحفاظ على أمنها لا على مستوى القاهرة فحسب بل على المستوى الإقليمي، وقد تعرض العديد من المدن والقلاع إلى التدمير والحرق وتغيير المعالم الجغرافية لضرورات أمنية أملتها الظروف الخارجية، وعلى الرغم من هول الكارثة على السلطان والأهالي على حد سواء، لكنه لم يكن باليد حيلة، فعندما أمر صلاح الدين بتدمير عسقلان حزن كثيراً وقال: "والله لئن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله تعالى بذلك عرفته مصلحة المسلمين طريقاً فكيف امتنع"[٣] ثم توالى خراب المدن كاللد والرملة[٤] وتعرض بيت المقدس إلى الهدم لاسيما أسوارها سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م[٥] في الواقع ان سياسة الأرض المحروقة كانت استراتيجية اضطرت بعض الحكومات العمل بها لضرورات أملت عليها في بعض مراحل

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٩٩. الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٦.

(٢) المقريزي: الخطط، ج١، ص ص٣٣٨-٣٣٩. ابن آياس: بدائع الزهور، ص٥٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٦. الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٠٧. تاريخ ابن الفرات: مج٤، ج٢، ص٣٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٤٦، مع اختلاف النص.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٢٤" الشيال: مصر السلام: ص٨٩.

(٥) أبو الفدا: مختصر تاريخ الدول، ج٣، ص١٢٢. الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٢٠٢. العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٧.

صراعها مع الأعداء وكانت القاهرة ملجأ للأهالي النازحين من المدن الأخرى تتعرض مدنهم ومحلاتهم إلى إجلائهم عنها سواء بسبب الأخطار التي تتعرض لها أو تهديها، مما تسبب في خلق حالة غير طبيعية لم يتمكن معها الجهاز الأمني من أداء واجبة بالشكل المرجو.

ثانياً- الاستخلاف والصراعات الأسرية والنتائج المنبثقة عنها:

يعد الاستخلاف من العوامل الفعالة في فقدان الأمن والاستقرار، إذ لم يكد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى شق كثير من الأمراء والقادة المحيطين به عصا الطاعة ليضمنوا مصالحهم الشخصية بشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة منها، حتى لو أدى ذلك إلى الانحراف عن الإسلام والاستنجاد بالصليبيين[١]، وقد أحدثت هذه الصراعات من الفوضى وتدهور الوضع الأمني ما زعزع كيان الدولة وعرض أمنها واستقرارها للخطر، لوجود تهديد مباشر لها من الخارج، وقد تشبث الطامعون بحجج وبراهين واهية في المطالبة بحقوقهم في السلطة. لقد بدأت هذه الأزمة الخطيرة مع بدايات دخول الأيوبيين إلى ديار مصر، لاسيما بعد وفاة شيركوه، ولم تنته إلا بزوال حكمهم، والملاحظ أن هذا العامل كان مختفياً إلى حد بعيد خلال فترة حكم صلاح الدين، إذ استطاع هذا القائد بإمكانياته القيادية الفريدة، وسعة صدره وحلمه أن يستوعب كل المعارضين ويضمهم تحت لوائه، ويخلص المسلمين من فتن وأحداث فظيعة كانت على وشك أن تحل بهم، ونستطيع القول بأن عهده كان عهد أمن واستقرار لم تشهد القاهرة له مثيلاً[٢]. ولعل أبسط الأدلة على ذلك ما حدث للناس في القاهرة من القلق والاضطراب والذعر، فضلاً عن الحزن العميق الذي سادها بمجرد إعلان وفاته[٣]. فقام الناس بإخلاء محالهم من البضائع ونقلها إلى الدور، فضلاً عن إغلاق الأسواق تعبيراً عن مدى الخوف والرعب الذي شعروا به، إذ كانوا يتوقعون حدوث موجة من أعمال الشغب، ونهب المحال التجارية والاعتداء على الأهالي، وهو أمر يحدث عادة إثر تغيير نظام الحكم بشكل مفاجئ. وهكذا لعبت الصراعات الأسرية دوراً فعالاً في تدهور الأوضاع الأمنية في البلاد، وكان طموح الطامعين في تبوء السلطة قد قادهم لسلوك مختلف الطرق،

---

(١) الكيلاني، محمد سيد: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، القاهرة (د. ت)، ص٤٣.

(٢) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٠٠. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ١٧.

(٣) توفي صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م في دمشق، وقد تأثرت بوفاته كافة الأقاليم الإسلامية.

واستخدام شتى الوسائل للفوز بها غير عابئين بمصلحة الدولة وشعوبها، وقد أحدث ذلك من الكوارث والفتن وإزهاق الأرواح وتبديد الأموال ما يفوق الوصف، فضلاً عن استغلال الصليبيين لهذه الصراعات لصالحهم وقد كسبوا من هذه الفتن أضعاف ما كسبوه في معاركهم العسكرية ضد المسلمين.

حاول صلاح الدين أن يجنّب أفراد أسرته تلك الصراعات، وهول كوارثها التي تؤدي إلى الإضرار بأمن البلاد وسَلامتها، لذا فقد قام في حياته بتقسيم مملكته على أبنائه، ويبدو أنه كان يخاف من أخيه العادل، لذا قسم البلاد بين أبناؤه واخوته بشكل لا يتداخل مع مصالحه[1]، غير أن آماله هذه لم تتحقق، إذ خالف أبنائه وإخوته ما خطط لهم، وحاول كل منهم أن يتوسع على حساب الآخر، إن تناول كل هذه الأحداث أمر يطول بنا ويخرجنا عن دائرة البحث، وسنركز على ما حدث في القاهرة من جراء الصراع على السلطة، وما نتج عنه من الكوارث والفتن التي اكتوى بنارها أهالي القاهرة، إذ أن الصراع بدأ بين الجماعات المسلحة العسكرية من الأسدية والصلاحية والكورد، وكان الصلاحية من مؤيدي الملك العزيز عثمان وأنصاره، وقد اعتمد عليهم بشكل أساسي لأنهم من أصحاب والده[2]، وتمثل الصراع بين هذه الجماعات العسكرية في صراع الشام مع مصر، لأن الأفضل كان يعتمد على الأسدية والكورد، وتحالف أبناء السلطان فيما بينهم، ومنهم الملك الظاهر صاحب حلب والأفضل صاحب دمشق، ومنصور صاحب حماة ضد عمهم العادل الذي خاف من هذا التحالف، ويبدو أن العادل قد توقع توتر العلاقات بينه وبين العزيز سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م عندما كلفه صلاح الدين مرافقة ابنه العزيز إلى ديار مصر، وألمح العادل إلى العزيز محاولة الحساد في تعكير صفو الجو بينهما، وخلق البلبلة والمشاكل، لكن العزيز طمأنه بأن ذلك لن يحدث ولن يجدِ نفعاً[3]، وأظهر العادل نفسه في البداية بمظهر الناصح الأمين ظاهراً لكنه كان يعمل لحسابه الخاص باطناً، فبدأ يعمل على إذكاء نار العداوة بين كل من الأسدية والصلاحية، واتصل سراً بأمراء العزيز وأفسدهم وتمكن من كسب الأسدية والكورد المهرانية إغلى جانبه مقدمهم حسام الدين أبو الهيجاء السمين، اتصل المنشقون بأصحابهم في القاهرة ضد العزيز

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٢٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٣٧، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ص ١٢، ٤٦، تاريخ ابن الفرات: (بصرة، ١٩٧٠) مج٤، ج٢، ص١٤٤.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧٣.

لانتزاع البلاد منه[1]، وقد استعان بهم العزيز في القاهرة سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م لانتزاع الشام من أخيه الأفضل[2]، كما تمكن العزيز بمعاونة عمه العادل من فتح دمشق وإزالة الأفضل وإبعاده إلى صرخد[3]، وكان سبب الخلاف بين العزيز والأفضل يعود إلى عجز الأخير عن استرجاع جبيل التي وقعت بيد الفرنج إثر تأثير الفرنج على عاملها الكوردي بعد أرشائهم بالمال. خاف العزيز من المزيد من الانتكاسات، ورأى أن يتوجه من القاهرة بعد أن ترك فيها مجموعة من الأمراء مع أخيه المؤيد نجم الدين مسعود مضافاً لهم، الذين التحقوا به من جيش أخيه الأفضل لحفظ الأمن الداخلي في القاهرة مدة غيابه[4].

إن المحيطين بكل من الأفضل والعزيز لعبوا دوراً كبيراً في تأجيج حدة الصراع بينهما، فالأول كان يعتمد على وزيره ضياء الدين الجزري[5]، الذي كان محباً للفتن، وعلى الرغم من محاولة الأفضل استلطاف أخيه العزيز إلا ان وزيره الجزري منعه من ذلك بقوله: "أنت ولي عهد السلطان رحمه الله والأكبر من أولاده وأحق بالملك من إخوتك"، أما العزيز فقد وقع تحت تأثير أصحابه الذين قالوا له: "إن لم تنصر الدولة الصلاحية خذلت، وإن لم تصنها ابتذلت، وأخوك الملك الأفضل قد غلب على اختياره وحكم عليه وزيره ضياء الجزري، وقد أفسدوا أحوال الدولة فهو يتصرف فيها برأيه الفاسد ويحمل أخاك على مقاطعتك ومباينتك، فإن أعفيت أغفلت، وإن أمهلت أهملت، وإن لنت غلظوا، وإن نمت تيقظوا، ولا تلتزم باليمين، فإن من شروطها صفو الوداد، وصحة النية، ولم يوجد ذلك فحنثهم في أيمانهم، قد عنق ولا برئت أنت من العهدة فاقصد البلاد فإنها في يدك قبل أن يحصل للعدو به من الفساد ما لا يمكن تلافيه"[6].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٤٧، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص ص ١١٢-١١٣.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٣٩١" الغساني: العسجد المسبوك، (بغداد، ١٩٧٥) ج٢، ص٢٣٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٣٤، الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٠٣، المقريزي: السلوك، (القاهرة، ١٩٥٧) ج١، ق١، ص١١٦.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١١٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٢" العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة ١٢٣-١٢٤.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ص ٣٨-٣٩" أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٣٨.

وجد العادل فرصة مناسبة لفض عساكر العزيز، إذ لم يبق معه إلا القليل منهم[١] وكان على رأسهم الأمير هكندري أكبر قواد الحميدية، وأخبر العزيز نية جماعته، ولكنه لم يفقد رباطة جأشه، وتصرف بمنتهى الحكمة والصبر[٢]، فثبت في مكانه قائلاً: "لا ترهبوهم واتركوهم يذهبوا أين شاؤوا، لعلنا نصفو من كدرهم.."([٣])، ثم قرر السفر إلى بلاد مصر، واتخذ التدابير الأمنية للسفر، وكان الشيء الذي يراوده ويخاف منه هو اتفاق الأسدية المقيمين في القاهرة مع المتمردين أو المعارضين، ولعل الفضل الأول في استتباب الأمن فيها وبقائهم على الولاء يعود إلى الأمير قراقوش الأسدي الذي ظل وفياً له، وقام بضبط الأمن[٤].

إن المنشقين لم يدخروا وسعاً في منع العزيز من الوصول إلى القاهرة، وعلى رأسهم أبو الهيجاء السمين، الذي كان يلح على العادل بضرورة منعه من دخول القاهرة، لأنه لقلة أصحابه يسهل منعه، وفي الوقت نفسه اتفق المناوئون له على تقسيم البلاد فيما بينهم وبالشكل الآتي: للعادل الثلث، وللأفضل الثلثان، شق العزيز طريقه إلى القاهرة يتعقبه كل من العادل والأفضل فتمكن من الوصول إليها بسلامة، ونزل العادل والأفضل على بلبيس التي حاصروها، وسرّ العادل لاستقرار العزيز في القاهرة، لأنه لم يكن ينوي إزاحته، بل كان يخاف من سيطرة الأسدية والكورد عليه، ومن ثم سيطرتهم على الحكم في ديار مصر[٥].

وقد جرى اتفاق بين العزيز وأخيه الأفضل وعمه العادل، دفع العزيز بموجبه لهما مبلغاً من المال، وعاد الأفضل إلى الشام، ودخل العادل إلى القاهرة، وأخلى له العزيز القصر الكبير[٦]، وحال وصول العزيز إلى القاهرة أعلن العفو العام تطييباً لقلوب الناس، وأحسن إليهم، وبذلك استقر له الملك فيها[٧].

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٢٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ص ٤٧-٤٨، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص١١٤.

(٣) ابن واصل: م. ن، ج٣، ص٤٨.

(٤) تاريخ ابن الفرات: مج٤، ج٢، ص ص١١٥-١١٦.

(٥) تاريخ ابن الفرات: مج٤، ج٢، ص١١٨.

(٦) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٢٥.

(٧) تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص١١٦.

وقد قامت بعض العناصر المشاغبة باستغلال الأحوال الأمنية القلقة، إذ قام عرب الحلة بقتل عدد من أمراء العزيز[١]، ويبدو أن انشغاله قد مهد السبيل لهؤلاء المشاغبين للقيام بأعمال القتل، وكان لنصارى مصر دور هام في أعمال القتل، إذ كان العزيز يعتمد عليهم لتصفية معارضيه بغية التمويه، وكانت الأوضاع الأمنية متدهورة لدرجة لم يستطع والي القاهرة من إحكام قبضته عليها[٢].

لم يستطع أعداء العزيز النيل منه، وقد استفاد من الطبيعة في حروبه، حيث شكلت زيادة النيل فائدة كبيرة له إذ منعت وصول المؤون إلى أعدائه، فارتفعت الأسعار بسبب ذلك، هذا فضلاً عن ثبات الأمراء المؤيدين له أمثال جهاركس، وهكندري زيادة على التأييد الشعبي الكبير له من أهالي القاهرة بسبب إحسانه إليهم وعطفه عليهم[٣] حيث بادر الأهالي بإرسال المؤن إليه في البحر غير أنها لم تصل إذ أغرقت بعضها من قبل المراكب المصرية واستولي على بعضها الآخر، كما وقع جماعة من أنصاره في الأسر[٤].

تأثر العزيز كثيراً بما فعله المصريون المنشقون بإغراق مراكبه، وأسر جماعته، فقرر سحب نفسه من الصراع بغية وضع حد لإراقة دماء المسلمين، وحفظ أمن البلاد واستقرارها، إذ سيّر إلى عمه العادل سراً رسالة تضمنت ما يلي: "قد عرفت خطأي أولاً وآخراً، وما بقي لي والله وجه أنظر إليكم وأولادي وحريمي أمانة عندكم يا عمي، وإن فقد عزمت على ركوب البحر إلى المغرب وأخلي لكم البلاد"[٥].

فكان أن تأثر الملك العادل من موقفه ولاطفه وطيب قلبه، وطلب أن يرسل القاضي الفاضل للتفاوض معه، ووضع المصلحة العامة فوق كل الاعتبارات، وتم التوصل إلى اتفاق بين الأطراف المتنازعة، أعقبه إصدار عفو عن المنشقين، وبقي العزيز مع العادل، إذ ضبط له الملك ووصله ببعض الشخصيات البارزة كعز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب الذي صار صاحب سره وحاجبه، وكذلك صارم الدين قايماز النجمي الذي كان مملوك والده[٦]. فتمت المصالحة[١]، واستتب الأمن والاستقرار في القاهرة[٢].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ١٣١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٣٦.

(٣) العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص٦٣٠" الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢١٥.

(٤) تاريخ ابن الفرات: مج٤، ج٢، ص ص ١٢٠-١٢١.

(٥) ابن الفرات، مج٤، ج٣، ص١٢٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٤٤، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٥٥، العمري: مسالك الأبصار: ج٢٧، ورقة ١٢٣، الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٢٤٨.

يبدو أن الملك الأفضل قد أساء السيرة في دمشق، فوجد العزيز والعادل ضرورة أخذها منه، ومن ثم تسليمها للعادل شريطة أن تكون السكة والخطبة للعزيز في كافة أنحاء بلاده، وكان ذلك في ٥٩٢هـ-١١٩٥م، وعندما علم الأفضل بذلك أرسل إليه أحد أمرائه وهو فلك الدين أخو الملك العادل لأمه، إلا أن مساعيه لم تنجح فحاصرا دمشق، وتمكنا من استمالة بعض الأمراء داخل القلعة، ليدخلاها بعد ذلك كل من باب، وانتقل الأفضل منها بأهله وأصحابه بعد أن وضع وزيره ضياء الدين الجزري داخل صندوق خوفاً من قتله[٣]، فلحق بأخيه الظاهر بن صلاح الدين وأقام عنده بحلب، وأعطاه العزيز والعادل صرخد فسار إليها بأهله واستوطنها، وأصبح الأمر كما كان متفقاً عليه بينهما[٤]. وكتب الأفضل بصرخد إلى الخليفة الناصر يشكو عمه أبا بكر وأخاه العزيز وأول الكتاب:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف من الأواخر ما لاقى من

تحسنت الأوضاع الأمنية بفضل متابعة الجهاز الأمني للمشاغبين والمخالفين[٦]، ولكن الوضع لم يستمر على حاله إذ أصابه التدهور بعد وفاة العزيز سنة في ٢٧ محرم ٥٩٥هـ/١١٩٨م[٧]، وازداد الصراع بين أبناء الأسرة نفسها، وظهر انشقاق الجماعات المسلحة العسكرية، إذ مالت الأسدية إلى الملك الأفضل، والناصرية إلى الملك العادل وانتشرت القلاقل والفوضى في القاهرة[٨]، وعهد العزيز بالسلطنة إلى ابنه المنصور محمد الذي كان في التاسعة من العمر، والذي لم يكن مؤهلاً لتولي الحكم نظراً لصغر سنه لذا أجمع أمراء العزيز على تعيين قراقوش الأسدي أتابكاً له، وقد عارض ذلك عماه الملك

(١) الذهبي: العبر: ج٣، ص١٠٤، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص١٢٣.

(٢) الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص١٢٩.

(٣) الدواداري: م. ن: ج٧، ص١٣٠.

(٤) الدواداري: م. ن: ج٧، ص١٣٠.

(٥) الدواداري: م. ن، ج٧، ص١٣٤، العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة١٢٤-١٢٥ مع اختلاف النص.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٤٣.

(٧) العمري: مسالك الأبصار: ج٢٧، ص١٢٩.

(٨) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٣٩١، ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص٣٩١. الغساني: العسجد المسبوك: ج٢، ص٢٤٨.

المؤيد نجم الدين مسعود، والملك المعز لرغبتهما في أتابكيته بنفسيهما، وامتنعوا عن قبول قراقوش بحجة عدم صلاحيته، وتحكموا إلى القاضي الفاضل لفض النزاع، فامتنع عن إعطاء الرأي وبعد مداولات استغرقت ثلاثة أيام تقرر مكاتبة الأفضل في صرخد ليحل محل قراقوش[١]، وأنيط الأمر إلى الظاهر بن السلطان صلاح الدين لحين وصول الأفضل، فجاء الأخير متنكراً خوفاً من عمه العادل[٢]، لأنه كان على علم بمدى رغبة العادل في تملك القاهرة والتحكم بديار مصر[٣]، وحاول الصلاحية جاهداً منع الأفضل من الوصول إلى القاهرة وأرسلوا نجاباً[٤] إلى دمشق يحثون جماعتهم على منع الأفضل من دخول ديار مصر، لخوفهم من غلبة الأسدية عليهم، واستطاع الأفضل من الحصول على الكتاب المرسل وعاد إلى مصر، واستقبل من قبل الصلاحية والأسدية، وانكشفت أبعاد المؤامرة، وترك المتآمرون القاهرة وتوجهوا إلى القدس[٥]، وحاولت الأسدية إقناع الأفضل بقصد دمشق لضرب الصلاحية لأن العادل كان مشغولاً بمآربه[٦].

تحكم الأفضل بالأمور إذ لم يكن للمنصور من حيث الحكم سوى الاسم، فقبض على أمراء الصلاحية وصادر أموال الهاربين منهم الذين التحقوا بجهاركس في القدس، وفي الوقت ذاته جاءته الأخبار من الأجهزة الأمنية بأن أخاه المؤيد ينوي الوثوب عليه فألقى القبض عليه[٧].

لم تكن الطريق معبدةً أمام الملك العادل، الذي كان ذا طموح واسع لاسيما حلمه في نيابة القاهرة بسبب وجود الأفضل الذي كان عقبة في طريقه، وكان يعمل جاهداً لتحقيق ذلك الحلم، إذ تهيأ وخرج من دمشق ووصل إلى قطيا، ولما علم الأفضل بذلك حاول إحباط هذه المحاولة والتصدي لها لكنه لم

(١) الذهبي: العبر: ج٣، ص١١١. العمري: مسالك الأبصار: ج٢٧، ص١٢٩.

(٢) المقريزي: السلوك: ج١، ق١، ص١٤٦.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦، ص١٦٨.

(٤) من الإبل السريعة في الحركة، (الرازي: مختار الصحاح، ص٦٤٦).

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦، ص١٤٦.

(٦) ابن العديم: م. ن، ص٤٣٧، الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص١٣٨، المقريزي: السلوك: ج١، ق١، ص١٤٧.

(٧) الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص١٣٨.

يتمكن من جمع عساكره لتفرقهم في البلاد، ولم يكن معه إلا عدد قليل من العساكر[1]، يبدو أن خير طريقة لعلاج هذا الموقف عنده كانت إحراق مدينة بلبيس، وقد أثار بذلك حفيظة الأهالي الذين أبدوا استياءً وامتعاضاً شديدين تجاه فعلته هذه، فضلاً عن ذلك قطع الأحباس عن مكة والمدينة والفقهاء وأرباب العمائم، لنفقات الحرب، ووصل العادل من القاهرة والتقى الجمعان فانهزم الأفضل[2]، وحاول الأخير استدراجه وإقناعه بالتعويض عن القاهرة بدمشق، فامتنع قائلاً: "لا تحرجني أن أحرق ناموس القاهرة وآخذها بالسيف، إذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك"[3]، واضطر الأفضل إلى النزول عند رغبة عمه والقبول بالأمر الواقع، وترك القاهرة بعد أن أمضى فيها ثلاثة عشر شهراً، وكان خلالها خاضعاً لأوامر الأمراء[4].

تولى العادل أمر مصر، وقطع الخطبة والسكة للمنصور[5]، بعد أن جمع عدداً من الأمراء وخاطبهم بقوله: "إنه قبيح لي أن أكون أتابك صبي، مع الشيخوخة والقدم، والملك ليس هو بالإرث، وإنما هو لمن غلب، وإنه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين، غير أنني تركت ذلك إكراماً لأخي، ورعاية لحقه، ولما كان من الاختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدي ويد أولاد أخي، فسست الأمر إلى أمره، فما رأيت الحال يتصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه، فلما ملكت هذه البلاد وطنت نفسي على أتابكية هذا الصبي حتى يبلغ أشده، فرأيت العصبيات باقية والفتن غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ علي ما طرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة شأن آخر، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك والرأي أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب، وأقيم له من يؤدبه ويعمله، فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره وقمت بمصالحه"[6].

---

(١) تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص١٧٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٤٠.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٤١، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص١٧٣، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٥١.

(٤) الدواداري: م. ن. ج. ص، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص١٧٧.

(٥) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢١٩، ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٤٠.

(٦) المقريزي: السلوك: ج١، ق١، ص١٥١-١٥٢.

إن هذه المقولة بادرة خطيرة من أهم رجالات الدولة الأيوبية، لأنها تحمل بين طياتها عدم الاعتراف بالنظام الوراثي للحكم، ولو كان ذلك من شخص آخر لكان الأمر مقبولاً، لكن العادل لم يقل ذلك إلا بدافع المصلحة الشخصية البحتة، وسياسة ديماغوغية واضحة بدأها العادل وكان لها أكبر الأثر على أمن الأسرة الأيوبية وتفككها، ولو أن العادل أبدى التعاون المطلوب مع المنصور وقام برعايته وهو ما كان يمليه عليه الواجب والأمانة لكان الأمر قد اختلف تماماً، ولم يحدث ما حدث من تمزيق لهذه الأسرة التي أصبح تاريخها عبارة عن سلسلة من الصراعات الدموية أثرت على هيبتها خاصة وإن المسلمين كانوا ينظرون إليها بهالة من القدسية، وسانده الأسدية في ذلك، فتم خلع المنصور يوم الخميس ٥٩٦هـ/١١٩٩م وخطب للعادل يوم الجمعة حادي عشر شوال، فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة، وثمانية أشهر وعشرين يوماً[1].

سلم الملك العادل حكم البلاد إلى ابنه الكامل في أواخر سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م ثقة به، إذ كان عالماً ورعاً تقياً متفقهاً في الدين عادلاً[2]، وكان ذلك خطوة مهمة في سبيل إقامة الأمن في القاهرة، وعموم بلاد مصر، ولم يعارضه أحد، لأن الأهالي كانوا يعانون من مشكلة القحط ولم يكونوا يبالون بتغيير الحكام والسلاطين[3].

يبدو أن الأسرة الأيوبية وجدت نفسها مسؤولة عن فقدان الأمن والاستقرار في كل من الشام والديار المصرية، وإنها لم تجد في الصراعات وسفك الدماء حلاً لمشاكلها لذا اتفقت الآراء على إزالة الخلافات لحفظ أمن المنطقتين، على أن يكون للعادل مصر ودمشق وبيت المقدس وجميع ما كانت بيده وبيد أولاده من بلاد المشرق، وحددت الأقاليم للآخرين[4]، ثم ما لبث أن انهارت الاتفاقية إذ تنافر كل

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١١٠" المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ص١٥١-١٥٢. لقد أفتى الفقهاء له بعدم صحة خلافة المنصور، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٣٨" السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٥٩.

(٢) الحموي: تاريخ المنصوري، ص ص٢٢٢-٢٢٣، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٠٥، الذهبي: العبر، ج٣، ص٢٢٣. تاريخ ابن الفرات مج٤، ج٢، ص١٨٢.

(٣) الذهبي: العبر، ٣/١١٤.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ص٤٣١، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٢٨.

من العادل والأفضل في التقسيم لتعود الخلافات من جديد[1]، وبعد أن قام العادل بتثبيت أقدامه في حكم الممالك، حيث يزور بنفسه أبناءه في ممالكهم، للتقصي والاطلاع على الحقائق عن كثب، ولم يطمئن قلبه من بعض العناصر، إذ كان قد اعتقل كلاً من الملك المعز والمؤيد ابني صلاح الدين في الكرك[2]، لئلا يتسنى لهم القيام بأية حركة بحكم حصانة الكرك وبعدها وقوة الحراسة فيها، وأطلق العادل سراحهما بعد أخذه دمشق سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م[3]، يبدو أن العادل كان غير مطمئن من وجود المنصور في القاهرة، خوفاً من جماعة أبيه أن يثيروا له المتاعب[4]، لذلك قرر في سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م أن يخرجه من البلاد مع أفراد حاشيته ويسكنهم في الرها[5]، ثم قام بخطوات أخرى، لتهدئة الأمن وذلك بتقليل حدة الصراع والعصبية بين الأسدية والصلاحية[6]، وقد حدثت كل هذه الأحداث والبلاد تمر بأسوأ حالاتها، حيث وقعت تحت وطأة الغلاء الذي أعقبه انتشار الوباء حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضاً، وعلى الرغم من ذلك فإن العادل لم يتوان عن تغيير الولاة واحداً بعد الآخر بغية تهدئة الأمن في القاهرة وإحلال الاستقرار فيها[7].

كان الفرنج مطلعين عن كثب على هذه الأوضاع التي كانت سائدة، فاستغلوا كل فرصة لصالحهم، ففي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م دخل أسطول الفرنج إلى فوة[8] يوم عيد الفطر، من فم الرشيد، وقاموا بنهبها بعد قتل أهاليها وسكانها[9]، وكذلك وقع في معسكر المسلمين سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م أحداث ساعدت الصليبيين على الوصول إلى دمياط، عندما انتهز أحد كبار الأمراء وهو عماد الدين أحمد بن

---

(١) ابن العديم: م. س، ص٤٤٥، م. ن، مج٤، ج٢، ص٢٢٧.

(٢) الحموي: تاريخ المنصوري، ص٢٣١.

(٣) تاريخ ابن الجزري، ص٢٠٩.

(٤) تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٤٩.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٠، الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٥٣، تاريخ ابن الجزري، ص٨١، الذهبي: العبر، ج٣، ص١١٤، تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٤٩، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٥٣.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤١.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٧٦.

(٨) فوة: بلدة صغيرة على شاطئ النيل تابعة لمصر قرب رشيد، (ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٤٤٩).

(٩) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٢٢٦.

المشطوب موت الملك العادل، وانضم إليه عدد من الأمراء وأرادوا خلع الكامل وتولية أخيه الفائز، معللين تصرفهم هذا بقولهم: "هذا صبي خطيف، ولا يأتينا منه خير"، ووصل عن طريق الجهاز الأمني نبأ المؤامرة إلى مسامع الكامل فاضطر إلى ترك عساكره وجنده وصاروا بلا سلطان، وتخوفوا من تفريق كلمتهم وتركوا معداتهم وأموالهم والتحقوا بالسلطان وكانت فرصة ثمينة للفرنج الذين قاموا بالاستيلاء على ما تركوه والتي كانت عبارة عن كمية هائلة من الأسلحة والمعدات، وأحكموا حصارهم على دمياط على الرغم من المقاومة الباسلة لأهاليها، ويطول شرح معاناة الأهالي الذين كانوا يعانون من قلة الأقوات والمؤن واستغرق الحصار ما يقارب سبعة عشر شهراً بعد أن خارت قواهم، تمكن الفرنج من دخولها في شعبان سنة ٦١٦هـ/١٢٢٩م وجعلوا جامعها كنيسة وفعلوا بالقرى المحيطة بدمياط ما فعلوه بها، وصارت قاعدة لهم نحو الجنوب[1].

وعندما أحس ملوك بني أيوب بالخطر قرروا نجدة الملك الكامل وتأجيل صراعاتهم إذ نودي بالنفير العام في كل من مصر والقاهرة، فاضطر الأيوبيون إلى اتخاذ التدابير اللازمة ووصلت النجدات من معظم الأمراء والملوك، وأصدر الخليفة في بغداد إيعازاً باستنجاد الكامل في دمياط سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[2]، وجاءه أخوه المعظم عيسى بجيش جرار، ورفع معنوياته وحلف له أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفي ابن المشطوب من الديار المصرية، وقد قام فعلاً بتخليصه من المناوئين له وكان منهم أخوه الفائز وابن المشطوب فقام بنفيهما إلى الشام، فهدأت الفتنة وتخلصت دمياط من الخطر وتحررت من أيدي الفرنج سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[3]. ولام الملك الكامل بعض الملوك والأمراء لتأخر وصولهم[4].

إن الصراعات بين أبناء الأسرة الأيوبية دخلت منعطفاً خطيراً، شكلت خطراً جسيماً على أمن القاهرة بصورة خاصة وممالكهم المحيطة بها بصورة عامة، وذلك بسبب استعانتهم بالأجنبي بعضهم على بعض، وخاف الكامل من ميل المعظم إلى الخوارزمية ولأجل موازنة القوى في المنطقة قام بإرسال طلب

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٥٩، دحلان: الفتوحات، ص ص ١٠-١١، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ص١٠٧، وكان الكورد يشكلون الغالبية من الجيش المصري (الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص١٩٩).

(٢) المقريزي: السلوك: ج١، ق٢، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، (دمشق، ١٩٩٥م) ق٢، ص٣٤٣. الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، (القاهرة، ١٩٦٧) ص١٠٧.

(٤) تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج٢، ص٢٥٠-٢٥١. جب: صلاح الدين، ص٢١٢.

تحالف إلى ملك الفرنج فردريك الثاني[1]، وقد وعد كل واحد منهما حليفه بوعود سخية على حساب أراضي المسلمين وأموالهم[2].

كما جرت مكاتبات سرية وعلنية بين المعظم والكامل وذلك عن طريق الرسل[3] علماً أن الرسل كانوا يراقبون الأوضاع وهم من رجال الأمن أصلاً[4]، وكانت لغة الخطابات مليئة بالتهديد والوعيد، إذ كان المعظم قد أوهم الكامل بأن عساكره معه، فأوقعه ذلك في شك من أصحابه، وألقى القبض على مماليك أبيه، وصادر أموالهم لمكاتبتهم المعظم، وفي خضم هذا الصراع الحاد، حصل ما كان يتمناه الكامل إذ توفي المعظم في ٦٢٤هـ-١٢٢٧م وملّك ابنه الناصر داود وهو من مؤيدي الملك الكامل وشارك الكامل في عزاء المعظم بوفد منه، ولم تدم تلك العلاقات الودية طويلاً، إذ تدهورت الأوضاع مرة أخرى بعد هدوء نسبي على أثر رفض الناصر داود إعطاء الكامل قلعة الشوبك[5]، وكذلك رفض الكامل إعطاء دمشق له حسب الاتفاق، حاول الأشرف صلاح الدين إصلاح ذات البين، وتم تقسيم البلاد بينهم من جديد[6].

كان الكامل كثير الحيطة والحذر لم يفتأ يراقب الأمور والناس عن كثب[7]، ولم يستثنِ من ذلك حتى أقرب الناس إليه حيث كان يرصد تحركاتهم، وكانت الأخبار تصله عن طريق عيونه وجواسيسه بتطلع ابنه الملك الصالح إلى السلطنة بعد أن اشترى عدداً من المماليك وجعلهم حراسه وأغدق عليهم

---

(١) هو ابن فردريك الأول (١١٩٤--١٢٥٠) أصبح ملكاً على صقلية سنة ١١٩٧، ثم ملكاً للجرمان ١٢١٦م ثم امبراطوراً للغرب ١٢٢٠م ودخل في صراع مستمر ضد البابا والكنيسة البابوية واشترك في الحملة الصليبية السادسة. (العسلي: فن الحرب الإسلامي، (بيروت، ١٩٨٨) ج٤، ص٥٣٥، هامش (١)).

(٢) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: ق٢، ص٣٣٦" المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ص٢٢١-٢٢٢ هامش (٣).

(٣) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ق٢، ص٣٤٦.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٣٦٥. أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢٠٩.

(٥) المقريزي: السلوك: ج١، ق١، ص٢٢٤.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٧١" المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٢٩٩.

(٧) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٣٨" الغساني: العسجد المسبوك، ج٢، ص٣٦٢، دحلان: الفتوحات الإسلامية، ص٧.

الأموال وأنفق كل ما كان موجوداً في الخزينة، فضلاً عن قيامه بالتطاول على أموال الناس، دخل القاهرة في رجب ٦٢٧/١٢٣٠م وعزل ابنه من ولاية العهد، وعاقب الأمراء بالحبس لأنهم وقفوا معه، وأعاد إلى التجار ما أخذه منهم ابنه الملك الصالح[1]، وحل محله ابنه الملك العادل أبا بكر وأسكنه قلعة الجبل، وأخذ معه الملك الصالح[2].

كانت وفاة الكامل إيذاناً بتجدد الخلافات فاختلف أصحابه فيمن يخلفه، وكان ولي عهده ابنه العادل الثاني الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة، وقد فشل الملك الجواد في الحصول على الملك لمعارضته فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وعبثاً حاول إقناعه لأنه أصر على تولية ابن أستاذه[3] الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل الذي تولى السلطنة في ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، وخطب له في مصر والقاهرة، ونودي في المدينتين بإلغاء المكوس، وزيادة العطاء للناس كافة، على الرغم من هذه الإجراءات إلا أن الأمور لم تستتب[4] لقيام الملك العادل الثاني على تبديد الأموال عن طريق البذخ في إسرافها، فضلاً عن ذلك إبعاده الأكابر من حوله وتقريبه للأراذل، وانشغاله باللهو واللعب وشرب الخمر والفساد[5].

ويعد الصراع بين القوميات والعشائر في زمنه مؤشراً خطيراً على تدهور الأوضاع الأمنية إذ تقاتل الترك والكورد من حراسه، وتطاول الأول على الثاني، وكان ذلك إيذاناً بإمكان التخلص من الكورد وأسرهم[6]. كما وقعت معارك كثيرة بين القبائل العربية من جرم وجذام وثعلبة أودت بحياة الكثيرين[1].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ص٢٣٨--٢٤٠. الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص١٢١، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص١٢٨.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٤٠.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٩٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٦٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص١٧٢" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٢٦٨-٢٦٩. الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص١٣٣، مجلة العلوم، ج١١، ص١٨٥٥.

(٦) يشير هاملتون جب بأن انتصار الترك على الكورد كان إيذاناً بإمكانية التخلص منهم، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي ينشب فيها الصراع بينهما، ففي ٥٨٠هـ/١١٨٥م نسب صراع ومعارك طاحنة، ولم تكن الغاية من تلك الصراعات إزالة هذا أو ذاك لأنهما يدركان جيداً ما يحيط بهما من الأخطار لذلك فقط كانت الأوضاع تهدأ

جاول ملوك بني أيوب أن يسلكوا سياسة تكفل مصالحهم بالدرجة الأولى، ويطول الكلام في المشاكل التي واجهت الملك الصالح، حيث آل الأمر به أن فقد جميع أهله وأنصاره وانتهى أمره أخيراً إلى سجن الكرك مع أحد مماليكه ثم التحقت به جاريته شجر الدر[٢]، وحاول الخليفة العباسي عبثاً التوسط بين الأطراف، لاسيما بين العادل الثاني والملك الصالح نجم الدين أيوب لسعة الهوة بينهما[٣]. ونظراً لتضارب المصالح فإن الملك الصالح أصبح ورقة بيد الناصر داود الذي أطلق سراحه على ان تكون مصر للصالح والشام والشرق له[٤]. أثار ذلك الرعب في قلب العادل الثاني الذي نزل ببلبيس لملاقاة الصالح[٥]، ولم يستطع العادل أن يجذب أمراءه إلى جانبه عدا الأراذل منهم لذلك وقفت أكثر الاثنين نفوذاً وهم الأشرفية والكاملية نداً له في الإيقاع به حيث أحاطوا بدهليزه وألقوا القبض عليه وانتهت الأحداث بوقوعه في قبضة الملك الصالح نجم الدين الذي لم يفسح له المجال لرؤية الحياة ثانية إذ أمر بقتله[٦].

شهدت القاهرة أزمة حادة إثر استمرار الصراعات بين أمراء بني أيوب وانعدم الأمن والاستقرار فيها، نظراً لثقلها السياسي الكبير حيث كانت الصراعات تتركز نحو السيطرة على القاهرة، لأنها بمثابة المحور الرئيسي بين المتنازعين والغلبة تكون لمن يتحكم بها.

تفننت الأطراف المتنازعة في استخدام طرق ذكية لاستخلاص المعلومات الأمنية من الآخر، وقد تمكنوا من تبديل الحَمام التي كانت تنقل المعلومات، وبذلك قدروا الإحاطة بمعظم ما كان يدور من

بسهولة، حتى لو كانت الخسائر كبيرة، في السنة المذكورة انتصر الترك أيضاً، ولم يتخلصوا من الكورد. الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨٩، الداواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٧٨، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٦. لأن تلك الظروف اقتضت توحيد الكلمة وجمع الشمل لمجابهة أخطر تحدي يواجههما معاً المتمثل بالتحدي بالصليبي.

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٣.

(٢) تاريخ ابن الجزري، ص١٦٦" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢١٨" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ص ١٧٥، ٢١٨.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٢٩٥-٢٩٦. ويعد ذلك أول حادث قتل بين أبناء الأسرة الأيوبية.

المؤامرات[١]، ومما يلفت النظر في هذه المرحلة الخطيرة قيام الأمراء بدور سياسي كبير أدى إلى إجراء تغيرات غاية في الأهمية، وقد أوقع العادل الثاني بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعد أن ثبت علاقته بالملك الصالح نجم الدين واعتقله في قلعة الجبل[٢].

كان الصالح والناصر يخافان من العساكر الشامية والمصرية وقد واتتهم الفرصة عندما أرسل الأمراء إلى الصالح بضرورة المجيء إلى مصر فدخلا (الرمل)[٣]، وكان يزداد قوة على قوة في كل مرحلة بانضمام الأمراء إليهم، وخطب بالقاهرة يوم الجمعة خامس عشره سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م[٤]، وسر الناس سروراً عظيماً بقدومه، لنجابته وشهامته، ونزل الناصر داود في دار الوزارة بالقاهرة، وكان الملك الصالح قد أحاط نفسه بحماية أمنية محكمة خوفاً من الأشرفية وسوء نياتهم[٥]، وكان لهذه الصراعات أثرها البالغ في إضعاف الدولة، وقد تصرف بعض الملوك بما يخدم مصالحهم دون النظر في العواقب الوخيمة ومراعاة المشاعر الإسلامية ففي سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م سلم الملك الناصر داود صاحب الكرك القدس الشريف للفرنج وظلت بأيديهم حتى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م[٦]، وقد أدت تلك المنازعات بين ملوك الإسلام إلى زيادة قوة التتار، وتحكمهم في معظم بلاد الإسلام، وفضلاً عن ذلك فإن الخوارزمية قد عاثوا في البلاد فساداً[٧].

واستغل العرب (البدو) من قبل الفرنجة في المناطق المتاخمة لهم وشكلوا خطراً جسيماً على أمن الدولة لما قدموه من الخدمات للعدو فضلاً عن قيامهم بالسلب والنهب[٨].

بدأ الملك الصالح يخطو خطوات هامة لإعادة السلم والاستقرار إلى القاهرة باستجواب المسؤولين عن تبديد الأموال الحكومية، كما حاكم الذين ألقوا القبض على أخيه وقال لهم: "لأي شيء قبضتم على

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٢٠. المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٥.

(٢) ابن واصل: م. ن، ج٥، ص٢١٥.

(٣) عبارة عن منطقة الواقعة بين العريش والعباسة وساحل البحر المتوسط (المقريزي: الخطط، ج١، ص ص ١٨٢-١٨٣.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٦٤، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٧٤، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٢٩٧-٢٩٨.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٢، الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص ص٣٤٠، ٣٤٥، دحلان: الفتوحات الإسلامية، ص ص١٨-١٩.

(٧) الدواداري: م. ن، ج٧، ص٣٤٦.

(٨) سبط ابن الجوزري: مرآة الزمان، ج٨، ص٧٣١.

سلطانكم؟ قالوا: لأنه كان سفيهاً، فقال: يا قضاة! السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟ قالوا: لا، أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه، فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار، وألفي ألف درهم ﴿مليوني درهم﴾، ثم أمهلهم قليلاً وقبض عليهم واحداً بعد واحد"[١]، وفي الوقت نفسه وصلته الخلع الخليفية وقرأ ابن الجوزي التقليد على الملأ[٢].

كما سبقت الإشارة إلى اعتماده الرئيسي على الأجهزة الأمنية في تحصيل المعلومات، إذ بلغه اجتماع الملك الناصر بالأمراء سراً، وأبلغوا الملك الصالح بسوء نيته، وقد طلب منه قلعة الشوبك فرفض الصالح إعطاءه إياها فغضب لذلك وقرر مغادرة القاهرة والتوجه إلى الشام[٣].

فأمن من جانبه بعض الشيء، وفقد الأمل في النيل من الصالح الذي أبدى مقدرة قيادية كبيرة، حيث كان حذراً مع اعدائه فضلاً عن نجاحاته الداخلية، وأبدى تفوقاً في السياسة الخارجية أيضاً، وحصل على مكاسب سياسية دون إراقة الدماء، إذ أخذ قلعة الصبيبة من الملك السعيد وعوضه أموالاً ومخصصات مائة فارس بديار مصر سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م[٤].

ولأجل القضاء على البطالة وهي إحدى الأسباب المهمة في عدم استتباب الأمن في القاهرة وعموم ديار مصر اهتم بعمارة أرض مصر سواء كان العمران سكنياً أو زراعياً، وفي عهده انتشر عدد كبير من رجال الأمن في القاهرة وجميع المدن، لمراقبة الأوضاع، وإلقاء القبض على كل المعارضين لاسيما الأشرفية منهم، كما أصدر تعليمات خاصة ومشددة تتعلق بنهب الأموال، وشنق من يأوي المعارضين والخارجين من الأشرفية[٥]، إذ أمر بسد أبواب القاهرة، عدا باب زويلة، للحيلولة دون نجاة المعارضين والقى القبض على أعداد كبيرة، وامتلأت سجونه بالأشرفية، ولم ينجُ منهم إلا ما ندر، واستولى على أموالهم وأملاكهم ووزعها على مماليكه الجدد والذي يرجع إليهم الفضل في نجاحاته[٦].

وكما كان يتابع المعارضين أينما كانوا ويوقع بهم، ففي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وجه أوامره إلى دمشق لإلقاء القبض على عدد من الأمراء، وإرسالهم إليه في القاهرة، لميلهم إلى الملك الصالح اسماعيل

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٨.
(٢) المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص٢٩٨.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ص٢٧٠-٢٧١، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٩.
(٤) الذهبي: العبر، ج٣، ص٢٥١.
(٥) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٣٤٤" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٠.
(٦) الدواداري: م. ن، ج٧، ص٣٤٤. المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص٣٠٠.

وخواصه خوفاً من سيطرتهم على دمشق، فأرسلوا إليه وظلوا في الحبس حتى وفاته، وبعد ذلك أفرج عنهم وعادوا إلى دمشق[١].

ولغرض معرفة ما يدور في بلاد الشام من الأحداث والإحاطة عن كثب بكل ما يتجدد يوماً بيوم جعل من مدينة حماه مركزاً أمنياً واستخبارياً لرصد كل التحركات التي تجري على الساحة في بلاد الشام والشرق[٢].

ويبدو أن نشاط الملك الصالح أخاف الملك الصالح إسماعيل مما دفعه إلى الاتفاق مع الفرنج ضده، إذ بدأ بتقديم تسهيلات كبيرة لدخولهم إلى مدينة دمشق والحصول منها على ما يحتاجونه[٣]. وكان الرسول قد نهى الرسول عن بيع السلاح والحديد والخيل لهم[٤]، وأثار فعله هذا حفيظة الأهالي الذين استاءوا كثيراً حتى أفتى الفقهاء بتحريم ذلك لاسيما امتياز شراء السلاح من دمشق، وقطع الدعاء له على منابر دمشق[٥]، وانعكست هذه السياسة بشكل سلبي على الصالح اسماعيل ومالت عساكره إلى الملك الصالح نجم الدين[٦]، وكذلك لم يطلق سراح ابنه المغيث الذي مات في السجن بدمشق سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، ويقال انه قتله في السجن[٧].

وفي المعارك التي جرت بينهما سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م والتي انهزم فيها التحالف الشامي الفرنجي أمام التحالف المصري الخوارزمي[٨] استولى الملك الصالح أيوب على القدس سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤م التي كانت تحت سيطرة الصليبيين بعد المعاهدة بين الكامل والملك فريدريك، وكان لسقوط القدس صدى قوي في أوربا، فبدأت الدعوة لحملة صليبية جديدة وكان من دعاتها الملك القديس لويس التاسع[٩].

(١) يقول ابن كثير: (فلما وصلوا إلى مصر لم يكن إليهم شيء من العقوبات والإهانة، بل خلع على بعضهم وتركوا باختيارهم مكرمين). البداية والنهاية: ج١٣، ص١٣٠.
(٢) السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٢.
(٣) دحلان: الفتوحات الإسلامية، ص١٩.
(٤) زين الدين: الفقيه الإمام تحفة الملوك والسلاطين، مخطوطة رقم ٢٩٦٣٠، دار صدام، بغداد، (د.ت)، ورقة١٥٠.
(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٤.
(٦) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٤، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٥.
(٧) الدواداري: م. ن، ج٧، ص٣٥٧.
(٨) الدواداري: م. ن، ج٧، ص٣٥٤.
(٩) دحلان: الفتوحات الإسلامية، ص ص١٨-١٩، مجلة العلوم، ج١١، ص١٨٥٥.

غلب على طبع الملك الصالح الإيقاع بالمناوئين له عن طريق استدراجهم دون اللجوء إلى طرق أخرى قدر الإمكان، للحفاظ على الأمن والاستقرار، وقد تمكن من إقناع مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس الذي كان مع الخوارزمية بالانفصال عنهم، وقدم معه إلى ديار مصر، ثم ألقى القبض عليه واعتقله في قلعة الجبل سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م[١]، وفي نفس العام أمر الملك الصالح بقتل أخيه الملك العادل الثاني الذي كان معتقلاً في برج العافية بقلعة الجبل بعد أن مكث في السجن ثماني سنوات[٢].

إن أطماع الفرنج وتطلعاتهم لاحتلال ديار مصر لم تتوقف، إذ بدأوا في سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م بالتحرك لأخذها، والعلاقات الودية بين الملك الصالح والأنبرور تعكس محاولة الأخير رد الصليبيين عن التوجه صوب دمياط، ولكنها لم تجد نفعاً، فأخبر الملك الصالح بسوء نية الصليبيين، وضرورة أخذ الحيطة والحذر لذلك[٣]. وعلى الرغم من مرض السلطان فإن عزيمته في مجابهة العدو لم تتراخ، فتحمل ما في وسعه، وأمر نائبه بالقاهرة حسام الدين بن أبي علي الهذباني أن يرسل القطع البحرية (الشواني) من فسطاط للاستعانة بها في محاربتهم للصليبيين[٤]، وترتب على حصار دمياط تدهور واضطراب امني خطير، لأن الفرنج قد جاءوا بعدد وعدّة كثيرة، وأرسل ملكهم ريدفرانس رسالة هدد فيها الملك الصالح تهديداً خطيراً، فلما تسلم السلطان هذه الرسالة اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع وأرسل إليه الجواب الشافي والكافي مظهراً فيها استعداده الكامل لخوض المعركة دون تردد أو خذلان[٥]. إن السلطان كان مريضاً، لذلك فقد أناط القيادة إلى الشيخ فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٦]، الذي كان يراسل السلطان دون تلقي الإجابة فتصور أن السلطان قد مات، لذلك يبدو أنه فقد العزيمة والمعنويات وترك الجبهة وتوجه من الجانب الشرقي إلى الغربي متوجهاً إلى اشموم طناح معسكر السلطان، وكان هذا الخطأ الاستراتيجي الأول

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ص٧٧١-٧٧٢" الدواداري: كنز الدرر، ٧ج، ص٣٦٣، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٧.

(٣) الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص٣٦٦، مجلة العلوم، ج١١، ص١٨٥٥.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٣٦٦، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٣٣٢-٣٣٣.

(٥) للمزيد من المعلومات ينظر: الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص ص٣٦٨-٣٦٩.

(٦) أرضعت أمه الملك الكامل، وكان أولادها الأربعة أخوة للملك الكامل من الرضاعة فاستشهد في وقعة المنصورة (الصفدي: الوافي بالوفيات، (بيروت، ٢٠٠٠) ج٢٩، ص ص١٤٥-١٤٦.

الذي ارتكبه، والخطأ الثاني كان عدم إتلافه الجسر الذي عبر عليه مما سهل الأمر للفرنجة بالعبور خلفه بكل سهولة[١]، لم يصدقوا رحيل المسلمين وتصوروا أنها حيلة منهم لكنهم اكتشفوا بسرعة أن الإهمال والفوضى قد دب بين صفوف جيش المسلمين الذي غادر المدينة وهو في حالة يرثى لها من الهلع والرعب، وبعد تعرضهم للسلب والنهب في طريقهم إلى معسكر السلطان واللحاق بالمعسكر[٢].

لم يكن على فخر الدين التحرك من مكانه إلا بأمر من السلطان. ونرى كيف أن السلطان ووجوده كان ضرورياً جداً، لأنه يشد العزيمة ويقوي المعنويات ولهذا نرى أن الأيوبيين كانوا يخفون موت السلطان في أكثر الأحوال والأوقات لئلا يتسبب إعلان موته في انعدام الأمن والاستقرار في البلاد، وفي إضعاف المعنويات لاسيما في الأوقات الحرجة والتي قد يشكل منعطفاً في تاريخ الأمة.

أدرك أهالي دمياط مدى قوة وشدة الفرنج لذلك تركوا المدينة والتجأ معظمهم إلى القاهرة وهم حفاة عراة، وفي طريقهم إلى القاهرة تعرضوا للسلب والنهب على يد قطاع الطرق الذين يجدون في تدهور الأوضاع بسبب الحروب فرصة مناسبة للإخلال بالأمن[٣] إذ في أوقات الحروب تصعب السيطرة على الأوضاع ففي حصار دمياط عندما قتل فخر الدين بن شيخ الشيوخ سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وجد مماليكه فرصة مناسبة للقيام بالسلب والنهب وحتى صناديق سيدهم وأمواله الخاصة وحتى باب داره لم ينج من النهب[٤]، وقد أصيب السلطان بدهشة كبيرة وعجب عندما سمع بإخلاء العسكر لدمياط، على الرغم من وجود فئات عسكرية متميزة من الكنانيين، حتى أن العدو نفسه لم يصدق ذلك، أي خلو المدينة وتصور أنها مكيدة من المسلمين.

وقد قام الملك الصالح بمحاكمة عساكره بسبب خروجهم من المدينة دون أمر منه فقام بإعدام عدد كبير من القادة الكنانيين[٥]، بلغ عددهم سبعين نفساً[١]، وكان الملك يصر على وجوده في أرض المعركة

---

(١) الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ص١٢٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٣٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٧٣.

(٤) سبط ابن الجوزي: م. ن: ج٨، ق٢، ص٧٧٧. للمزيد من المعلومات ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣، ص١٣٤.

(٥) الدواداري: كنز الدرر: ٧ج، ص٣٧٠، تاريخ ابن الوردي: ج٢، ص١٧٦، المقريزي: الخطط، ج١، ص٢٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣٠.

فكان ينقل إليها بالمحفة نظراً لسوء حالته الصحية، لكنه ما لبث أن وافاه الأجل في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ/٢٣ يونيو ١٢٤٩م[٢].

إن وفاة الملك في هذا الوقت بالذات كانت كارثة حلت بالمسلمين، حيث كان الفرنج وقواتهم البرية والبحرية بمواجهة الجيش المصري، ولولا تدارك شجرة الدر وكتمان الوفاة والقيام بالأمر، وكأن شيئاً لم يحدث ولم يعرف بالأمر حتى المصريين أنفسهم، إذ كانت شجرة الدر قد أوهمت الناس بأن الملك الصالح مريض وكانت توقع المناشير عنه وتقصد الأطباء دون أن يشعر بها أحد، ثم بعد ذلك علم الفرنج فشنوا هجمات عديدة، وتم استدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا[٣].

خان أحد الأعراب المسلمين ودل الفرنج على مخاض الخروج من النيل بعد أن حوصروا فيه فقدم لهم بذلك خدمة جليلة حيث أنقذهم من الموت المحقق[٤].

ولكن يبدو أن موت السلطان لم يضعف إصرار وعزيمة الأهالي وإصرارهم في التصدي للفرنج ودحرهم، ونستطيع القول بأن نوعاً من أنواع المقاومة قد برز إلى الساحة وهي المقاومة الشعبية يسانده علماء الدين بمواقفهم الباسلة وحثهم الأهالي على الجهاد باعتبار أنه حرب مقدسة يجب على المسلمين خوضها، وفي هذا الوقت المتأزم ورد القاهرة كتاب يحث الناس على الجهاد[٥] أوله: {انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}[٦]، وتضمن الكتاب عبارات مؤثرة ومواعظ بليغة، وعندما قرئ على منابر جامع القاهرة والمدن الأخرى، استجاب الناس له، وأعلن النفير العام[٧]، وبدأ الاستعداد لموجهة العدو في ظل هذه الظروف الصعبة، إذ امتلات

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨، ق٢، ص٧٧٤" الذهبي: العبر، ج٢، ص٢٥٧. المقريزي: الخطط: ج١، ص٢٢٠. وكان من بينهم أب وابنه.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ص٢٣٢، ٣٦١. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٣٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٤. دحلان: الفتوحات الإسلامية، ص٢٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ث٣٤٩.

(٥) المقريزي: الخطط، ج١، ص ص٢٢٠-٢٢١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦، ص٣٣٠.

(٦) سورة البقرة: الآية ٤١.

(٧) المقريزي: السلوك: ج١، ق٢، ص ص٣٤٧-٣٤٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣٠" العيني: عقد الجمان، ص ص٢٠-٢١.

الدروب والشوارع بالمتطوعين للجهاد خوفاً من أخذ الفرنج للبلاد، وجرت من المعارك العسكرية ما يطول شرحه[١]، وعلى الرغم من وصول الفرنج إلى باب قصر السلطان إلا أن المقاتلين لم يفقدوا الأمل، بل استماتوا في القتال وتصدوا لهم بكل قوة واقتدار ودفعوهم عن الباب، وكان للفرقة التركية بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري الفضل الكبير في إزاحة الفرنجة عن باب القصر في المنصورة، ثم دارت المعارك في الأزقة والشوارع، وأوقع المصريون بالفرنجة هزيمة قاسية[٢].

وكانت المعارك تدار بشكل منتظم، وتنقل أخبارها بواسطة بطاقات الحمام[٣]، وبعد خوض المسلمين لمعارك دامية ونظراً لمعنوياتهم العالية استطاعوا تحقيق انتصارٍ ساحقٍ على الفرنج في وقت كان الحكم تديره شجرة الدر، التي أخفت نبأ موت زوجها، حفظاً للأمن العام في ظل هذه الظروف الصعبة، وكان هذا عملاً حكيماً وذكياً منها واستطاعت السيطرة على الأوضاع بشكل محكم، لحين وصول توران شاه إلى قصر أبيه[٤].

شاركت الأساطيل الأيوبية بشكل مباشر في المعارك الحربية البحرية، وأبدت تفوقاً واضحاً على الأعداء، إذ قطعت عنهم الإمدادات وسببت لهم إرباكاً وحالة من التوتر الأمني، مع غلاء الأسعار وفقدان المؤن مما اضطرتهم للتفكير في الهدنة، وكان طلبهم التنازل عن دمياط والانسحاب منها مقابل الحصول على القدس، ولم يلبِ طلبهم هذا، فلم يبق أمامهم حينها إلا المواجهة العسكرية ففي عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ترك الفرنج أماكنهم واتجهوا صوب دمياط، وسايرت مراكبهم قواتهم في البر، وتبعهم المسلمون، وأوقعوا بهم هزيمة نكراء حيث بلغ عدد قتلاهم ما بين ١٠-٣٠ ألف في حين بلغ عدد الأسرى مائة ألف أسير، رغم ما في هذه الأرقام من المبالغات متوقعة، مع أعداد كبير من الخيول، ولم ينج الملك ريد فرانس بنفسه، إذ وقع بيد المسلمين مع أكابر قومه وأخذوا جميعاً كأسرى إلى المنصورة بعد أن طلبوا الأمان[٥].

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨، ق٢، ص٧٧٣. المقريزي: الخطط، ج١، ص٢٢٠.

(٢) الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص٣٦٩" المقريزي: السلوك: ج١، ق٢، ص ص٢٤٩-٣٥١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٥١.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٣٧٣، ويذكر بأن خادمه السهيل هو الذي كان يوقع بدلاً عنه، المقريزي: الخطط، ج١، ص٢٢٠، السلوك، ج١، ق٢، ص ص٣٥٢-٣٥٣. الكتبي: عيون التواريخ، بغداد، ١٩٨٠، ج٢٠، ص٣٠.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٥٧. العيني: عقد الجمان، ص ص١٨-١٩. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣١.

لقد كانت معركة المنصورة ملحمة تاريخية سطرها الأيوبيون ضد الفرنج، وعلى الرغم من الانتصار الساحق للمسلمين إلا أنهم لم ينعموا بالأمن والسلام بعدها، إذ أبدى تورانشاه من المواقف ما أثار حفيظة أمراء المماليك فضلاً عن شجرة الدر التي أنكر فضلها في تسليم السلطة إليه، مما جعل الأطراف المهددة من قبله توحد صفوفها وتوجه إليه ضربة قاضية، بعد أن وثبوا عليه في جلسة السماط وأجهزوا عليه فقتلوه[1]، ليأفل بعده نجم بني أيوب بعد أن حكموا ٨١/ سنة[2].

إن الحروب الأهلية تشل الحكومة ومن ثم السياسة العسكرية، ولولاها لكان بالإمكان استخدام موارد مصر الضخمة في الوقوف بوجه أي اعتداء خارجي على الشرق الأدنى الإسلامي[3].

لم ينعم تورانشاه بهذا الانتصار، بل ركبه الغرور، وأخذ يتدخل في أمور ثانوية لا تخدمه كثيراً، على الرغم من تحقيقه لانتصار عسكري كبير حيث كان ذلك بمثابة فرصة مناسبة له لترسيخ أقدامه وفرض الأمن بعد ذلك، فكان عليه التأني لبعض الوقت حتى تستقر له الظروف ومن ثم يبدأ برسم ما يريده على أرض الواقع، كان عليه أن يستنبط الدروس من كل الأحداث التي سبقته، لا سيما سيرة والده[4]، وكان من الأفضل له أن ينفذ الوعود التي أعطاها، وأن لا يسيء معاملة شجرة الدر لأنها كانت زوجة لأبيه، ولها أفضال ومواقف في الشدائد لا تنسى، كما كان لها دور كبير في مساندتها له في تسلمه للسلطة إذ استدعته من حصن كيفا وأسندت إليه الحكم، والذي يظهره لنا سياق الأحداث إن شجرة الدر كانت مقتنعة تماماً بأحقية تورانشاه لخلافة والده وقد عملت في سبيل ذلك كل ما في وسعها[5].

بعد مقتل تورانشاه آل الأمر إلى شجرة الدر ثم إلى الملك المعز[6]، ويبدو أن السياسة لم تساير الانتصارات العسكرية، وأبدى الجانب الإسلامي مرونة تجاه ريدفرانس حيث أطلق سراحه لا على أساس تسليم دمياط، لأن المسلمين كانوا قد أخذوها حرباً وقد رفرفت أعلامهم فوق أسوارها وهو ما أصاب ريدفرانس بالذهول على الرغم من إصرار الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني، بإبقائه معللاً ذلك

---

(١) المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص ص٣٥٧-٣٦٠.

(٢) المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص٣٦١.

(٣) سميل: الحروب الصليبية، (بيروت، ١٩٨٢م) ص٨١.

(٤) الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص٣٧١.

(٥) الدواداري: م. ن: ج٧، ص٣٨٢.

(٦) الذهبي: العبر، ج٣، ص٢٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣١٨.

بأن بقاء ملكهم وهو كبير وعظيم النصرانية خير من إطلاق سراحه، لاسيما أنه اطلع على عوراتنا، ولكن رأيه لم يلق آذاناً صاغية[1]، ومن الجدير بالذكر هنا أن المسلمين تعاملوا مع ريدفرانس بأخلاق عالية فبعد الاتفاق بينهما ينص على إطلاق سراحه مقابل انسحاب الصليبيين من دمياط، التي استرجعها المسلمون حرباً كما سلف ذكره، وبعد سقوط هذه الورقة لم يخلف المسلمون وعدهم لريدفرانس فأطلقوا سراحه مقابل مبلغ ضئيل لا يتناسب مع مكانته السياسية إطلاقاً، ولكن ريدفرانس قابل إحسان المسلمين له بجحود كبير، فبعد قطع الوعود لهم بعدم العودة إلى محاربتهم لم يلبث أن قاد بعد فترة وجيزة حملة صليبية ضد المسلمين كتعبير عن سياستهم التي لا تحترم العهود والمواثيق المبرمة، وقد تفاخر بنكثه لعهوده مع المسلمين برسالة أرسلها إلى المماليك[2].

ومن جانب آخر فإن تسلم شجرة الدر السلطنة في ديار مصر، لم يكن حدثاً مطابقاً لحركة التاريخ، في الوقت الذي كان هناك الكثير من الملوك الأيوبيين في بلاد الشام، وكانوا تواقين لتسلم دفة الحكم، كما كانت التحديات قد تسببت في تدهور الأوضاع الأمنية بشكل خطير حتى أحس الأمراء أن الناس استغلوا حكم امرأة لذلك وجدوا أن من الأفضل لهم تنصيب ملك ونصبوا الأمير عز الدين آيبك التركماني[3] وهو ما وافقت عليه نظراً لمعارضتها في بغداد بشدة تولية الأمر لإمرأة، حتى أن الخليفة خاطب أهل مصر بكتاب يقول فيه: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً"[4]، وما فعلته شجرة الدر لحل الأزمة من إناطة الأمر إلى الملك المعز والتزوج منه، لم تكن طريقة ناجحة في مواجهة الأحداث، فكان الأولى بها أن تسلم السلطنة إلى أصحابها الحقيقيين من الأيوبيين، لأن الشعب المصري لم يتقبل المماليك وكان يتوق إلى عودة الأسرة الأيوبية، وثارت في الصعيد حركات مناهضة للمماليك، الذين حاولوا تدارك الأمر عند طريق إشراك الأيوبيين معهم في السلطنة، بغية تضليل الرأي العام ومن ثم تثبيت أقدامهم في ديار مصر.

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، تحقيق أولرخ هارمانم، (القاهرة ١٩٧١م) ج٨، ص١٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٨.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٣٨٣. المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٥.

(٤) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٣٨٤" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٨، حسن إبراهيم: النظم، ص٩٨.

لم تكن شجرة الدر ملكة سيئة الصيت بل على العكس حاولت فرض الأمن والاستقرار، وخطت خطوات هامة لتحقيق ذلك منها الزواج بالمعز لاحتواء المواقف وامتصاص النقمة[1]، والاتفاق مع ريد فرانس وإطلاق سراحه مع جميع الأسرى الذين كانوا في ديار مصر منذ أيام الملك العادل والكامل والصالح[2]، وكانت تمارس مهامها كملكة حيث يجري الدعاء لها على المنابر فكان الخطباء يقولون في الخطبة: "اللهم أدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين والدة الملك خليل)[3].

إن تسلم شجرة الدر مقاليد السلطنة في ديار مصر أحدث توتراً أمنياً ليس في القاهرة فحسب بل في بلاد الشام أيضاً، كما ساعد على ظهور المعارضة والذي وشكل الأمراء القيمرية نواتها، وتسلموا دمشق وألقوا القبض على الموالين لشجرة الدر[4]، ولعل الخطأ الوحيد الذي وقعت فيه شجرة الدر يكمن في عدم تسليمها الحكم لأحد أمراء الأيوبيين وهو ما كان سيجنبها المعارضة التي حصلت، ولعل لهذه الأمر ما يبرره، فشجرة الدر كانت قد عهدت بالأمر من قبل إلى ابن زوجها الذي أنكر عليها معروفها وإحسانها مما تسبب في فقدان ثقتها ببني أيوب على اعتبار أن ابن زوجها قد فعل معها هذا فكيف بمن لا تجمعه بها أية صلة.

تعامل المماليك مع الأمور بعقلانية، وبحسب ما تقتضيه الظروف، إذ فهموا بسرعة ما تقصده المعارضة بحسب ما تتطلبه مصلحتهم، فتقربوا إلى الأيوبيين، بعدما تبين للمماليك مدى تعلق الشعب المصري مع الأسرة الأيوبية، وجعلوا صبياً منهم هو الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف بن المسعود اتسيس بن الكامل يشارك في الحكم مع الملك المعز، ونادوا أمام الملأ أنهم نواب الخلافة العباسية، وضربوا المعارضين من المصريين بشدة بالغة فضلاً عن القيام بدعاية واسعة النطاق، بأن الأمر قد استقر، ولم يبق ما يعكر صفو الجو الأمني في القاهرة وفي المدن الأخرى، وتنصيبهم الأشرف ضعف المعنويات الأيوبية في محاربتهم، وانكسر الملك الناصر وانهزم شر هزيمة[5]، ورأى الخلافة أن الصراعات في ديار مصر تهدد الأمن في المنطقة، بأكملها لذلك تدخلت في حل الأزمة، يبدو أن العلاقات والوساطة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ٣٦٨. حسن حسن: النظم الإسلامية، ص٩٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٦. مجلة العلوم، ج١١، ص١٨٥٥.

(٥) الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص ص١٨-١٩.

بين الطرفين لم تتوقف، إذ اتفق الطرفان بعد سنة من الأحداث في ٦٥١هـ-١٢٥٣م وبواسطة نجم الدين البادرائي سفير الخليفة العباسي على اتفاق ينص على أن يكون للمعز حكم مصر إلى الأردن وللناصر من الأردن إلى ما وراء ذلك كما نص على إطلاق سراح جميع المعتقلين من الطرفين[1]. إلا أنها لم يتم لها لسعة الهوة بين الطرفين[2]، ومن ثم وجد المعز بعد أن اشتد ساعده أن يزيل الهيكل الأيوبي عن الحكم بعزل الأشرف وإبعاده إلى خارج مصر[3].

يبدو أن بذور المعارضة قد بذرها أبناء الشعب المصري الذين دافعوا عن وطنهم ولم يرضوا بحكم المماليك قائلين: "نحن أصحاب البلاد، وإنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أن خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد"[4]، ولأجل القضاء التام على الحركات الانفصالية وتثبيت أركان سلطتهم لاسيما في الصالحية التي بناها الملك الصالح نجم الدين نودي في كل من مصر والقاهرة: (أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي) وجددت الأيمان للملك الأشرف والمعز إيبك، ويكون توقيعهما واسمهما على السكة والمناشير ويخطب لهما على المنابر[5].

وبدأت العمليات العسكرية ضد المعارضين في الصالحية وغيرها من المناطق، ولجأت السلطات إلى إلقاء القبض على شيوخ القبائل وإعدام بعضهم ولاسيما من الطائفة الصالحية[6]، فضلاً عن ذلك قام المعز إيبك بنشاطات سياسية لأجل تهدأة الوضع العام، ولاسيما الإعلان بإقامة صلح بينه وبين البحرية، وكذلك مع بعض المعارضين الآخرين دون أن يكون لذلك أساس من الصحة[7].

اشتبك الطرفان الأيوبيون بقياد ة الملك الناصر، أمير دمشق، والمماليك بقيادة عز الدين آيبك سلطان ديار مصر بجيشين كبيرين كانت الغلبة في البداية للأيوبيين وظن الجميع أن الأمر قد انتهى[8]،

---

(١) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٦٩" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٣٨٥-٣٨٦.

(٢) الدواداري: م. ن، ج٨، ص٢٢" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٣.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٥٣، الذهبي: العبر، ج٣، ص٢٧٥.

(٤) الشيال: مصر الإسلامية، ص١٥٥.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٧٠. العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٥.

(٦) العيني: عقد الجمان، ج١، ص ص٦٥-٦٦، الذهبي: العبر، ج٣، ص٢٧٥" المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٧٠.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٧٢.

(٨) المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص٣٧٣.

فخطب له على المنابر ولكن سرعان ما تبين العكس إذ انتصر المعز انتصاراً ساحقاً وأفلت الملك الناصر من الأسر بأعجوبة[1]، في حين سقط الكثير من أمرائه في الأسر، منهم المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين صاحب حمص، والأمير ضياء الدين القيمري، والأمير شمس الدين لؤلؤ صاحب حلب وآخرون[2]، وانكسر جيش الشام ونودي في مصر والقاهرة في يوم واحد بانتصار الجانبين إذ نودي قبيل صلاة الجمعة بانتصار الشاميين، ثم نودي بعدها انتصار الملك المعز إيبك، وتم إعادة المعتقلين إلى اعتقالهم في القاهرة ثانية خاصة الذين كانوا موالين للملك الناصر، واحتفل المعز بالانتصار احتفالاً مهيباً[3]، وتعد من أعظم الأيام التي شهدتها القاهرة واستمر الاحتفال أياماً[4]، وأخرج العساكر والموالين للملك لناصر الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف من القاهرة إلى دمشق بشكل مزري[5].

وكان شرط الناصر أن تكون السكة والخطبة له بمصر والشام فرفض المعز وقالت البحرية: "نحن خضعنا مصر والشام بسيوفنا من أيدي الفرنج، ولا صلح بيننا إلا أن يكون لنا من غزة إلى العقبة"[6]. وأبى الناصر، وظل التوتر الأمني بين الطرفين مستمراً طوال ست سنين بكاملها، ويبدو أن الملك المعز بعد أن أزاح المعارضين وبدد شمل الأيوبيين، وجد بأنه لم يعد بحاجة إلى الملك الأشرف لذلك قرر في ٦٥٢هـ/١٢٥٤م إزالة اسمه من الخطبة، ولم يكتف بذلك بل ألقى القبض عليه أيضاً ثم نفاه في نفس العام، وهو آخر من خطب له من الأيوبيين[7].

كما بدأ المعز بتصفية العناصر غير المرغوبة فيها، وعلى رأسهم خشداشه[8] أقطاي الذي وقف عائقاً أمام سياسته، كما قام أيضاً بإبعاد الكورد عن المناصب الإدارية الحساسة وعلى رأسهم الأمير

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص١٨.

(٢) الدواداري: م. ن، ج٨، ص ص١٨-١٩، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٣٧٤-٣٧٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٧٧.

(٤) المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص٣٧٨.

(٥) المقريزي: م. ن، ج١، ق٢، ص٣٧٩.

(٦) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٥٣. الذهبي: العبر، ج٢، ص٢٧٥. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣٣.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٩٤.

(٨) خشداشه: كلمة فارسية تعني رجلين مملوكين لسيد واحد. (العسلي: ج٤، ص٢٣٣ هامش بدون رقم).

حسام الدين بن أبي علي الهذباني الذي كان وزيراً لمدة طويلة، والذي لم يجد بداً والتحق بالملك الناصر[1].

ثم ما لبث أن انهارت العلاقة بينه وبين زوجته التي وقفت ضد سياسة زوجها، بل حدا بها إلى المؤامرة عليه وقتله في ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/ نيسان ١٢٥٧م، ولم تلبث أن تعرضت هي أيضاً للقتل وانتهت بذلك سيرة واحدة من أبرز النساء اللاتى عرفهن التاريخ الإسلامي[2].

وبدأ المماليك بالاعتداء على الأهالي، وكثر سوء البحرية وطغيانهم[3].

ثالثاً- المؤامرات وحركات التمرد

لم يكن من السهل اجتثاث جذور دولة حكمت أكثر من مائتي عام في ديار مصر، وغرست جذور مذهب ديني وصل إلى الأعماق، وبعد تحكم شيركوه وصلاح الدين في أمرها، بات أنصار الدولة القديمة يحنون إلى أيام عزهم ومجدهم، ويبدو أنهم أيقنوا بأفول نجمهم، وذهاب هيبتهم، لذلك جرت محاولات وترتيبات لإعادة الدولة الفاطمية، فشاور الذي اضطر أن يستنجد بهم، وبعد أن خلا له الجو، شعر بثقل وطأة الأسرة الأيوبية والجيش الشامي، وكان يحيك المكائد للإيقاع بهم، وقد أحس الأيوبيون بخبث نوايا شاور، وتعرفوا عليه من خلال التعامل معه كقائد متقلب المزاج، ويعمل لحسابه الخاص، لذلك وجد صلاح الدين أن التخلص منه بات ضرورة قصوى خوفاً من البلبلة والفوضى، لقد تفهم المصريون وعلى رأسهم ابن شاور خطورة الموقف ونوايا شاور الخطيرة، إذ كان من المغرورين بجيشه، ولأن الأوضاع الأمنية حينذاك كانت حساسة جداً بحيث لا يمكن تحمل أية مخاطرة أخرى. لأن الفرنج على الأبواب لذا فإن أي انتهاك أو توجيه أية ضربة لجيش الشام لن يستطيع أحد فيها أن يمنع الفرنج من الدخول إلى ديار مصر، وامتلاكها بصورة فعلية، لذلك فقد تصرف الكامل ابن شاور بمسؤولية كاملة، ولم يؤيد أباه على

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ص٤٠٣-٤٠٤، العسلي: فن الحرب الإسلامي، ج٤، ص٢٣٣.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص٢٥، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٤. مجهول: مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية، ورقة ٣١.

استدعائهم إلى وليمة والقضاء عليهم، وقال له: "والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين، فقال له والده: والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعاً"[1]، وكان العاضد قد أيد شيركوه في القضاء على شاور[2]، في ١٧ ربيع الآخرة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م فقام جرديك النوري (ت ٥٩٤هـ-١١٩٧م) بقتله بالتعاون مع صلاح الدين في التخلص من شاور، والذي كان واحداً من أكابر أمراء نور الدين وقد ألحقه بخدمة صلاح الدين، وشارك معه في جميع حروبه.

تمكن شيركوه وصلاح الدين من تثبيت أقدامهما في ديار مصر، بفضل دماثة أخلاقهما فضلاً عن شجاعتهما التي أبدوها في الحفاظ على ديار مصر، وطرد الفرنج منها، وتسنم شيركوه منصب الوزارة في عهد العاضد، ولم يطل به العمر إذ عاجلته المنية في ٥٦٥هـ/١١٦٨م بعد شهرين من توليه المنصب، وآل الأمر إلى ابن أخيه صلاح الدين، الذي لم يجد الطريق أمامه معبداً ومفروشاً بالورود لأسباب منها: أنه من الصعب بمكان تقبل الشيعة الإسماعيلية أن يؤول الأمر إلى صلاح الدين السني[3]، ولأن الوزارة منصب رفيع المستوى، ولا يجوز أن يسند إلى أي كان ولكن الظروف كانت لصالحه إذ لم يكن ثمة بديل له، ولم تقتصر المعارضة على أنصار الدولة الفاطمية فحسب، بل إن الأمراء الذين جاءوا معه عارضوه أشد المعارضة[4].

أما فيما يتعلق بمعارضة أنصار الدولة الفاطمية فكان شاور[5] من أشدهم لأنه أيقن بأفول نجمه، وحاول جهد الإمكان منعه من تحقيق مآربه التي تلمسها منذ البداية لأن طموح صلاح الدين والأسرة الأيوبية كانت بلا حدود وأعد العدة لمؤامرة خبيثة بأن يستدعيه ومقربيه إلى وليمة ويقضي عليهم جميعاً[6].

فالتضحية بالمصالح الشخصية أهون بكثير من التضحية بديار مصر، وتهديد أمنها واستقرارها، وكذلك تهديد الأمن الإسلامي لو تحققت أحلام الفرنج، كما وقف الشعب المصري ضد مؤامرة شاور،

(١) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٠١، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٨٨.
(3)Jonse Terry and Ereira Alan: Crusades, England 1996, p 104
(٤) للمزيد من المعلومات ينظر: الفصل الأول، التمهيد.
(٥) كان عربياً من قبيلة جذام، ومن قرى الحوف الشرقي ومن مشايخ البلاد وخفرائها، وأظهروا الكثير من الفساد في البلاد وهو من الحوف الشرقية (المقريزي، البيان والإعراب، (القاهرة، ١٩٦١) ص٢١).
(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٨٨. عاشور: صلاح الدين، (القاهرة، ١٩٦٥) ص٨.

وكان شيركوه وصلاح الدين على علم بما يخفيه شاور من الشر، وهم بدورهم أعدوا العدة لوأد المؤامرة[1]، وأدى ذلك إلى إرباك الأمن والاستقرار برهة من الزمن ثم ما لبث أن عادت الأمور إلى نصابها، ووقف المصريون بجانب الأيوبيين بعدما سئموا من صراع الوزراء والمشاكل التي كانت تنجم عن هذه الأوضاع المتردية، وطال شوقهم إلى الاستقرار والطمأنينة، في الوقت الذي كان العاضد كالمتفرج لا حول له ولا قوة.

يمكننا القول بأن المعارضة كانت قد بدأت بدخول شيركوه إلى بلاد مصر، وهو ما شكل تهديداً على مصالح الفئات الحاكمة، وتتلخص أضرار هذه الفئة باستيلاء صلاح الدين على اقطاعات[2] أمراء الدولة الفاطمية وتوزيعها على أمرائه[3]، وهذا شيء طبيعي، لأن صلاح الدين لم يعد بحاجة إلى خدماتهم، وعليه تأمين حياة أمرائه، وكان هذا إجراءً لابد منه، لأن الحكومة الجديدة بحاجة إلى كوادر جديدة. في الوقت الذي كان أموري ملك الفرنج يراقب الأمور عن كثب، ويخاف جداً من سيطرة شيركوه والأسرة الأيوبية على ديار مصر[4]، وقد حاول جاهداً منع توسيع سلطة نور الدين، لكن الأخير كان يدرك جيداً، بأن وجود قوة قادرة على الاحتفاظ بديار مصر ضروري جداً، لذلك بدأ بتقوية الجيش المرسل إليها، كما رحب نور الدين بطلب صلاح الدين التحاق والده وذويه به لشد أزره بهم[5]، والذي أثار المعارضة هو تأييد الخليفة العاضد لشيركوه[6]، خاصة وإنها سلكت كل السبل للإيقاع به، حيث لم يتورعوا في التعاون مع الفرنج ضد شيركوه[7]، وأعقبه صلاح الدين الذي لقب بالملك الناصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[8]، قائداً أعلى للجيوش النورية في ديار مصر، وأصبح لزاماً عليه أن يرضي كلاً من

(١) ابن شداد: النوادر السطانية، ص٣٩. الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٦.
(٢) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص ص١٦٠، ١٧٨. أمين أبو دمعة: الإقطاع العسكري في العهد الأيوبي، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة، العدد ٢٩-٣٠، دمشق، ١٩٨٨، ص٢١١.
(٣) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧١.
(٤) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٩.
(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٤. العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة٥٠، الحنبلي: شفاء القلوب، ص ص٧٣-٧٤، إيليسيف: الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، (بيروت، ١٩٨٦) ص٤٣٥.
(٦) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٨١.
(٧) العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة٥٠" ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٨٨.
(٨) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٥.

العاضد ونور الدين، وكان يدرك جيداً بأنه من غير الممكن الاحتفاظ بالنظام الشيعي في البلاد، لذلك بدأ التمهيد للأمر قبل الإعلان الرسمي لإلغاء الخلافة، لأنه وجد صعوبة البدء بالعمل وإنهاء الخلافة بشكل فوري، فبدأ بتغيير بعض المراسيم[1]، وكان نور الدين ينوي إنهاء الخلافة بأسرع وقت ممكن، وكان صلاح الدين متردداً وخائفاً من أنصار الدولة الفاطمية، ورأى في إلغاء الخلافة مجازفة، ولكن لم يكن باليد حيلة، إذ أمر بإلغاء الخلافة وأصر على ذلك إصراراً شديداً فلم يبق أمامه سوى القبول بالأمر الواقع ففعل ذلك دون سفك دماء، أو كما يصفه أبو شامة: "ولم ينتطح فيها عنزان"[2].

١- المؤامرات

أولاً: مؤامرة مؤتمن الخلافة ٥٦٤هـ/١١٦٨م

كان صلاح الدين على صواب عندما راوده الخوف من إعلان إسقاط الخلافة، لأنه كان يعلم جيداً عن طريق أجهزته الأمنية مدى قوة الشيعة وخطرهم، وتبوء السودان مركز الصدارة في البلاد من الناحية العسكرية، وهو ما شكل خطورة كبيرة على أمن البلاد، إذ كانوا كلما رغبوا بتنحية أحد الوزراء ثاروا عليه وقتلوه، ولم يكن بالإمكان وضع حد لاعتداءاتهم لاسيما على الأهالي، ولعل ذلك كان إيذاناً باقتراب نهايتهم[3].

أدرك صلاح الدين خطورتهم وبأسهم بعد أن أقاموا عدة ممالك في المغرب، وفي الوقت نفسه كان يعلم بأن العاضد يعتمد عليهم، وهو ما قوى شوكتهم وزاد من غطرستهم، فأخذ صلاح الدين حذره منه، وبث العيون منهم والجواسيس بينهم لمعرفة تحركاتهم وما يضمروه له في خبايا أنفسهم[4].

وتعد حارة المنصورة إحدى محلات سكناهم، ولم يكن الولاة يدخلون الأحياء التي يعيشون فيها احتراماً لهم، وكان عددهم يزيد على الخمسين ألفاً، وكان لهم السلطان من أنفسهم حتى في الجبال، ويجبون الضرائب في بلادهم لأنفسهم، ووصفهم ابن جبير: "أنهم أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً، لا

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٩٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٩٤" Jonse Terry and Ereira Alan: Crusades, England 1996, p 105.

(٣) البنداري، سناء البرق الشامي، ق١، ص٨٤. المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٩. Mayer: The Crusades. London, 1965, P 121

(٤) سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٨٢.

دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام" ثم يستطرد قائلاً: "وبالجملة فهم أمة لا أخلاق لهم ولا جناح على لاعنهم"[1].

وبطبيعة الحال فإن بلوغ صلاح الدين إلى منصب الوزارة أثار استياء رجال القصر، كان المشرف على القصر من أبرزهم، لذا فقد اتفق وتواطأ مع جماعة على قتل صلاح الدين وتصفيته مع جماعته[2]، فكاتبوا الفرنج لاستدعائهم[3]، وتم كشف المؤامرة صدفة عندما عثر بحوزة شخص ما على رسالة مخبوءة في حذاء جديد، وشكوا في الرجل عندما رأوه يحمل زوج حذاء جديد، وبعد التفتيش وشق الحذاء وجدت الرسالة في داخله[4]، وفيها دعوة للفرنج إلى التعاون معهم مع توفير كافة المستلزمات الكفيلة لإنجاح خطتهم، وكانت خطتهم تقضي بأن يخرج الفرنج للقتال فيخرج لهم صلاح الدين وبذلك يقع بين فكي كماشة، وإن لم يخرج فيبقى وحده وحينها يمكن أيضاً الإمساك به شخصياً، وبعد إجراء التحقيقات توصلوا إلى أن كاتب الرسالة يهودي متعاون معهم، فأتوا به وعندما أيقن بالهلاك نطق بالشهادتين وأعلن إسلامه، واعترف بأن مؤتمن الخلافة أملى عليه مضمون الرسالة وأمره أن يكتب، فعلم الأخير بإفشاء سر المؤامرة وكشفها وأخذ منذ ذلك الوقت حذره، ولكن صلاح الدين لم يظهر شيئاً وتصرف وكأن شيئاً لم يحدث، وكان المؤتمن قلما يخرج، وإن خرج فإنه لا يبتعد كثيراً والسلطان يراقبه بواسطة أجهزته الأمنية إلى أن تسنى له الوقت المناسب، فانقض عليه رجاله عندما خرج المؤتمن إلى قصر له بالخرقانية للتمتع، فقتلوه في يوم الأربعاء ٢٥/ ذي القعدة/ ٥٦٤هـ/١١٦٨م[5]، وعين محله بهاء الدين قراقوش، وتولى مسؤولية القصر، فلم يكن يدخل أو يخرج شيء من القصر إلا بأمر صلاح الدين[6].

(١) رحلة ابن جبير، ص٤٣. وقد هدم صلاح الدين حارة المنصورية وكل حارة دخلوا إليها إثر قيام السود بالتمرد عليه. أبو شامة: الروضتين، ج١ ص١٧٨. المقريزي: الخطط، ج٢، ص١١٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٠٣، العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة٥١، مجلة المعرفة: ج١١، ص١٨٥٢.

(٣) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٢. Mayer: The Crusedes. London, P 121.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٠٣" البنداري: سناء البرق الشامي، ق١، ص٨٢. أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٧٨Jonse Terry and Ereira Alan: Crusades, England 1996, p 104.

(٥) البنداري: سناء البرق، ق١، ص١١٢. العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة٥١-٥٢، سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص١٧

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٠٣، المقريزي: الخطط، ج٢، ص١.

وفي ثاني يوم من قتله ثار ثائرة السودان، وقاموا بالانتقام له، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وظن السودان أن الأمر كما كان عليه في السابق، يقتلون كل وزير لم يَرُقْ لهم، ولم يدركوا أن النيل من صلاح الدين صعب جداً، ونشبت معارك طاحنة دارت رحاها بين القصرين، وكان مقدم الجيش الأيوبي فيها الأمير أبو الهيجاء السمين، وقد دامت هذه المعارك يومين متتاليين، وأحرق الأيوبيون كل منطقة أو محلة توجهوا إليها، ولم يبق أمام السودان إلا التوجه صوب الجيزة، فطلبوا الأمان، واستجيب لطلبهم شرط أن لا يبقى أحد منهم في القاهرة[1]. بعد أن تركوا ديارهم ومنازلهم[2].

يبدو أن أنباء سير المعارك قد وصلت إلى نور الدين في بلاد الشام، فأسرع بإرسال فخر الدين تورانشاه بن أيوب، أخا صلاح الدين إلى القاهرة ليشد أزر أخيه[3] الذي أباد المتآمرين عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم إلا من ولّى هارباً[4]. وأصبحوا عبرة لمن اعتبر، وطهرت القاهرة منهم، ولم يبق فيها من يجرؤ أن يخل بالأمن[5].

ثانياً: مؤامرة عمارة اليمني[6] ٥٦٩هـ/ ١١٧٢م.

جرت محاولات عديدة لإعادة الدولة الفاطمية، وتبنى عمارة اليمني وجماعته إحدى أخطر تلك المحاولات وقد سبق أن أظهر عمارة معارضة شديدة تجاه ممارسات صلاح الدين الهادفة لطمس معالم الفاطميين[7]، وشاركت معه في هذه المؤامرة أطراف متباينة الآراء والمبادئ، اتفقوا جميعاً على إزالة الدولة الأيوبية، وترأسها عمارة بمشاركة كل من عبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٠٣، المقريزي: أتعاظ الحنفاء، ص٣٦٣.

(٢) البنداري: سناء البرق، ق١، ص٨٢. المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٩.

(٣) البنداري: م. ن، ق، ص، أبو شامة: الروضتين، ج١ ص١٧٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٠٤.

(٥) الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٧٧.

(٦) هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن محمد بن زيدان الحكمي اليمني، الملقب بنجم الدين الشاعر، ولد في حدود ٥١٥هـ/١١٢٠م نشأ في بيت علم وصلاح، وكان من سكنة الجبال من مدينة مرطان، عده الفاطميون كوزير، خرج من اليمن إلى مصر سنة ٥٥٠هـ، (عمارة اليمني: المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وسفراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، (صنعاء، ١٩٨٤) ص ص٣٢-٣٣، ٣٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٢٣. العمري: مسالك الأبصار، ج٢٧، ورقة٦١-٦٢. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٥٤. المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ق٢، ص٣٧٥.

الدعاة عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوي[1]، وبعض أمراء صلاح الدين منهم علي بن نجا الواعظ[2]، ودخل بينهم نصراني وشجعهم بقوله: (أنتم تملكون من صلاح الدين بعد تسعين يوماً)[3]، ثم انضم إليهم السودان ويبدو أن الجبهة كانت مفتوحة لدخول كل الراغبين إليها، إذ ساهم الفرنج أيضاً فيها، وكذلك الاسماعيلية والأرمن[4]، واتفق كل المناوئين للدولة الأيوبية وانضموا في جبهة عريضة وقوية ورتبوا خطة محكمة، إذ أخذوا بنظر الاعتبار كل ما يمكن الاستفادة منه لإنجاح العملية، واتفقوا على وضع ساعة الصفر في شهر نيسان في الوقت الذي انتشرت عساكرهم في الاقطاعات في موسم الغلات، وكانت قواتهم قليلة[5]. وقد لجأ عمارة إلى فكرة أخرى تدل على ذكائه، إذ شجع تورانشاه بالخروج إلى اليمن- بحكم علاقته معه بعد أن فرش له الطريق بالورود- حتى يحرم صلاح الدين من سند قوي نظراً لما كان يتمتع بها أخوه الكبير من المواهب العسكرية البارعة[6]، وكانوا في كل يوم يرصون صفوفهم ويرتبون أمورهم و يزدادون عدداً وعدةً ولكن الذي شتت شملهم وبدد أمرهم هو عدم اتفاقهم على توزيع المناصب فعلى الرغم من أنهم لم يختلفوا في تعيين الخليفة، الذي كان أحد أولاد العاضد[7]، لكن الاختلاف وقع بين بني رزيك وبني شاور في تحديد الوزير، وكان ذلك سبباً رئيسياً في كشف المؤامرة، لأن ابن نجا قد نقل تفاصيل المؤامرة إلى السلطان صلاح الدين، مقابل حصوله على أملاك وأموال داعي الدعاة، وتم له ما أراد[8].

---

(١) المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ق٢، ص٣٧٨.

(٢) الذهبي: دول الإسلام: ج٢، ص٨٤. العبر، ج٣، ص٥٩، تاريخ الإسلام، (القاهرة، ١٩٧٤) ص٤٠٠، أحداث سنة ٥٦٩هـ.

(٣) الدوادري: كنز الدرر، ج٧، ص٥٥.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج١ص٢٢٠" بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٢١٣.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢٢١. جب: صلاح الدين، ص١٥٨" الباز العريني: مصر في العصر الأيوبي، ص١٥٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص١٢٣. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٥٠، العسلي: فن الحرب الإسلامي، ص١٠٠.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٥٣، بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص١٩٠.

(٨) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص٣٤. الجنبلي: شفاء القلوب، ص٨٢" ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٦، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٥٣، درر العقود الفريدة، ق٢، ص٣٧٨.

ويبدو أن السبب الرئيسي الذي جمع هذه الفئات المتباينة هو حقدها على السلطان[(١)]، وكان عمارة وعلى الرغم من كونه شافعياً شديد التعصب للسنة، محفوفاً بحب الفاطميين واحترامهم، لشهرته في الأدب وبراعته في الشعر وأغدق عليه الفاطميون أموالاً كثيرة، عاش بسببها حياة رغيدة.

إن التعاون والتحالف مع الفرنج لم يكن يرضي المسلمين، لذلك ترى أن الأهالي أنكروا على عمارة ذلك[(٢)]، ويبدو أن زوّال النعمة كان أكثر الدوافع قوة في تحريك عمارة، وذلك بعد وفاة العاضد إذ بدأ بكتابة قصائد الرثاء، وهجا الأيوبيين وعلى رأسهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه، الذي أصدر بعد ذلك أوامره بشنق عمارة و لكن توسط القاضي الفاضل لأخذ الشفاعة له، وسامحه شريطة أن لا يعود ثانية إلى ذلك، ومن قصائده في الهجاء:

عظمتم الأمر وفختماه ... ما ابن شاهنشاه إلا ابن شاة

ومن تكون الشاه أما له ... فما يكون التيس إلا أبا له[(٣)]

وبالمقابل كان يرفع منزلة الفاطميين ويمدحهم ومن قصائده في ذلك:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلي بالعطل[(٤)]

---

(١) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨٢، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٥٣.

(٢) وقال عنه أحد الشعراء:

عمارة فى الإسلام أبدى جناية ... وبايع فيها بيعه وصليبا

أمسى شريك الشرك فى بغض ... فاصبح فى حب الصليب صليبا

وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عوداً فى النفاق صليبا

سيلقى غداً ما كان يسقى ... ويسقى صديداً فى لظى صليبا

أبو شامة: الروضتين ج١ ص٢٢٢، الكيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، ص ص٤٣-٤٤.

(٣) المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢، ص٣٨٢.

(٤) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٧٧.

أبدى الأيوبيون تجاهه في بداية هجائه لهم معاملة انسانية، فاقتصر مطاليبهم منه بالإقلاع عن هجائهم، وعلى الرغم من أخذ الوعد على نفسه إلا انه لم يفِ بذلك[(١)]، وتمادى في غيه وغطرسته، حتى أنه تطاول على الدين، إذ رفع من مكانة الخليفة الفاطمي وجعله في منزلة الرسول فدفع ثمناً باهضاً لقاء ذلك وهو حياته[(٢)].

كما سبقت الإشارة كان لعيون السلطان دور كبير في الأطلاع على خطط المتآمرين، ومن المشاركين الذين كانوا عيونه (صاحب الخبر)[(٣)] إذ عن طريقهم تسنى له معرفة ما يكنه له اولئك المناوئين من الأحقاد، وفي الوقت نفسه وصل رسول الفرنج إلى السلطان في القاهرة يحمل معه هدية ظاهراً والتحقق من سير العملية حقيقة[(٤)]، لأن الرسل فضلاً عن وظيفتهم الرسمية، كانوا جواسيس للطرف المرسل ولم يكن السلطان بأقل منهم كفاءة، وهو أيضاً قد أرسل عدداً من النصارى إلى بلاد الفرنج، قد يكون بشكل تجار أو غيرهم، لنقل الأخبار من قلب بلادهم، وكان يتابع المتآمرين ليل نهار وعندما أرادوا تنفيذ العملية ألقي القبض عليهم جميعاً[(٥)].

فيما يتعلق بكيفية كشف خيوط المؤامرة، فإن عبد الصمد المار ذكره كان على علاقة ودية مع القاضي الفاضل، ورأى منه الأخير علامات زوال الود دون سبب معلوم، لذلك وقع في حيرة من أمره، ودخلت بعض الشكوك إلى قلبه، وخاف أن يكون من جانب السلطان، وكلف علي بن نجا لتأكيد الأمر، وبدأ بكشف المؤامرة، وحال كشف ذلك، أمره القاضي أن يقوم فوراً باطلاع السلطان ففعل[(٦)].

بعد إجراء المحاكمات اصدر القضاء حكمهم بإعدامهم إذ ان حكم الخائن في الشرع هو الإعدام لذا أمر بصلبهم، وكان بين القاضي وعمارة عداوة قديمة منذ أيام العاضد، وعندما رأى عمارة أن القاضي يتحدث مع السلطان قال له يا مولانا لا تسمع منه، فقال له السلطان إنه أراد أن يشفع فيك،

---

(١) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص٩٣.المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢، ص٣٨٢.

(٢) عمارة اليمني: تاريخ اليمن، ص٤٢" المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢، ص٣٨٢.

(٣) ورد رجل الأمن باسم (صاحب الخبر)، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ق٢ ص٧٣٥.

(٤) ابن واصل:مفرج الكروب، ج٢ ص٤٧٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص١٢٣. العسلي: فن الحرب الإسلامي، ص١٠٠.

(٦) أبو شامة: ذيل الروضتين، ص٣٤. الدواداري: كنز الدرر: ج٧ ص٥٦٨. الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨٠. ابن كثير: البداية و النهاية ج١٢ص٢١٥. المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢ ص٣٧٥.

فندم ولما أخذ للصلب أراد أن يجتازوا به على القاضي، فأغلق بابه ولم يسمع منه فقال عمارة في ذلك شعراً،قائلاً:

عبـــــدالرحيم قـــد احتجـــب   إن الخـــلاص هـــو العجـــب[1]

وعندما أحضر إلى الخشب قيل له: "أنت اشتهيت هذا ودعوت الله وقد استجاب دعوتك، وقضى شهوتك في الاجتماع بأحبابك حين تقول":

يا رب إن كان لي في وصلهم طمع   عجـــل علـــي فلتـــأخير آفـــات[2]

بدأت السلطات الأيوبية بصلب كل من عمارة والعوريس وعبد الصمد وداعي الدعاة ابن عبد القوي في الثاني شهر رمضان سنة ٥٦٩/ ١١٧٤، وكان الأخير منهم عارفاً بخبايا القصر وأسراره، فلم يتم كشف أي سرمن أسرار القصر فدفنت معه[3].

إن الضرورات الأمنية تقتضي أن يطلع أكبر عدد ممكن من الناس على صلبهم، حتى يكون ذلك عبرة لمن يعتبر، وإجراء وقائياً وردعاً قوياً لكل من تسول نفسه أن يتآمر على أمن الدولة ويجلب العدو إلى البلاد، وتم الاستيلاء على أموالهم وأملاكهم، دون أن يتمكن الورثة من توريثها[4]، ومن ثم بدأت الدولة بخطوة أمنية أخرى حفظاً على سلامة القاهرة وأمنها بترحيل كافة الأجناد وحاشية القصر والسودان إلى أقصى بلاد الصعيد، وألقي القبض على داود الذي لقبه أنصاره بالحامد لله سنة ٥٦٩/ ١١٧٤، ووضع علامة على السودان المشاركين بكيهم في الوجه والصدر[5]، ليكونوا بينين بين الجمع حتى لا يعول عليه مرة أخرى في عمل من أعمال الدولة.

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص ١٢٤. المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢ ص٣٧٧.

(٢) المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢، ص٣٨٣.

(٣) ابن كثير: البداية و النهاية، ج١ ص ص ٢١٥-٢١٦. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨٣. البنداري: سناء البرق الشامي، ق١، ص١٤٧-١٤٨. سيد الأهل: صلاح الدين، ص٩٢-٩٣.

(٤) المقريزي: درر العقود الفريدة، ق٢، ص٣٨٣.

(٥) المقريزي: السلوك: ج١ ق١، ص ص ٥٣-٥٤.

إن مؤامرة عمارة دفعت السلطات الأيوبية إلى الإكثار من عيونها و جواسيسها ورصد أنصار الدولة الفاطمية في كل المدن والأقاليم في ديار مصر، إذ تم القبض على رجل يدعى القديد، وضبط بحوزته كتب ووثائق أثبتت ادعائه إلى الكفر، ومالت إليه جماعة[1].

أما فيما يتعلق بالمشاركين من أمراء صلاح الدين فمن عادة السلطان ان لا يظهر كانه علم بذلك، ولم يتعرض لهم[2]، أما فرنج البحر فإنهم لم يعلموا بكشف المؤامرة فهاجموا الأسكندرية، أما الفرنج الشامي فإنهم علموا بكشف المؤامرة فلم يتحركوا[3].

رابعاً: حركات التمرد

أولاً: تمرد ابن المجير سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م

ظهر في الصعيد أحد معارضي صلاح الدين اسمه المجير، واجتمع إليه خلق كثير فأرسل إليه صلاح الدين جيشاًفاصطدم الطرفان في معركة دامية نتج عنها انهزامهم و قتل المجير و عدد من جماعته[4].

ثانياً: تمرد كنز الدولة ٥٧٠هـ/١١٧٤م[5]:

يبدو أن أنصار الدولة الفاطمية لم يتعظوا من هزيمة السودان وما أصابهم من ويلات من جراء غرورهم وغطرستهم، فبدأ الكنز أيضاً بجمع أشتات السودان الهاربين الى أسوان وقوص، إذ كان والياً على أسوان، وانضم إليهم كثير من الأعراب، وتوجهوا نحو القاهرة، بعد أن قتلوا عدداً من أمراء

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢ ص ٤٧٩. المقريزي: السلوك، ص٥٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص ١٢٤. العسلي: فن الحرب الإسلامي، ص١٠٠.

(٣) ابن الأثير: م.ن ج٩ ص ١٢٤. بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٢١٣ نقلاً عن Stevenson p. 203.

(٤) العمري: مسالك الأبصار، ٢٧/ ٦٣. الحموي: تاريخ المنصوري، ص١٨١.

(٥) اسمه كنز فقط، وهو مصري من الصعيد، اتجه إلى أسوان بعد تشريد العبيد، وقادهم بغية إعادة الدولة الفاطمية بعد قتل المؤتمن. (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٥٦، المقريزي: السلوك،ج١ ق١ ص٥٠). وهو زعيم ربيعة، وجاءت هذه التسمية عندما تمكن زعيم ربيعة القبض على الثائر ابي ركوة في الصعيد أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي، ومنح هذا اللقلب وتوارث أبنائه ذلك اللقب، وبقي الإمارة بينهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة. لذلك كان الأيوبيون على عداوة معهم لتشجيعهم للفاطميين. (المقريزي: البيان و الإعراب،ص ص١٢٤-١٢٥).

صلاح الدين[1]. و على أثر ذلك أرسل إليهم صلاح الدين الأمير شجاع البعلبكي فقصد أسوان، فتركها العبيد عندما سمعوا بنبأ مجيئه وتبعهم وأوقع بهم عدداً كبيراً من القتلى وعاد إلى القاهرة[2].

لقد أعاد الكرة ثانية وسار إلى القاهرة ومعه مائة ألف مقاتل فأرسل إليه صلاح الدين أخوه الملك العادل[3]، فلقيه في أسوان التي إعتصم فيها كنز، ورافقه أبو الهيجاء الهكاري الذي قتل كنز الدولة أخاه[4] وكذلك عز الدين موسك[5]، فانهزم كنز الدولة أمام العادل سنة ٥٧٠/ ثم قتل فاستقر الوضع للعادل[6].

كان الأعراب في ديار مصر مصدر قلق للأيوبيين، إذ كانوا بين فترة وأخرى يرسلون إليها الجيوش لمعاقبة المتمردين وتأديبهم، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م أغار شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين على الأعراب بالصعيد لكثرة فسادهم وخرقهم للأمن في البلاد إلى أن أجبروا على الكف عن ذلك[7]. وكذلك في سنة ٥٦٨ توجه تورانشاه إلى النوبة وفتح قلعة أبريم[8]، وعاد إلى أسوان وأناط أمر القلعة إلى إبراهيم الكوردي لتصبح مركزاً عسكرياً لمراقبة إقليم النوبة ومعاقبة متمرديها[9]. ويبدو أن النوبة بحكم بعدها عن القاهرة اتخذت قاعدة للمعارضين، لذلك كان الأيوبيون يشنون عليها الهجمات لمعاقبتهم بين حين وآخر[10].

ثالثاً: تمرد العباس بن شادي:٥٧٠هـ/ ١١٧٤م

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص١٣٠" الدواداري: كنز الدرر: ج٧، ص٥٨" ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٢٤، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٥٧" بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٢١٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٥٠" بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٢١٥.

(٣) الذهبي: دول الإسلام، ج٢،ص٧٩، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٨٣.

(٤) البنداري: سناء البرق، ق١، ص١٧٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦، ص٢٤، العسلي: فن الحرب الإسلامي، مج٤، ص١٠٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٨.

(٦) ابن تغري بردي: م. ن، ج٦، ص٢٤.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ص١١٠-١١١.

(٨) ابن الأثير: م. ن، ج٩، ص١٨٧

(٩) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٥٠.

(١٠) ابو شامة: الروضتين ج١ ص ص٢٠٨-٢٠٩.

يبدو أن العباس قد استغل انشغال الأيوبيين بتمرد الكنز، وبدأ من قرية طود وسيطر على قوص ونهبها، وتولى الملك العادل قيادة الجيش المرسل إليه ورافقه الخطير مهذب بن مماتي، فاصطدموا بالعباس وشتتوا جمعه[1]، وقتل في قوص كما قتل الكنز في قوص، يبدو أنهم حاولوا توحيد صفوفهم ضد الملك العادل غير انّ الأخير تمكن من هزيمة كلا الحركتين في آن واحد وذلك في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م[2].

رابعاً: تمرد جلدك الشهابي ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م.

فقد الفاطميين الأمل في استعادة دولتهم ومجدهم السابق إذ تخلوا منذ العام ٥٧٢هـ/١١٧٦م عن فكرتهم هذه[3]، وعلى الرغم من تناول المصادر التاريخية تمردات أخرى حدثت بعد التاريخ المذكور لكن يبدو أنها كانت صغيرة وغير منتظمة، فمثلاً في ٥٧٥هـ/١١٧٩م تمرد جلدك الشهابي بالواحات، ثم ما لبث أن منحه العادل الفرصة ليسلم نفسه ففعل وسيره إلى دمشق وأمن حياته[4].

وكذلك في سنة ٥٨٤هـ/١١٩١م خرج إثنا عشر رجلاً من أنصار النظام السابق ليلاً إلى الدروب والشوارع في القاهرة ونادوا: (يا آل علي.. يا آل علي) على أمل أن يشاركهم الآخرون، لإعادة مجد الدولة الفاطمية، إلا أن أحداً لم يستجب لهم، فعادوا أدراجهم خائبين[5]. وهكذا كان المشاغبون يستغلون أقل الفرص للإخلال بالأمن في القاهرة ففي وقت قيام هؤلاء بدعوتهم هذه، كان السلطان مشغولاً

(١) المقريزي: م. ن، ج١، ق١، ص٥٧" بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٢١٥.

(٢) ابن كثير: البداية و النهاية، ج١٢ ص٢٢٤ كازانوفا: تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ص٢٠. في الحقيقة إن دعاة الشيعة لم يتوقفوا عن الدعوة لمذهبهم ومحاولة إعادة دولتهم، رغم المتابعة المستمرة من قبل الأجهزة الأمنية الأيوبية، حيث مارسوا نشاطهم بشكل مكثف في بلاد الصعيد، لكنهم عندما رأوا ضيق الظرف قامت دعوتهم في بلاد المغرب، تدعو لأمير أحفاد العاضد، ولو لا يقظة وحذر صلاح الدين وأجهزته الأمنية لشكلوا خطراً كبيراً عليه. بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص١٩٠.

(٣) كازانوفا: تاريخ و وصف قلعة القاهرة، ص٢٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ق١ ص٦٩.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٦، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٠١، سيد الأهل: أيام صلاح الدين، ص٩٣.

بحصار صفر، فانزعج كثيراً عن سماعه النبأ وطرد مجموعة من وفود المصريين عن بابه، ثم تمكن القاضي الفاضل من تهدئته[1].

خامساً: تمرد عرب سليم بالجيزة سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م

كما تمرد عرب سليم بالجيزة فوجه إليهم السلطان الأمير أبا الهيجاء، وكانوا أكثر من ستين ألف في حين كان أبو الهيجاء في ألفي فارس فانتصروا عليهم، وحصلوا على أموال جمة حتى بيعت كل خمسة جمال بدينار واحد، وكل خمسين رأس غنم بدينار[2]، يبدو عنصر المبالغة ظاهرة في هذه الأحداث لذلك من الصعوبة بمكان الاعتماد على هذه الأرقام.

تناول الدواداري هذه الأحداث في حوادث ٥٨٧هـ/١١٩١م وكان ذلك على يد رجل منجم اسمه ابن السنباطي، أقنع عدداً من السودان والمغاربة يقال لهم المصامدة وقال لهم: "أنتم تملكو الديار المصرية في الليلة الفلانية بعد المغرب" واجتمعوا جميعاً في حارة الهلالية وشربوا المزور إلى ما بعد العشاء ثم فتحوا باب زويلة وأخذوا من العدد ما قدروا عليه، ثم توجهوا إلى خزانة البنود لإخراج السجناء منها وتقوية جبهتهم أكثر وهم يصيحون (يا آل علي) وتوجهوا إلى السيوفين، وكسروا الدكاكين، ونهبوا الأموال والعدد، فواجههم الأمير بدر الدين بن موسك بقواته و تمكن من إلقاء القبض على الجميع، وكان بينهم المنجم نفسه فقتلوا جميعاً[3].

سادساً: تمرد حصن الدين ثعلب – ذروة سريام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م :

كان مقام حصن الدين وقصوره في ذروة سريام[4]، وقد تمردة هناك على السلطة وخرج عليها وملك الصعيد، ولم يتمكن منه ملوك مصر، وأمن أيام المعز آيبك، ومن بعده فلم يظفر بشيء يذكر[5].

رفض عربان مصر حكم المعز آيبك، لأنه مملوك من جملة المماليك البحرية وقد مسه الرق فاجتمعوا وأقاموا الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير نجم الدين الثعلبي الجعفري سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، فحاربهم الأتراك وألقوا القبض على الشريف[1].

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٦.

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٦٩. يبدو ان الدواداري قد بالغ بالأرقام.

(٣) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص ص١٠٩-١١٠.

(٤)حالياً احدى مراكز مديرية اسيوط (المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٨٧، هامش (١).

(٥) العمري: المصطلح الشريف، ص٢٤٣.

بدأت حركة المقاومة في بداية عصر المماليك البحرية، حيث قاموا بحركة واسعة ببلاد الصعيد وأرض الوجه البحري، وقال الشريف: "نحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من جمع الخراج، وصرح بأنهم أحق من المماليك"[2] واجتمعوا إلى الأمير حصن الدين وهم في كثرة من المال والرجال بناحية ديروط وحلفوا لهم كلهم فبلغوا اثنا عشر ألف فارس، مع عدد كبير من الرجالة لا يكاد يحصى[3]،- ويبدو أن السلطان صلاح الدين قد استفاد من بني ثعلبة لذلك نرى أنه منحهم بعض الاقطاعات من بلاد جذام، وهذا يدل على تقربه من بني ثعلبة وكسر شوكة الجذام في نفس الوقت- أرسل المعز فارس الدين أقطاي لقمع هذا التمرد، ودارت رحى معارك طاحنة بين الطرفين بالقرب من ديروط، وتبين لحصن الدين أن من مصلحته طلب الأمان، فأمنه واستدعاه وحال وصوله إلى معسكره ألقى القبض عليه، و على جماعته جميعاً وكان معظمهم من كبار الأمراء، أما حصن الدين فقد سجن في الاسكندرية[4]، و تبدد شملهم و خمدت جمرتهم من حينئذ[5]. وكان العرب يرددون باستمرار بأنهم أصحاب البلاد وأحق من غيرهم بالحكم وكانوا يقولون: "نحن أصحاب البلاد، إنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد" [6].

(١) المقريزي: البيان و الأعراب، ص ص٩-١٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٨٦.

(٣) المقريزي: البيان و الأعراب، ص ص١١٢-١١٣.

(٤) المقريزي: م ن ص، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ص١٥٥.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢ ص٣٨٧.

(٦) الشيال: م. ن، ص١٥٥.

الخاتمة

جرت العادة أن يذكر كل باحث في نهاية أطروحته أهم النتائج التي توصل إليها من خلال بحثه، ويمكن أن ألخص هنا أهم تلك النتائج بنقاط وكالآتي:

١- تبنت الدولة الفاطمية التشيع مذهباً لها، وأرادت أن تنشرها في الأقاليم الإسلامية كافة، لذا احتاجت إلى الكثير من الرجال والأموال، بغية تحقيق أهدافها، وفي الوقت نفسه استلزمت الظروف منها إيجاد جهاز أمني قادر على تحقيق أهدافها، ولم يدخر وسعاً في الحفاظ على كيانها وأمنها بكل الطرق والأساليب المتاحة.

٢- تعاظمت هذه الدولة، لاسيما في عهد خلفائها العظام، أمثال المعز والعزيز وغيرها، ولكنها ما لبثت أن أصابتها الضعف مما أفقدتها الأمن والاستقرار، وكان السبب الرئيسي لذلك هو النزاعات الداخلية التي حدثت بين وزرائها، ومن ثم سبباً رئيسياً لتدخل القوى الصليبية في شؤونها الداخلية، وإضعاف هيبتها، واستطاعت أن تستقطع من أملاكها مساحات شاسعة.

٣- إن استغاثة الخليفة العاضد بقوات نور الدين زنكي كانت تمثل ذروة ما وصلت إليها من تدهور في أوضاعها الأمنية، إذ أصبحت في وضع لا يحسد عليه.

٤- إن تولي كل من شيركو وصلاح الدين منصب الوزارة في الدولة الفاطمية يعد بداية جيدة لاستعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع هذه الدولة على حساب ذهاب هيبتها وتضعيف مذهبيتها مما آل إلى الزوال الكامل بعد إلغاء الخلافة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م.

٥- شعر الأيوبيون أن وجود مذهبين مختلفين من حيث العقيدة هما المذهب الشيعي والسني في الإسلام -وخاصة في مكان واحد- لا يخدم أهدافها، بل يعمل على شق وحدة الصف، ثم ضعفه، ومهما كان قوياً، لذا عمل الأيوبيون وبجد -ومنذ بداية تسلمهم الحكم في القاهرة- على إعطاء هذا الموضوع أهمية كبيرة فعملوا على التقليل من حدته عن طريق إلغاء الخلافة الشيعية وجعل مذهبهم السني بديلاً عنه، وقد لاقى عمل الأيوبيين هذا ارتياحاً لدى الخلافة العباسية في بغداد لأنه كان حلماً من أحلامها فسارعوا إلى تشجيعهم ودعمهم ومساعدتهم بسبب ذلك.

٦- تفهم الأيوبيون روح العصر ومتطلباته، إذ عرفوا كيف يتعاملون مع الأمور مع كل ظرف جديد، فرصدوا بسبب ذلك كثيراً من القدرات المادية والبشرية، وشجعوا على الجهاد وكذلك الفروسية،

التي أصبحت شرفاً في نظرهم لكل من ينخرط فيها، وبذلك نجحوا في ترسيخ أقدامهم، وتقوية سلطانهم، وبسط نفوذهم.

٧- استفاد الأيوبيون من الثروات الكبيرة لديار مصر واستطاعوا أن يوظفوا جلها في إقامة المشاريع الأمنية التي خدمت الجميع وفي مقدمتها السلطة الحاكمة، وتمثل الاستحكامات الأمنية في القاهرة أحد الأمثلة البارزة على تلك المشاريع المهمة التي أثبتت جدارتها، وأهميتها في حفظ الأمن كثيراً.

٨- كان لتكامل الأسرة الأيوبية في نفسها وتنوع رجالها من القادة والساسة والعلماء دور كبير ومهم، أضفى على هذه الأسرة وحكمها سمة القوة والمتانة مما ساعدها على بسط سيطرتها على الحكم، ومجابهة جميع التحديات الخارجية والداخلية من حيث وجود كوادر مختلفة جيدة من أبناء هذه الأسرة من الساسة، والقادة، والإداريين، وعلماء الدين، ورجال العلم والأدب.

٩- أظهر الأيوبيون في تعاملهم مع الشعوب التي خضعت لهم جانباً من التساهل والتسامح مما كان دافعاً إلى وقوف أكثر أفراد هذه الشعوب مؤيدين ومساندين للسلطة الأيوبية ولم يبخلوا لذلك بتقديم كل قدراتهم وكفاءاتهم لهذه الأسرة الحاكمة... لما أحسوا وشعروا به في ظلالها بالأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي حتى أصبحت القاهرة ملجأ لكل من لا يجد الأمن أو لقمة العيش في بلاده.

١٠- اهتم الأيوبيون بإيجاد أجهزة أمنية خاصة لأنفسهم عملت على خدمتهم وحمايتهم من المخاطر التي كانت تزداد يوماً بعد يوم فضلاً عن الأجهزة الأمنية العامة.

١١- اكتمن سر قوة الأيوبيون واستيلائهم على الحكم في بداية نشأتهم، إلى وحدة صفهم وكلمتهم وإخلاصهم في خدمة الإسلام، ما كان له أثره في تحقيق انتصارات عديدة في كافة الميادين سواء على الصعيد الخارجي أو الداخلي، في تأسيس مملكة قوية مترامية الأطراف، ثم ما لبث أن اعتراهم الضعف اثر الأنشقاق الأسري مما كان له أكبر الأثر في إضعافهم.

١٢- لم يفوت الأيوبيون محاولة الاستفادة من كل القدرات المتميزة والكفوءة في خدمة وإدارة دولتهم طالما تطلبت المصالح العامة والخاصة ذلك... إذا اعتمدوا على كل كفاءة مخلصة رأوها تخدم أهدافهم غاضين الطرف عن انتمائها المذهبي أو الديني أو القومي، إذا ما تقبلوا الوضع الجديد وأخلصوا له.

١٣- إن المصالح التجارية بين الأطراف المتحاربة لم تتوقف على الرغم من حدة الصراع وضراوته بين المتحاربين بل بقيت جارية على قدم وساق، ولعل هذا يدل على الانفتاح الفكري، والعقلية الكبيرة للذين كانوا يدبرون الأمور، لانتعاش الحياة ولإدامة عملية الحرب.

١٤- إغفال الطرفين المتحاربين -غير مرة- مسألة تطبيق الشريعة، وخاصة في حكم الأسير، فالمسيحية والإسلام يحرمّان قتل الأسرى، ولكن نلاحظ -أنه وفي كثير من الأحيان- لم يؤخذ بها وأصبحت مسألة هامشية، طبقت على الفقراء من الناس إذ قتل الكثير منهم في الأسر ونجا منها الأمراء والقادة الذين تمكنوا من التخلص من الأسر والقتل بدفع الفدية أو الأموال.

١٥- لم يشكل الأيوبيون في ديار مصر إلا نسبة ضئيلة من السكان لذا فإنهم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بالسلطة لمدة أطول.

١٦- إن ارتباط الأيوبيين بديار مصر لم يكن له جذور تاريخية، حيث كانوا غرباء عنها، ومن البديهي إن الكيانات التي تنشأ على أرض الآخرين لا يكتب لها النجاح إلا لأمد محدد.

ثبت المصادر والمراجـــع

- المخطوطات

الباكـوي: عبد الرشيد صالح بن نوري (٨٣٦هـ/١٤٣٢م)

١- تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، الترجمة والتعليق: د. ضياء الدين بن موسى بوتيباتوف، دار نشر العلم، إدارة التحريرة الرئيسية السوفيتية للآداب، موسكو ١٩٧١م. مخطوطة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم ٣٠٠/٣٥٠٣.

زين الدين، الفقيه الإمام:

٢- تحفة الملوك والسلاطين: مخطوطة رقم ٢٩٦٣٠ في دار صدام للمخطوطات، بغداد، دون عنوان.

العمـري: القاضي فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

٣- مسالك الأبصار وممالك الأمصار: يصدره فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين خيوصون، معهد العلوم العربية الإسلامية، طبعة استانبول، طبع بالتصوير من مخطوطة ٢/٢٧٩٧/ص، أحمد الثالث، طوبقا بوسراب، استانبول، ج٣، ج٢٧، والمخطوطة موجودة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم ٣٠٠/٢٩٠.

مجهـــول:

٤- مخطوطة تاريخية عن الدولة الأيوبية وغيرها، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة الأوقاف بالموصل. برقم ١٧/١ زيواني.

- المصادر القديمة :

١- القرآن الكريم

ابن أبي أصيبعة: أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم، (ت ٦٦٧هـ/١٢٦٩م).

٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت).

ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

٣- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار المكتبة الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م.

٤- الكامل في التاريخ، تحقيق نخبة من العلماء، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

٥- اللباب في تهذيب الأنساب: أعيد طبعه بالأوفسيت، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ت).

ابن الأزرق: أبو عبد الله (ت ٨٩٦هـ/١٤٩٠م)

٦- بدائع السلك في طبائع الملك، سلسلة تصنيف وتبويب المراجع الفكرية، بيت الحكمة، تصنيف وتبويب: د. محمد جاسم الحديثي، مراجعة وتقديم، أ. د. صباح الشيخلي، بغداد، ٢٠٠٠م.

أسامة بن منقذ: (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)

٧- الاعتبار، تحرير، فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون، أعيد طبعه بالأوفسيت، بغداد، ١٩٨١.

الأسنوي: عبد الرحيم جمال الدين: (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م).

٨- طبقات الشافعية، إخراج كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

الأصطخري: أبو إسحاق محمد بن إبراهيم الفارسي المعروف بالكرخي (ت ٣٤١هـ/٩٥٢م).

٩- مسالك الممالك، تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، القاهرة، ١٩٦١.

الأنطاكي: يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)

١٠- تاريخ الأنطاكي وهو ذيل لكتاب الجوهر لابن البطريق من سنة (٣٢٦-٤٢٥هـ) - Kart Chrovskyet - Avasiliev

ابن أياس: محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)

١١- تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٥.

البخاري: محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)

١٢- صحيح البخاري بشرح الكرماني، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨١.

البدليسي: الأمير شرفخان بن شمس الدين بن شرفخان البدليسي (١٠١٠هـ/١٦٠١م)

١٣- الشرفنامه: ج١، نقله إلى العربية وعلق عليه: ملا جميل بندي روزبياني، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٣.

ابن بسام: محمد بن أحمد، من أعيان القرن التاسع الهجري.

١٤- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، حققه وعلق عليه: حسام الدين السادات، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

١٥- رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د. ت).

البغدادي: عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

١٦- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت، ١٩٧٧.

البغدادي: عبد اللطيف (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)

١٧- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، دراسة وتحقيق: د. علي محسن عيسى مال الله، منشورات دار الحكمة للنشر والترجمة والتوزيع، بغداد، ١٩٨٧.

البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)

١٨- فتوح البلدان، إشراف: لجنة تحقيق التراث، ط١، لجنة تحقيق التراث، بيروت، ١٩٨٣.

البنداري: الفتح بن علي الأصفهاني (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٥م)

١٩- مختصر البرق الشامي، تحقيق: رمضان ششن، القسم الأول، ط١، بيروت، ١٩٧١.

ابن تغري بردي: جمال الدين المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

٢٠- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطبع، القاهرة، ١٩٦٣.

٢١- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ط١، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٥٦.

ابن تيمية: أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)

٢٢- الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية، تحقيق: صلاح عزام، مطبوعات الشعب، (د. ت)، (د. م).

الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٦هـ/٨٦٨م)

٢٣ الحيوان، بيروت، ١٩٨٨.

ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)

٢٤- رحلة ابن جبير، ط٢، طبعة جديدة ومنقحة بإشراف، لجنة تحقيق التراث، بيروت، ١٩٨.

ابن الجزري: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

٢٥- المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى: حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، ط١، دراسة وتحقيق: خضير عباس محمد خليفة المنشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٨.

الجرجاني: علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)

٢٦- كتاب التعريفات: ط٢، حققه وقدم له ووضع فهارسه: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦.

ابن جماعة الحموي: بدر الدين بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

٢٧- مستند الأجناد في آلات الجهاد ومختصر في فضل الجهاد. تحقيق وشرح: أسامة ناصر النقشبندي، منشورات وزارة الثقافة ، بغداد، ١٩٨٣.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

٢٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد -الدكن، ١٣٥٨هـ.

الجوهري: اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٢م)

٢٩- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠.

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٢م)

٣٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الندوة الجديدة، ١٣١٧هـ، القاهرة.

الحسيني: صدر الدين علي بن ناصر (٦٢٣هـ/١٢٢٥م)

٣١- زبدة التواريخ المسمى (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية)، ط٢، تحقيق: محمد نور الدين، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ١٩٨٦.

الحموي: أبو الفضائل محمد بن علي (ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م)

٣٢- تاريخ المنصوري المسمى (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) عني بنشره ووضع فهارسه: البطرس غرياز نيويج، دار النشر للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٠.

الحميري: محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)

٣٣- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت، ١٩٨٠.

الحنبلي: أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ/١٤١٧م)

٣٤- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩.

الحنبلي: مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م)

٣٥- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، ٢، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف، ١٩٦٨.

ابن حوقل: أبو القاسم بن حوقل النصيبي: (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)

٣٦- صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.

خسرو ناصر: أبو معين ناصر الدين القبادياني (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م)

٣٧- سفرنامة، ط٢، نقلها إلى العربية، يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠.

ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)

٣٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

٣٩- المقدمة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).

ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٤٠- وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

الخوارزمي: الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)

٤١- مفاتيح العلوم، إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة الشرق، نشر لأول مرة، القاهرة، ١٣٤٢هـ.

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

٤٢- الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأوقاف الجديدة، بيروت، ١٨٩٣.

٤٣- الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، ط١، ج٢، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٥.

الدواداري: أبو بكر عبد الله بن إيبك (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م)

٤٤- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس، المسمي: (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١.

٤٥- الجزء السابع، (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب)، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢.

٤٦- الجزء الثامن (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/١٤٠٦م)

٤٧- العبر في خبر من غبر، ط١، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.

٤٨- تاريخ الإسلام، وفيات المشاهير والأعلام (حوادث وفيات، ٥٩١-٦٠٠هـ)، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٩٧.

٤٩- دول الإسلام، تحقيق: فهيم محمد شلتون ومصطفى إبراهيم، القاهرة، ١٩٧٤.

الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م)

٥٠- مختار الصحاح، الناشر: دار الرسالة، كويت، ١٩٨٣.

الراغب الأصفهاني: (ت ٤٢٥هـ/١٠٣٢م)

٥١- مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط١، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦.

الروذراوري: أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)

٥٢- ذيل تجارب الأمم، مطبعة شركة التمدن الصناعية، مصر، ١٩١٦.

الرهاوي المجهول في حدود (٦٢٣هـ/١٢٣٤م)

٥٣- تاريخ الرهاوي المجهول، تعريب: ألبير أبونا، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٨٦م.

الزبيدي: محمد بن محمد الملقب بمرتضى (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)

٥٤- ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧٠.

٥٥- تاج العروس، الناشر: دار ليبيا للتوزيع، بنغازي، (د. ت)

ابن الساعي: أبو طالب علي بن أنجب تارج الدين (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)

٥٦- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج٩، التصحيح وتعليق الحواشي والفهارس، د. مصطفى جواد، بنفقة من الأب أنستاس ماري الكرملي، مطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٩٣٤.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)

٥٧- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ج٨، ق١-٢، حيدر آباد، الدكن، ١٩٥١.

السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)

٥٨- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية، بيروت، (د. ت).

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

٥٩- الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، طبعة مصورة الناشر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.

ابن سعيد: علي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

٦٠- النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلي المغرب، تحقيق: حسين نصار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر محمد (٩١١هـ/١٥٠٥م)

٦١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، اختيار: محمد محمود صبح، مراجعة: أحمد أحمد بدوي، القاهرة، (د. ت).

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)

٦٢ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤.

٦٣- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، حققه: أحمد البسيوني، دمشق، ١٩٩٢.

٦٤- الذيل على الروضتين المسمي (تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين)، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤.

ابن شاهنشاه: محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (٦١٧هـ/١٢٢٠م)

٦٥- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٨.

ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع الأسدي (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)

٦٦- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، اختار النصوص: محمد درويش، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٩.

ابن شداد: عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)

٦٧- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبادة، مطبعة وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٨.

ابن الشعار: كمال الدين أبي البركات المبارك (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)

٦٨ قلائد الجمان في فرائد شعراء الزمان المشهور بـ(عقود الجمان في شعراء هذا الزمان)، ط١، تحقيق: نوري حمودي القيسي ومحمد نايف الدليمي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٢.

شيخ الربوة: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

٦٩- كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط٢، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبيد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (٥٤٨هـ-١١٥٣م)

٧٠- الملل والنحل، الاعتناء والتعليق: أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٩٤.

الشيزري: عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)

٧١- المنهج المسلوك في سياسة الملوك، ط١، تحقيق ودراسة على عبد الله الرسي مكتبة المنار، الأردن ١٩٨٧م.

الصابي: أبو الحسن هلال بن الحسن: (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م)

٧٢- رسوم دار الخلافة، التحقيق والتعليق: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤.

الصفدي: صلاح الدين خليل ابن إيبك، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)

٧٣- الوافي بالوفيات، ط١، تحقيق واعتناء: احمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)

٧٤- تاريخ الرسل والملوك، ط٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

٧٥- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط١، حققه وضبط شرحه: عبد القادر محمد مايو، مراجعة: أحمد عبد الله فرهود، دار القلم العربي، حلب ١٩٩٧.

الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٧م)

٧٦- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه، بولس راوس، باريس ١٨٩٤م.

ابن ظهيرة: جار الله جمال الدين محمد بن نور الدين (ت ٩٨٦هـ/١٥٧٨م)

٧٧- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: مصطفى السقا وكامل المهندس، مطبوعات دار الكتب، القاهرة ١٩٦٩.

ابن العبري: أبو الفرج ابن أهرون غريغوريوس الملطي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)

٧٨- مختصر تاريخ الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد القيناني، بيروت، ١٩٨٣.

٧٩- تاريخ الزمان: نقله إلى العربية، الأب إسحق أرملة، قدم له: الأب د. جان موريس فييه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.

ابن عبد الظاهر: محي الدين (ت ٦٨٩هـ)

٨٠- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ط١، حققه: د. مراد كامل، راجعه: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١.

ابن عبد الحق: صفي الدين عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

٨١- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: محمد البيجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٥.

ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)

٨٢- زبدة الحلب من تاريخ حلب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.

العماد الأصفهاني: ابن عبد الله الكاتب (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

٨٣- البرق الشامي، ط١، تحقيق وتقديم: د. مصطفى الحيارى، عمان، ١٩٨٧.

٨٤- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٥.

ابن عماد الحنبلي: أبي الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

٨٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

عمارة اليمني: أبو محمد نجم الدين (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م)

٨٦- النكت العصرية، ط٢، مكتبة مدبولي، تصحيح: هرتزيغ درنبرغ، القاهرة،١٩٩١.

٨٧- المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، المعروف (بتاريخ اليمن)، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الموالي، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، ١٩٨٤.

العمري: القاضي فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٨٨- التعريف بالمصطلح الشريف، ط١، عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.

العيني: بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

٨٩- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهمي شلتوت، القاهرة، ١٩٦٧.

٩٠- عقود الجمان في تواريخ أهل الزمان، أحداث (٦٤٠-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م)، حققه ووضع حواشيه: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

الغساني: الملك الأشرف اسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)

٩١- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ج١، ج٢، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، أخرجه: علي الخاقاني، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٧٥.

ابن فارس: أبي الحسن أحمد (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)

٩٢- معجم مقاييس اللغة، طبعة أولى جديدة مصححة وملونة، دار احياء التراث، اعتنى به: د. محمد عوض مرعب، الآنسة: فاطمة أحمد أصلان، بيروت ٢٠٠١.

أبو الفدا: عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (٧٣٢هـ/١٣٣١م)

٩٣- المختصر في أخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، (د. ت).

٩٤- تقويم البلدان، أعادت طبعة بالأوفسيت، بغداد (د. ت).

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)

٩٥- تاريخ ابن الفرات، عنى بتحرير نصه ونشره، د. حسن محمد الشماع، مج٤، ج٢، ساعدت جامعة البصرة على طبعه، البصرة ١٩٦٩. مج٥، ج١، دار الطباعة، البصرة ١٩٧٠.

ابن الفوطي: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق أحمد (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)

٩٦- مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر الإسلامية، (طهران، ١٤١٦هـ).

الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٧٢٩هـ/١٣١٨م)

٩٧- القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

الفيومي: أحمد بن علي المغربي (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٧م)

٩٨- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، دار القلم، بيروت (د. ت)

ابن قاضي شهبة: (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

٩٩- الكواكب الدرية في السيرة النورية، ط١، تحقيق: د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

القاضي نعمان: (ت ٤١٦هـ/١٠٢٥م)

١٠٠- كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحان الدشراوي، تونس، ١٩٧٥.

القرطبي: عريب بن سعد (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م)

١٠١- صلة تاريخ الطبري، ط٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).

القرماني: أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)

١٠٢- كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، ١٩٧٥.

القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)

١٠٣- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.

القفطي: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)

١٠٤- تاريخ الحكماء، مختصر الأزرقي، المسمي (المنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء)، مؤسسة خانجي بمصر، القاهرة (د. ت).

ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٥٩م)

١٠٥- ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: أمدروز، مطبعة الآباء اليسوعية، بيروت، ١٩٠٨.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

١٠٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط١، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

١٠٧- مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ط١، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، بيروت ١٩٦٤، أعيد طبعه بالأوفسيت، في ١٩٨٠م.

الكتبي: محمد بن أحمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)

١٠٨- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.

١٠٩- عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد للنشر، سلسلة كتب التراث، (٩٠)، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا اسماعيل الدمشقي (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

١١٠- البداية والنهاية، قدم له: محمد عبد الرحمن المرعشلي، حقق النصوص وعلق عليه مكتب التحقيق، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥.

الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

١١١- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٦.

مجهول: من القرن السادس الهجري:

١١٢- الاستبصار في عجائب الأمصار، مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد (د. م)، ١٩٨٦.

المسبحي: محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م)

١١٣- أخبار مصر في سنتين ٤١٤-٤١٥هـ، تحقيق: وليم ج ميلور الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.

ابن المستوفي: شرف الدين أبو البركات بن أحمد الأربلي (ت ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)

١١٤- نباهة البلد الخامل ممن ورد من الأماثل والمشهور بـ(تاريخ أربل)، تحقيق: سامي الصفار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٤٦م)

١١٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، شرح وتقديم: د. مفيد محمد قميحة، (د. م)، ١٩٨٦.

مسلم: مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م)

١١٦- صحيح مسلم، ج٤، طبعة الباب الحلبي، القاهرة، (د. ت)، باب فضائل الصحابة.

المقريزي: أحمد بن علي عبد القادر (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

١١٧- أتعاظ الحنفا بأخبار أئمة الفاطميين الخلفا، ج١، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧.

١١٨- ج٢، ج٣، تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، أشرف على إصدارها، محمد توفيق عويضة، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٣.

١١٩- السلوك لمعرفة دول والملوك، ط٢ منقحة، ج١، ق١ وق٢، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧.

١٢٠- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بخطط المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت).

١٢١- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، قطعة منه، ق٢، حققه: د. عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥.

١٢٢- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، ط١، تحقيق وتأليف د. عبد الحميد عابدين، الناشر عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦١.

١٢٣- إغاثة الأمة بكشف الغمة، كتاب الهلال، سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال، تقديم د. سعيد عبد الفتاح عاشور (د. م)، ١٩٩٠.

ابن مماتي: أسعد (ت ٦٠٦هـ /١٢٠٩)

١٢٤- قوانين الدواوين، جمع وتحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.

المنذري: زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

١٢٥- تهذيب الترهيب والترغيب الشريف، تحقيق: عوني نعيم الشريف، الوكالة العربية للتوزيع، الأردن، ١٩٩٠.

ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد (ت ٧١١هـ/١٣١١م)

١٢٦- لسان العرب، القاهرة، (د. ت)

أبن ميسر: محمد بن علي بن يوسف بن جلب (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م)

١٢٧- تاريخ مصر، أعتنى بتصحيحه: هنري ماسيه، مطبعة العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩، ج٢.

أبن منقذ: اسامة (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م)

١٢٨- الاعتبار، تحرير : فيليب حتى، برينستون ، اعيد طبعه بالأوفسيت، بغداد ١٩٨١.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

١٢٩- نهاية الإرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كرستا توماس وشركاه، القاهرة، (د. ت).

النويري: محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني (ت ٧٥٥هـ/١٣٧٢م)

١٣٠- الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، ج٤، تحقيق: عزيز سوريال عطية، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالمية الهندية، حيدرآباد، الدكن ١٩٧٠.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)

١٣١- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وزارة المعارف المصرية، ج١، ٢، ٣، الناشر والمحقق: د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٠.

١٣٢- الجزء ٤، ٥، تحقيق: حسين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٢م.

ابن الوردي: زين الدين بن عمر بن مصطفى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

١٣٣- تتمة المختصر في تاريخ البشر المشهور بـ(تاريخ ابن الوردي)، ط١، بيروت، ١٩٩١

وليم الصوري: (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م)

١٣٤- الحروب الصليبية، الترجمة والتعليق: حسن حبشي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.

اليافعي: أبو محمد عبد الله بن سعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)

١٣٥- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط٢، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ١٩٧٠.

أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (١٨٢هـ/٧٩٨م)

١٣٦- كتاب الخراج، الطبعة الخامسة، الناشر، قصي محي الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

١٣٧- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

١٣٨- معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ط١، دار الكتب العلمية، (د. م)، ١٩٩١.

اليونيني: أبي الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)

١٣٩- ذيل مرآة الزمان، ط١، دائرة المعارف، حيدر آباد، ١٩٥٣، مج١، ج٢.

قائمة المراجع

الأهل، عبد العزيز السيد:

١- أيام صلاح الدين، منشورات المكتب التجاري، بيروت ١٩٦١م.

أمين، نه به ز مجيد:

٢- الاستخبارات الأيوبية في عهد صلاح الدين، رسالة دكتوراه، مطبعة قتلا، السليمانية ١٩٩٨م.

ايليسيف، نيكيتا:

٣- الشرق الاسلامي في العصر الوسيط. ترجمة: منصور أبو الحسن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت ١٩٨٦.

بارتلمي، سانتهيلر:

٤- السياسة لارسطو طاليس، ترجمة: احمد لطفي السيد، منشورات الفاخرية الرياض (د.ت).

بروكلمان، كارل:

٥- تاريخ الشعوب الاسلامية، نقله الى العربية: نبيه فارس ومنير البعلبكي دار العلم للملايين، ط٢، بيروت ١٩٧٥.

بيلي، احمد:

٦- حياة صلاح الدين، ط٢، القاهرة ١٩٢٦م.

بيومي، علي:

٧- قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٥٢م.

جب، هاملتون:

٨- صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الاسلامي) حررها: يوسف أيبش المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م.

حتي، فيليب وآخرون:

٩- تاريخ العرب (المطول)، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ط٢، بيروت، ١٩٥٣م.

١٠- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، أشرف على مراجعته وتحريره د. جرائيل حبور، دار الثقافة بيروت، مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٩م.

حسن، حسن إبراهيم:

١١- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٦٤.

١٢- تاريخ المماليك البحرية، ملتزم الطبع والنشر، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.

حسن، إبراهيم حسن، علي إبراهيم:

١٣- النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٢م.

حسين، محسن محمد:

١٤- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وأبرز المعارك التي خاضها، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٦م.

الحميدة، سالم محمد:

١٥- الحروب الصليبية (عهد النصر)، ج٤، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٩٤م.

دحلان، احمد بن زيني:

١٦- الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، ج٢، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، ١٣٥٤هـ.

ديورانت، ول:

١٧- قصة الحضارة: ترجمة: محمد بدران، ط٢، القاهرة، ١٩٦٥م.

دوزي، رينهارت:

١٨- تكملة المعاجم العربية، نقله الى العربية وعلق عليه د. محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

رمضان، هويدا عبد العظيم:

١٩- المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربية إلى العصر الفاطمي، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتابة، مطابع الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.

الرمادي، د. جمال الدين:

٢٠- الأمن والسلام في الإسلام، سلسلة اقرأ، ملتزم الطبع والنشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

رنسيمان، ستيفن:

٢١- تاريخ الحروب الصليبية، الترجمة: السيد الباز العريني، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م.

زابوروف، ميخائيل:

٢٢- الصليبيون في الشرق، ترجمة: ألياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م.

الزاوي، الطاهر أحمد:

٢٣- ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الكتاب، ط٢، طرابلس، ١٩٨٠.

زكي، د. عبد الرحمن:

٢٤- قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، سلسلة الألف كتاب (٢٨٨)، مطبعة النهضة، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢٥- القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٦١م.

زكي، محمد أمين:

٢٦- تاريخ الدول والإمارات الكوردية، ترجمة ومراجعة: محمد علي عوني، مصر، ١٩٤٨م.

الزيات، أحمد حسن وآخرون:

٢٧ المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).

السامرائي وآخرون:

٢٨- دراسات في الحسبة والمحتسب عند العرب، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد، ١٩٨٨.

سرور، محمد جمال الدين:

٢٩- الدولة الفاطمية في مصر وسياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، ملتزم الطبع و النشر، دار الفكر العربي، دار الثقافة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٦٦م.

٣٠- مصر في عهد الدولة الفاطمية، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، سلسلة الألف كتاب (٢٧٤)، القاهرة، (د.ت).

سعد، احمد صادق:

٣١- تاريخ المصر الاجتماعي والاقتصادي، ط١، بيروت ١٩٧٩م.

سعداوي، نظير حسان:

٣٢- التاريخ الحربي المصري، في عهد صلاح الدين، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥م.

سميل، ر. س:

٣٣- الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢م.

سلطان، سلطان جبر:

٣٤- الدور السياسي للعلماء المسلمين أيام الحروب الصليبية (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م)، رسالة دكتوراه مكتوبة بالكومبيوتر، جامعة الموصل ١٩٩٩م.

الشاعر، محمد فتحي:

٣٥- أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية، من منشورات مكتبة دار الثقافة، مطبعة الديواني، بغداد ١٩٨٩م.

الشامي، د. عبد العال عبد المنعم:

٣٦- مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، جامعة الكويت، ط١، الكويت ١٩٨١م.

الشتنتاوي، أحمد وآخرون:

٣٧- دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، القاهرة، (د. ت)

الشيال، جمال الدين:

٣٨- تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبي والمملوكي، ج٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م.

الصائغ، ذكرى عزيز محمد صالح:

٣٩- عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير، مطبوعة على آلة الطابعة، جامعة الموصل ١٩٨٨م.

ضومط، أنطوان خليل:

٤٠- الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، السلسلة التاريخية، ط١، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

٤١- مصر والشام في عصر الأيوبيين، والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢م.

عامر، د. فاطمة مصطفى:

٤٢- تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

عبد الباقي، محمد فؤاد:

٤٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، طبعة ناصر خسرو، تهران ١٣٧٤هـ.

عبد الجبار، محمد:

٤٤- ديسك ليزري- (CD) عرض وثائقي لفترة صلاح الدين، مراجعة وتحرير النص: ربيع عبد الرؤوف الزواوي، العنوان www.edumedia.com

العريني، السيد الباز:

٤٥- الشرق الأدنى في العصور الوسطى (١) الأيوبيون، دار النهضة للطباعة والنشر، مطابع مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، بيروت ١٩٦٧م.

٤٦- مصر في عصر الأيوبيين، سلسلة الألف كتاب (٢٦٩)، الناشر: مطبعة الكيلاني الصغيرة، القاهرة ١٩٦٠م.

العسلي، بسام:

٤٧- فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، مج٤، ط١، بيروت ١٩٨٨م.

عنان، محمد عبد الله:

٤٨- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، نشرت بعناية مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٩٥٩م.

٤٩- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، الناشر مطبعة الخانجي، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٩م.

علي، محمد كرد:

٥٠- خطط الشام، دار العلم للملايين، مصححة بقلم المؤلف، بيروت ١٩٦٩م.

عـواد، ميخائيل:

٥١- المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد ١٩٤٨م.

عيسى، علي نجم:

٥٢- حماة في العهد الأيوبي من (٥٧٠-٦٥٨هـ/١١٧٤-١٢٥٩م)، رسالة ماجستير مطبوعة بالكومبيوتر، جامعة البصرة، البصرة ١٩٩٠م.

غانم، د. حامد زيان:

٥٣- العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي، أسرة شيخ الشيوخ، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة ١٩٧٨م.

غوانمة، يوسف درويش:

٥٤- إمارة الكرك الأيوبية، الناشر بلدية الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، ١٩٨٠م.

قاسم، قاسم عبده:

٥٥- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٠م.

قلعجي، قدري:

٥٦- صلاح الدين الأيوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، ط٥، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٧٩م.

كازانوفا، بول:

٥٧- تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة وتقديم: د. أحمد دراج، مراجعة: د. جمال محرز.

كريزويل، ك، أ:

٥٨- وصف قلعة الجبل، ترجمة: د. جمال محمد محرز، مراجعة: د. عبد الرحمن زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.

الكيالي، سامي:

٥٩- السهروردي، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٦م.

كيلاني، محمد سيد:

٦٠- الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، مكتبة مصر، مطبعة دار الكتاب العربي، مصر (د. ت).

كرينياوم، جي، ئي:

٦١- الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ترجمة: د. صدقي حمدي، مراجعة، د. صالح أحمد العلي، الناشر: مكتبة دار المتنبي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٦م.

لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية:

٦٢- المؤرخ ابن تغري بردي، مجموعة من الأبحاث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.

ماجد، عبد المنعم:

٦٣- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة الأنكلو المصرية، ط٣، مزيدة ومنقحة، القاهرة ١٩٨٥م.

ماهر، سعاد:

٦٤- القاهرة القديمة وأحيائها، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الناشر دار العلم، القاهرة، ١٩٦٢م.

مبارك، علي باشا:

٦٥- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، تاريخ القاهرة ومصر منذ العصر الفاطمي حتى عصر توفيق، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة، سنة ١٩٦٩م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

متز، آدم:

٦٦- الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

مجموعة من المؤلفين:

٦٧- الإسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة: سيف الدين القصير، تحرير: د. فرهاد دفتري، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

مجموعة من المؤلفين:

٦٨- موسوعة السياسة، تحرير وإشراف: د. عبد الوهاب الكيالي، كامل زهير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، مطبعة المتوسط، بيروت ١٩٧٤م.

٦٩- دراسات في الحسبة والمحتسب عند العرب، مطبعة العمال المركزية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد، ١٩٨٨م.

محمد، د. صباح محمود:

٧٠- الأمن الإسلامي دراسات في التحديات الجيوبوليتيكية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١، بيروت، ١٩٩٤م.

مصطفى، شاكر:

٧١- المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ج١، ٢، كويت، ١٩٨٨م.

المعاضيدي، د. خاشع:

٧٢- الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي (٣٥٩-٥٦٧هـ)، رسالة الدكتوراه، ط١، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٦م.

مقبل، فهمي توفيق:

٧٣- الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠م.

نوري، دريد عبد القادر:

٧٤- سياسات صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٦م.

نيوباي، ب. هـ:

٧٥- صلاح الدين وعصره، ترجمة: ممدوح عدوان، تقديم، سامي الجندي، دار الجندي للنشر، ط١، دمشق ١٩٩٣م.

هالم، هانز:

٧٦- الفاطميون وتقاليدهم التعليم، تعريب: سيف الدين القصير، مراجعة: د. مجيد الراجي، ط١، وزارة الثقافة للنشر، دمشق ١٩٩٩م.

مؤنس، حسين:

٧٧- نور الدين محمود (سيرة مجاهد)، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

هنتس، فالتر:

٧٨- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة عن الألمانية: د. كامل العسلي، أق-بتولي، أصدره: بيرتولد شبولر، المجلد الملحق، الكراس (١)، عمان ١٩٧٠م.

- المراجع الأجنبية:

Gabrieli, Francesco:
1- A short history of the Arabs, London 1965.
Jones, Terry and Ereira, Alan:
2- Crusades, England 1996
Lan pool, Stanly:
3- A history of Egypt in the Middle Ages, London 1968.
Lapidus, Ira, M.:
4- Muslim cities in the later middle ages, Cambridge University Press.
Mayer, Hans Eberhand:
5- The Crusades, Great Britain 1965.
Muir, Sir William:
6- The caliphate, its nise, decline, and fall, Edinburgh 1975.
O'clery, Helen:
7- The Pegasus book of Egypt. Edited by patrizk pringle, London pennise Dobson 1968.
Shaban, M. A:
8- Islamis history, Vol. 2, Great Britain 1970.

- الدوريات العربية:

١- مجلة دراسات تاريخية، مشروع كتاب تاريخ العرب، جامعة دمشق:

٢- العددان ٢٩-٣٠ آذار وحزيران، السنة التاسعة ١٩٨٨م.

٣- العددان ٤٩-٥٠ آذار وحزيران، السنة الخامسة عشر ١٩٩٤م.

٤- مجلة المعرفة، اللجنة العلمية الاستشارية للمعرفة، د. محمد فؤاد إبراهيم وآخرون، العدد (١١)، لبنان ١٩٧٩م.

٥- الموسوعة، عربية عالمية بالألوان، الناشر ترادكسيم، شركة مساهمة سويسرية، مج١١، ط١، جنيف ١٩٨٥م.

٦- مجلة المورد: بغداد، المجلد السادس عشر، العدد الرابع عشر، سنة ١٩٨٧م.

- الدوريات الأجنبية:

* Arabic Journal for Humanistic, Vol. 10, No 38, 1990 Kwait.
* Time, Present of the century December, No. 31, 1999.



کورتەی باس بەزمانی کوردی

ئەم باسە کە بەناونیشانی((ئاسایش لە میسر لە سەردەمی ئەییوبیەکان (٥٦٧-٦٥٥ك/١١٧١-١٢٨٥ زایینی)) یە تیشك دەخاتە سەر لایەنێکی گرنگ لە سیستەمی ئاسایش لە شانشینی ئەییوبی وەکو بنەمایەك لە دەوڵەتەکەیان باسەکە پێنج بەشە. بەشی یەکەم تایبەتە بە ئاسایشی میسر لە سەردەمی حوکمداریێتی فاتیمیەکان ودەستپێکێکە بۆ چوونە ناو بابەتەکەوە.

بەشی دووەم تیشك دەخاتە سەر پێگە ئاسایشییەکان کە بریتین لە قەلاّو شوورەو سەنگەرەکان کە فەرمانڕەوایانی ئەییوبی لە میسردا بۆ پاراستنی ئاسایش دروستیان کردووە.

بەشی سێیەم تەرخان کراوە بۆ باسی دامودەزگا ئاسایشیەکان کە ئەییوبیەکان لە پێناو پاراستنی ئاسایشی کەسێتی سوڵتان ودەستوپێوەندەکانی دامەزراوەو یەکێکە لەو هێزە سەرەکیانەی کە پەیوەندییەکی ڕاستەوخۆی بە دەسەلاّتی ئەییوبیەکانەوە هەیە.

بەشی چوارەم لە ئاسایشی گشتی دەکۆلێتەوە وگرنگی بە ئاسایشی تاکەکەسی سوڵتان دەدات وجەخت لەسەر ئاسایشی ئابووری وکۆمەلاّیەتی دەکات.

دوا بەش کە بەشی پینجەمە باس لە ململانێ ودووبەرەکی وناکۆکیەکان کراوە وکارەساتە مرۆییەکانی ئەو سەردەمە خراونەتە ڕوو، هەروەها باسی کاریگەریی هەریەك لەو کارەساتانە کراوە لەسەر ڕەوشی کۆنترۆل کردنی ئاسایشی میسر .

بۆ نووسینەوەی باسەکەش پشت بە چەند سەرچاوەیەك بەستراوە بە زمانانی دی جگە لە کوردی.

Abstract

The present Ph. D., in Islamic history, deals with Egypt's security during the Ayubids (567-655 H/1171-1255 A .D).

Brushing aside the introduction and analysis of the main sources or references, this thesis comprises five chapters.

The first chapter is about the security of Egypt during the Fatimids' era. This chapter is an introduction to the main body of the study.

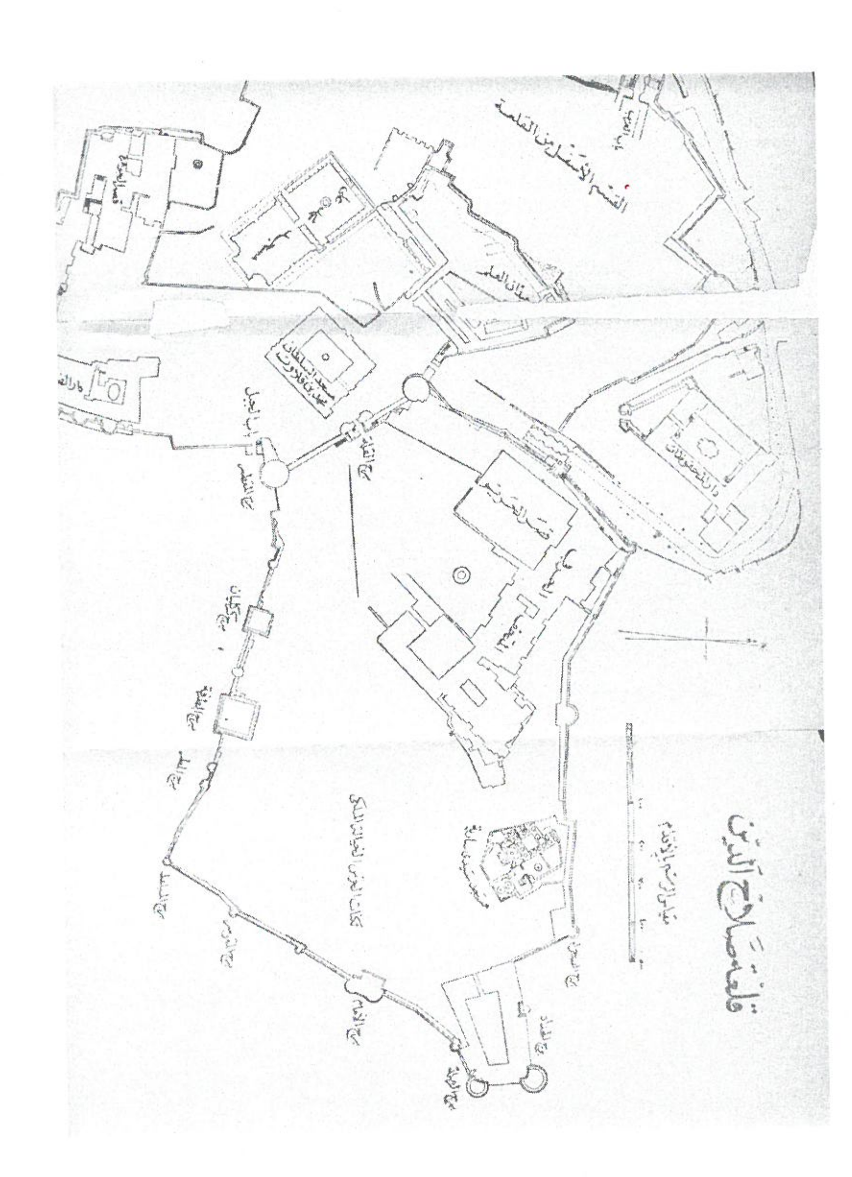
The second chapter sheds light on the security bases which include the castles, forts and long walls. All these were constructed during the Ayubids' era in Egypt and its suburbs. The Ayubids had constructed all these bases to protect their state. The citadel Jabal (Saladin citadel), Cairo wall and Rautha citadel are dealt with as well.

The third chapter handles the security establishments founded by the Ayubids to protect the security of Sultan-king, his family and Authority and other forces which had a direct relation or link with the authority.

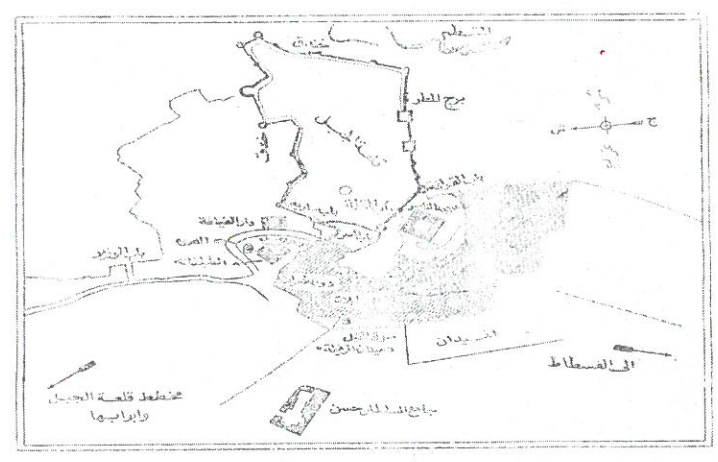
The fourth chapter tackles the public security. This chapter focuses on the security of people including the security of economy, healthy, administration, pilgrimage (Hadj) and prisoners of war.

The fifth chapter is allocated to the major conflicts and struggles, natural and human catastrophes and the impact of each on the security situation in Egypt and its suburbs.

Finally synopses in Kurdish and English and a list of references are put at the end of this paper.



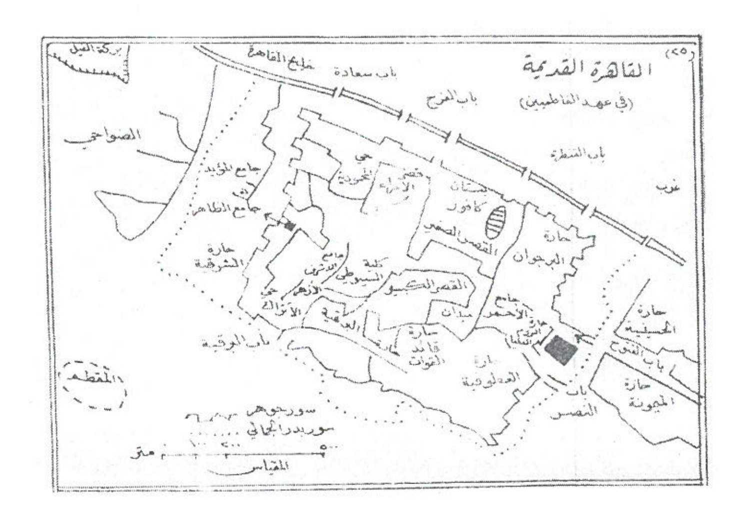
ملحق رقم (١)



مخطط قلعة الجبل وأبوابها

ملحق رقم (٣)





ملحق رقم (٤)